اللُّؤْلُؤُ الثَّمين

مِن كلام الإمام الشيخ

عبدِ الله سِراج الدِّين

جمع وإعداد

وَلَدِهِ المهندس الشيخ

محمد مُحيي الدِّين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

اللّؤلؤ الثّمينُ

مِن كَلام الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

جمع وإعداد

وَلَدِهِ

المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

اعتنى به

د. بكري بريمو السمان

أيها القارئ الكريم

هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة

إلى العَلّامة الكبير والعارف الشهير

الإمام المفسِّر المُحَدِّث الشيخ

عبدِ الله سِراج الدِّين الحُسيني

وإلى ولده الكريم

فريد عصره ووحيد دهره

المهندس الشيخ

محمد مُحيي الدِّين سِراج الدِّين

رضي الله عنهما، وجزاك الله خيراً.

الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام

www.srajalden.com

المحاضرة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾آمين.

الحمد لله رب العالمين.

تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾.

امتَنَّ الله تعالى على العباد ببعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم، وبيَّن سبحانه الحكمة في إرساله عليه الصلاة والسلام؛ وذلك أن الله تعالى أرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى العالَم لأجل أن يتلو عليهم آيات الله تعالى ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وهذه من جملة مواقف النبي صلى الله عليه وسلم مع العالَم لأن الله تعالى أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم إلى العالَم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة.

وقد جاء بيان هذه المواقف المحمدية مع العالم في عدة من الآيات القرآنية الكريمة، فمن جملة هذه المواقف: أنه صلى الله عليه وسلم جاء بَيِّنَةَ الله الكبرى على العالمين، وهذا ما ذكره سبحانه في سورة ﴿ٱلۡبَيِّنَة﴾ فقال جل جلاله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝٣﴾.

وهذه ﴿ٱلۡبَيِّنَة﴾ هي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تعالى بَيِّنَةً جامعة لكل بَيِّنَةٍ.

وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم أنه ما من رسول أرسله إلا وقد أيّده بالبينات -أي: بالبراهين العقلية الدامغة، والمعجزات الكونية الدالة على صدق نبوته ورسالته- وفي هذا يقول سبحانه:﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فلقد سماه الله تعالى بـ ﴿ٱلۡبَيِّنَة﴾..

فقد جاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- جاؤوا بالبينات، وجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو ﴿ٱلۡبَيِّنَة﴾ وهذا لأنه صلى الله عليه وسلم جاء بالبيّنات التي جاءت بها الرسل قَبْله وزاد عليهم، ولأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاؤوا بالبينات حجة على قومهم، فظهرت براهين نبوة الرسل ببيّناتهم، ثم أخبر كل نبي وكل رسول أخبر أمّته أن سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وأَمَرَ قومه أن يؤمنوا بهذا الرسول الكريم قبل ظهوره في هذا العالم الدنيوي، فجميع الرسل وبيناتهم شهدت أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا سماه الله تعالى ﴿ٱلۡبَيِّنَة﴾ فقال عز من قائل: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١﴾.

فقد أعطى الله تعالى سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أعطاه بيّنات؛ ومن بيّناته ومعجزاته: أنه كسّر الأصنام -التي كان قومه يعبدونها- كسرها وحده بالفأس مستعيناً على ذلك برب العالمين، وحَفِظَهُ الله تعالى من أذى قومه وشرورهم، وكانت تلك الأصنام كبيرة ضخمة متمكنة في الأرض فكسرها كلها في مدة وجيزة.. وهذا قوله تعالى مخبراً عن الخليل: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وقال سبحانه: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾،

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد دخل المسجد الحرام لمّا فتح مكة؛ وكان حول الكعبة وقتئذ ثلاثمائة وستون صنماً -إذ كان لكل جماعة من المشركين صنم أو أصنام- فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي كل صنم وفي يده الشريفة عُرجون -أي: عُود- من النخل ، فيقف إلى جانب الصنم ويقرأ عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ ، فيخر الصنم على وجهه وينكسر ويتحطم حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جميع الأصنام وحطّمها بهذا الشكل ولم يحتج إلى فأس أو غير ذلك[1].

فإذا كان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد كسر الأصنام بالفأس مستعيناً بقوة الله تعالى فقد كسر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصنام بالإشارة إليها بغصن النخل مستعيناً بقوة الأسرار القرآنية الربانية، وهذه البيّنة التي ظهرت على يدَي رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أعظم من بينة الخليل عليه الصلاة والسلام في تكسيره للأصنام.

[1] انظر صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وكتاب عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٣٢/١٣

كما أن الله تعالى قد أعطى سيدنا موسى الكليم عليه الصلاة والسلام أعطاه بينات مرئية مشهودة، وبينات عقلية من براهين قاطعة وحجج ساطعة، وأعطى سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ما هو أعظم من ذلك...

فمن جملة معجزات سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام: أن أيّده الله بالعصا واليد البيضاء وانفلاق البحر وتفجير الماء من الحجر ...كل ذلك آيات بيّنات تشهد أن موسى كليم الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

فإن كان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قد ضرب البحر بعصاه فانفلق ومشى عليه موسى عليه السلام وقومه، وأمر الله البحر وقتئذ أن يأتمر بأمر موسى عليه السلام، فلما ضربه بالعصا انشق وصار فيه اثنا عشر طريقاً عبره موسى ومَن معه مِن بني إسرائيل حتى إذا وصلوا إلى الجهة الأخرى أراد موسى أن يضرب البحر ليعود كما كان إلا أن الله أمره أن يتركه حتى يدخل فيه فرعون وقومه كلهم، قال جل وعلا: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤﴾ فلما دخل فرعون وقومه ضرب موسى البحر فأغرقهم كلهم:

إن الله تعالى الذي أعطى ذلك كله لموسى عليه الصلاة والسلام قد أعطى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر، وهي بيّنة أعظم من انشقاق البحر، لأن البحر جزء من عالم الأرض، وعاين انفلاقه جماعة من الناس-وهم قوم سيدنا موسى عليه السلام- أما انشقاق القمر نصفين متباعدين فهو آية أعظم لأن جُرْمَ القمر أكبر وأعظم من جرم البحر الذي شقه موسى عليه الصلاة والسلا ، كما أن انشقاق القمر آية كبرى شاهدها أهل مكة كلهم، وشاهدها أيضاً مَن كان خارج مكة مِن قريب أو بعيد، كما أن انشقاق القمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن خوفاً من قريش، ولم يكن خاصاً بهم، وإنما كان الانشقاق آية عامة وبينة كبرى لكل العالمين تشهد لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله حقاً، فهو بينة على صدق نبوته ورسالته، وهو بينة على أنه صلى الله عليه وسلم خاتَم النبيين، وعلى أنه الرسول المبعوث آخر الزمن صلى الله عليه وسلم.

كما أن انشقاق القمر بيّنة تصدق ما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قيام الساعة وقربها؛ وأن أمر الساعة وخراب العالم لا بد منه، فأراهم صلى الله عليه وسلم بينة صادقة على أن خراب العالم أمر ممكن...

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾.

وهذا لما جاء جماعة من المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه آية -وأرادوا معاجزته عناداً منهم- فقالوا: "شُقَّ لنا القمر" -وظنوا أن هذا الأمر لا يقع- فقال لهم: [إن فعلت تؤمنوا؟] - أي : تؤمنوا بأني رسول الله ؟ فوعدوه بذلك ، وكانت ليلة البدر، فجاؤوا واجتمعوا، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم -والصحابة حوله- فدعا الله تعالى فانشق القمر وتباعد نصفين مدة من الزمن، حتى عاين ذلك أهل مكة كلهم وكذلك مَن كان خارج مكة، ثم أشار صلى الله عليه وسلم إلى القمر فعاد والتأم كما كان، فآمن بعض المشركين وعاند بعضهم، وقالوا : "هذا سحر " فقال بعضهم: "نسأل القوافل القادمة من الشام: هل رأوا انشقاق القمر ليلة كذا؟

فإن كان قد سَحَرَنا فلا يستطيع أن يسحر المسافرين"

فلما وصلوا سألوهم فقالوا: "نعم، رأينا انشقاق القمر ليلة كذا" فآمن بعضهم، وعاند وجحد بعضهم وقالوا: سحر مستمر ، أي : أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد سحر كلَّ من نظر إلى القمر، وهذا قوله تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾[1].

---

[1] ذكر الحافظ السيوطي في (الدر المنثور) كثيراً من الروايات حول هذه المعجزة، ومنها: ما أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ قال : (اجتمع المشركون على عهد رسول الله ﷺ ؛ =

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ] وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى[1]، وفي رواية: [فَسَبَقْتُهَا كَمَا سَبَقَتْ هَذِهِ هَذِهِ][2].

فلما بُعِثَ صلى الله عليه وسلم وانشق القمر كان انشقاق القمر آية شاهدة بصدق نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم وأنه خاتم النبيين، وأن الساعة تقوم آخر الزمن في أمّته، وكان انشقاق القمر دليلاً على ذلك أيضاً، ولذلك قَرَنَ سبحانه اقتراب الساعة بانشقاق القمر ليبيّن أن أمر هذا العالم مآله إلى الخراب ، فكما قبِل القمر الانشقاق فهو يقبل التفتت والخراب، وكذا سائر النجوم والأجرام، وهذا ما سيحصل عند قيام الساعة.

ولقد جاء سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بتفجير الماء من الحجر، كما أخبر سبحانه: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنَاۖ﴾ لأنهم كانوا اثنتي عشرة سبطاً -أي قبيلة- فتفجرت عيون الماء على عدد أسباطهم كي لا يختلفوا ويقتتلوا مع بعضهم كما قال سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ﴾ .

وإذا كان موسى عليه الصلاة والسلام يضرب الحجَر فتتشقق وتنفجر منه المياه فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم قد تفجرت المياه من بين

= منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاصي بن وائل والعاصي بن هشام والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والنضر بن الحرث فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : "إن كنت صادقاً فَشُقَّ لنا القمر فرقتين؛ نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان" فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : [إن فعلت تؤمنوا]؟ قالوا : "نعم"، وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما سألوا فأمسى القمر نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي: [يا أبا سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم اشهدوا].

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجمعة

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الفتن

أصابعه الشريفة حتى ارتوى القوم وتزودوا -على كثرة عددهم-؛ وهذه بينة أعظم وأكبر، وقد حصل هذا في عدة مناسبات...

فمن ذلك ما جاء في صحيح البخاري عَنْ سَالِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

(عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ؛ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا ثُمَّ أَقْبَلَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَا لَكُمْ؟]

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ بِهِ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا فِي رَكْوَتِكَ.

قَالَ: فَوَضَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ.

قَالَ: فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا.

فَقُلْتُ لِجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟

قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا؛ كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً)[1].

وهذا الماء الذي نبع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم هو أفضل المياه على الإطلاق لأن الماء يَشْرُفُ على شرف مَعينه وينبوعه، ولا مَعين ولا ينبوع أشرف وأكرم مِن جسم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهنيئاً للصحابة الذين شربوا من ذلك الماء المبارك لأن كل خير وسعادة فيه.

وإذا كانت الينابيع تتفاضل وتتفاوت في خصائصها وفضائلها فإن كل الخصائص والفضائل قد اجتمعت في ذلك الماء الذي تفجر من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم على وجه لا يقارَن به ماء آخر.

---

[1] في كتاب المغازي، ومن ذلك أيضاً ما جاء في الصحيحين واللفظ للبخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِنَاءٍ وَهُوَ بِالزَّوْرَاءِ) وهو مكان معروف في المدينة المنورة عند السوق (فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ فَتَوَضَّأَ الْقَوْمُ.
قَالَ قَتَادَةُ: قُلْتُ لِأَنَسٍ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: ثَلَاثَ مِائَةٍ أَوْ زُهَاءَ ثَلَاثِ مِائَةٍ).
وفي رواية مسلم: (فَأُتِيَ بِإِنَاءِ مَاءٍ لَا يَغْمُرُ أَصَابِعَهُ؛ أَوْ قَدْرَ مَا يُوَارِي أَصَابِعَهُ) صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذا تعلم أنه صلى الله عليه وسلم فيّاض بالخيرات المعنوية الروحية، وبالخيرات الحسّية المادية، فهو صلى الله عليه وسلم منبع الخيرات والبركات على اختلاف أنواعها، فلما احتاج الصحابة للماء أفاض عليهم الماء، ولما احتاجوا للغذاء أفاض عليهم الغذاء، وهذا ما حصل يوم الخندق.

فقد روى الشيخان واللفظ للبخاري عن جَابِر بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

(لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمَصًا شَدِيدًا فَانْكَفَأْتُ[1] إِلَى امْرَأَتِي فَقُلْتُ: (هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمَصًا[2] شَدِيدًا).

فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ[3]فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ فَفَرَغت إِلَى فَرَاغِي وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا[4] ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: (لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَنْ مَعَهُ)[5].

---

[1] أي: انصرفتُ
[2] أي: جُوعاً
[3] أي شاة صغيرة
[4] أَيِ: القِدْر
[5] يعني لأن الطعام قليل لا يكفي إلا النفر القليل

فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ"[1]، فَصَاحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: [يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا[2] فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ][3].

وقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ].

فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي فَقَالَتْ: (بِكَ وَبِكَ)، فَقُلْتُ: (قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ).

فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: [ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ[4]، وَلَا تُنْزِلُوهَا].

وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا[5] وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ[6] كَمَا هِيَ[7]، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ)[8].

---

[1] قال في المرقاة: وَهُوَ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ مِنَ الرِّجَالِ، وَيُطْلَقُ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ، وَكَأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ إِلَى الْمَعْنَى الثَّانِي لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ.

[2] أي: طعاماً

[3] وقد مرت عليهم عدة ليال لم يأكلوا لانشغالهم في حفر الخندق ورصد الأعداء

[4] قال في المرقاة: أي: اغْرِفِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ

[5] أي: انصرَفوا

[6] أَيْ: لَتَفُور وَتَغْلِي وَيُسْمَعُ غَلَيَانُهَا

[7] أَيْ: مُمْتَلِئَةٌ

[8] صحيح البخاري كتاب المغازي وصحيح مسلم كتاب الأشربة

ولقد أعطى الله تعالى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام اليد البيضاء بيّنة على صدقه، قال تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾[1] فكان موسى عليه الصلاة والسلام يمد يده اليمنى من مدخل عنقه إلى إبطه الأيسر مروراً بجهة القلب، ثم يخرجها فإذا هي بيضاء نيّرة -وذلك حتى يرى قومه نور شريعته التي جاء بها-.

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء بنور قاهر باهر ظاهر في طلعته البهية صلى الله عليه وسلم ظهور الشمس في ضحى النهار ، وكالقمر ليلة البدر، ويتدفق النور حين تَكلُّمه صلى الله عليه وسلم، فكان النور يخرج من بين ثناياه[2] الشريفة، وكان هذا النور المحمدي ينعكس في أصحابه عليهم رضوان الله تعالى فيستنيرون بأنواره صلى الله عليه وسلم، وهذه البينة أعظم من بينة الكليم موسى عليه الصلاة والسلام.

روى الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

[مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ][3] ... صلى الله عليه وآله وسلم.

---

[1] قال في (تفسير الخازن): يعني: من غير برص، والمعنى أنه عليه السلام أدخل يده فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس. اهـ

[2] قال في (فيض القدير): (الثنايا: جمع ثَنِيّة وهي الأسنان الأربع التي في مقدم الفم؛ ثنتان من فوق وثنتان من تحت). اهـ ٧٢/٥

[3] المسند ٨٥٨٦ وسنن الترمذي كتاب المناقب

وروى الدارمي وغيره عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ[1] قَالَ:

(قُلْتُ لِلرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ[2]: صِفِي لَنَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ لَوْ رَأَيْتَهُ رَأَيْتَ الشَّمْسَ طَالِعَةً][3] فطلعته صلى الله عليه وسلم طلعة الشمس في رونق النهار.

وقد تواترت هذه الأوصاف لطلعته البهية صلى الله عليه وسلم؛ تواترت عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد روى الدارقطني في السنن والبيهقي في الدلائل وغيرهما عَنْ طَارِقِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُحَارِبِيِّ قَالَ: (أَقْبَلْنَا فِي رَكْبٍ مِنَ الرَّبَذَةِ وَجَنُوبِ الرَّبَذَةِ حَتَّى نَزَلْنَا قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ، وَمَعَنَا ظَعِينَةٌ[4] لَنَا.

قَالَ: فَبَيْنَا نَحْنُ قُعُودٌ أَتَانَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ) -أي: إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنهم لم يكونوا يعرفونه من قبل-

(فَسَلَّمَ فَرَدَدْنَا عَلَيْهِ فَقَالَ: [مِنْ أَيْنَ أَقْبَلَ الْقَوْمُ؟]

قُلْنَا: مِنَ الرَّبَذَةِ وَجَنُوبِ الرَّبَذَةِ؛

وفي رواية: (قال: [وأين تريدون؟]

قلنا: نريد هذه المدينة.

---

[1] التابعي الجليل الثقة؛ رحمه الله تعالى ورضي عنه وعن التابعين والصحابة الكرام أجمعين.

[2] الصحابية الجليلة التي قال عنها الحافظ ابن عبد البر في (الاستيعاب): (لها صحبة ورواية، روى عنها أهل المدينة، وكانت ربما غزت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم).
قال أحمد بن زهير: سمعت أبي يقول: (الربيِّع بنت معوذ بن عفراء من المبايعات تحت الشجرة).
وقال موسى بن هارون الحمّال: (الربيع بنت معوذ بن عفراء قد صحبت النبي صلى الله عليه وسلم ولها قَدر عظيم). اهـ ٩٣/٢

[3] سنن الدارمي في المقدمة ودلائل النبوة للبيهقي والمعجم الكبير للطبراني

[4] أي: امرأة مسافرة

قال: [ما حاجتكم فيها؟]

قلنا: نمتار من تمرها.

قَالَ: وَمَعَنَا جَمَلٌ أَحْمَرُ.

قَالَ: [تَبِيعُونِي جَمَلَكُمْ؟]

قُلْنَا: نَعَمْ.

قَالَ: [بِكَمْ؟]

قُلْنَا: بِكَذَا وَكَذَا صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، قَالَ: فَمَا اسْتَوْضَعَنَا شَيْئًا وَقَالَ: [قَدْ أَخَذْتُهُ] ثُمَّ أَخَذَ بِرَأْسِ الْجَمَلِ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ) - أي: حتى يرسل إليهم صلى الله عليه وسلم ثمن الجمل تمراً- (فَتَوَارَى عَنَّا، فَتَلاوَمْنَا بَيْنَنَا وَقُلْنَا: أَعْطَيْتُمْ جَمَلَكُمْ مَنْ لاَ تَعْرِفُونَهُ!

فَقَالَتِ الظَّعِينَةُ: لاَ تَلاوَمُوا؛ فَقَدْ رَأَيْتُ وَجْهَ رَجُلٍ مَا كَانَ لِيَخْفِرَكُمْ، مَا رَأَيْتُ وَجْهَ رَجُلٍ أَشْبَهَ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ مِنْ وَجْهِهِ) - ولم تكن تعلم من هو؛ لكنها رأت النور الساطع في وجهه صلى الله عليه وسلم-

(فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ أَتَانَا رَجُلٌ فَقَالَ: (السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ؛ إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ) وفي رواية: (هذا تمركم) أي: بعد أن جهزه لهم صلى الله عليه وسلم-

(وَإِنَّهُ أَمَرَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ هَذَا حَتَّى تَشْبَعُوا، وَتَكْتَالُوا حَتَّى تَسْتَوْفُوا) -أي: خذوا حقكم حتى تستوفوه على أكمل الوجوه-.

(قَالَ: فَأَكَلْنَا حَتَّى شَبِعْنَا، وَاكْتَلْنَا حَتَّى اسْتَوْفَيْنَا.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ النَّاسَ) - فعرفوا حينها أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم- (وَهُوَ يَقُولُ: [يَدُ الْمُعْطِي الْعُلْيَا، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ؛ أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ وَأَدْنَاكَ أَدْنَاكَ] أي: الأقرب فالأقرب من الأرحام-.

ثم إن هؤلاء آمنوا وبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم[1].

ولما سئل جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه: (أكان وجه النبي صلى الله عليه وسلم مثل السيف؟) -أي: في اللمعان-.

(قال: لَا؛ بَلْ كَانَ مِثْلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَكَانَ مُسْتَدِيرًا)[2].

وروى الترمذي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال :

(سألت خالي هند بن أبي هالة - وكان وصَّافاً - عن حِلْية رسول الله ﷺ، وأنا أشتهي أن يصفَ لي منها شيئاً أتعلَّق به[3] فقال:

كان رسول الله ﷺ فَخْماً مُفَخَّماً[4] يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلةَ البدر)[5] .. الحديث .

---

[1] صرّح بصحبة سيدنا طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه: ابن الأثير في (أُسْد الغابة في معرفة الصحابة) ٦٩/٣ والحافظ ابن عبد البر في (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) ٧٥٦/٢ وغيرهما.

[2] انظر صحيح مسلم كتاب الفضائل

[3] قال الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه في كتابه (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم): أي : أحفظه وأتمسك به قال العلماء: وإنما قال الحسن ذلك لأن النبي ﷺ توفي وهو صغير السن، فأراد أن يستعيد إلى ذاكرته تلك الأوصاف المحمدية ويجعلها محفوظة في خزانة قلبه ولوح خياله.

[4] أي: عظيماً في نفسه، معظَّماً في الصدور والعيون عند كل من رآه ﷺ.

[5] انظر (الشمائل المحمدية) للترمذي والمعجم الكبير للطبراني ودلائل النبوة للبيهقي

وكان صلى الله عليه وسلم إذا تكلم رؤي النور يخرج من فمه الشريف صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان رسول الله ﷺ أفلج الثَّنِيَّتين[1]، إذا تكلم رِيء[2] كالنور يخرج من بين ثناياه)[3].

ومن ذلك: حديث أبي قِرْصافة رضي الله عنه قال:

(كان بدءُ إسلامي أني كنت يتيماً بين أمي وخالتي، وكان أكثر ميلي إلى خالتي، وكنت أرعى شُوَيْهاتٍ لي.

فكانت خالتي كثيراً ما تقول لي: يا بني لا تَمُرَّ إلى هذا الرجل - تعني النبي ﷺ - فيُغويَك ويُضلّك .

فكنت أخرج حتى آتي المرعى ، وأترك شويهاتي وآتي النبي ﷺ، فلا أزالُ أسمع منه، ثم أروِّح غنمي ضُمْراً يابساتِ الضروع .

وقالت لي خالتي: ما لغنمكَ يابسات الضروع؟.

قلت: ما أدري.

ثم عدت إليه اليوم الثاني، ففعل كما فعل في اليوم الأول، غير أني سمعته يقول: [يا أيها الناس هاجروا، وتمسَّكوا بالإسلام، فإن الهجرة لا تنقطع ما دام الجهاد].

ثم إني رحتُ بغنمي كما رحت في اليوم الأول، ثم عدت إليه في اليوم الثالث، فلم أزل عنده أسمع منه، حتى أسلمت وبايعته وصافحتُه وشكوت إليه أمر خالتي وأمْر غنمي.

فقال لي رسول الله ﷺ: [جئني بالشياه] .

---

[1] قال المُناوي في (فيض القدير): (أي بعيد ما بين الثنايا والرباعيات).
[2] على وزن (قيل) على الأفصح، ويقال: بضم الراء وكسر الهمزة .اهـ ، كما في شرح (المواهب) .
[3] عزاه الحافظ الزرقاني إلى الترمذي والدارمي والطبراني.
وقال المُناوي في (فيض القدير): (الثنايا: جمع ثَنِيّة وهي الأسنان الأربع التي في مقدم الفم؛ ثنتان من فوق وثنتان من تحت). اهـ ٧٢/٥

فجئته بهنَّ، فمسحَ ظهورهنَّ وضروعهن، ودعا فيهن بالبركة، فامتلأن شحماً ولبناً.

فلما دخلتُ على خالتي بهنّ -أي: بالشياه- قالت: يا بنيَّ هكذا فارْعَ ! .

قلت: يا خالة ما رعيتُ إلا حيث أرعى كل يوم، ولكن أُخبركِ بقصتي - وأخبرتها بالقصة ، وإتياني النبيَّ ﷺ ، وأخبرتها بسيرته وبكلامه .

فقالت أمي وخالتي : اذهب بنا إليه .

فذهبت أنا وأمي وخالتي ، فأسلمْن وبايعْن رسولَ الله ﷺ[1].

وفي رواية عنه أنه قال:

(لما بايعنا رسول الله ﷺ أنا وأمي وخالتي ورجعنا من عنده منصرفين قالت لي أمي وخالتي: يا بني ما رأينا مثلَ هذا الرجل أحسنَ منه وجهاً، ولا أنقى منه ثوباً، ولا ألين كلاماً، ورأينا كأنَّ النور يخرج مِن فيه)[2]ﷺ.

وكان صلى الله عليه وسلم يُمِدُّ أصحابه بالنور إن هم احتاجوا إليه..

روى الإمام أحمد والطبراني واللفظ له عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ رضي الله عنه قَالَ: (كَانَتْ لَيْلَةٌ شَدِيدَةُ الظُّلْمَةِ وَالْمَطَرِ، فَقُلْتُ: "لَوْ أَنِّي اغْتَنَمْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ شُهُودَ الْعَتَمَةِ مَعَ النَّبِيِّ" ﷺ فَفَعَلْتُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَبْصَرَنِي وَمَعَهُ عُرْجُونٌ[3] فَقَالَ ﷺ: [مَا لَكَ يَا قَتَادَةُ، هَهُنَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟]

قُلْتُ: "اغْتَنَمْتُ شُهُودَ الصَّلاةِ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّه" فَأَعْطَانِيَ الْعُرْجُونَ، فَقَالَ ﷺ: [إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ خَلَفَكَ فِي أَهْلِكَ، فَاذْهَبْ بِهَذَا الْعُرْجُونِ، فَأَمْسِكْ بِهِ حَتَّى تَأْتِيَ بَيْتَكَ، فَخُذْهُ مِنْ وَرَاءِ الْبَيْتِ فَاضْرِبْهُ بِالْعُرْجُونِ].

وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم أَعْطَاهُ الْعُرْجُونَ وَقَالَ: [خُذْ هَذَا فَسَيُضِيءُ أَمَامَكَ عَشْرًا وَخَلْفَكَ عَشْرًا] أي: يضيء لك من بين يديك عشرة أذرع ومن خلفك عشرة أذرع ؛ وذلك حتى ينير له طريقه إلى بيته.

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني ورجاله ثقات.اهـ.
[2] قال في (مجمع الزوائد) :رواه الطبراني وفيه ما لم يُسَمَّ .
[3] أي : عصًا مِن النخل

قال قتادة رضي الله عنه: (فَخَرَجْتُ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَأَضَاءَ الْعُرْجُونُ مِثْلَ الشَّمْعَةِ نُورًا فَاسْتَضَأْتُ بِهِ، فَأَتَيْتُ أَهْلِي فَوَجَدْتُهُمْ رُقُودًا، فَنَظَرْتُ فِي الزَّاوِيَةِ، فَإِذَا فِيهَا قُنْفُذٌ) أي : شيطان متمثل بصورة قنفذ (فَلَمْ أَزَلْ أَضْرِبُهُ بِالْعُرْجُونِ حَتَّى خَرَجَ).[1]

وهذا من معجزات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكرامة لقتادة رضي الله عنه، وكل كرامة لولي معجزة لنبيه لأنه ما نالها إلا باتباعه لنبيه.

وهذا العلاء بن الحضرمي أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي على وجه الماء مع جيشه دون أن يشق البحر.

روى البيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : (جهّز عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشاً واستعمل عليهم العلاء بن الحضرمي.

قال أنس: وكنت في غزاته فأتينا مغازينا فوجدنا القوم قد نذروا بنا فعفوا آثار الماء -أي: عطّلوا منابع الماء ودمَّروها-.

قال أنس: وكان الحر شديداً فجهدنا العطش -أي: اشتدَّ علينا- وذلك يوم الجمعة، فلما مالت الشمس لغروبها صلَّى بنا ركعتين، ثم مد يده إلى السماء وما نرى في السماء شيئاً، قال أنس: فوالله ما حطَّ العلاء يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً، وأفرغت حتى ملأت الغُدر والشعاب، فشربنا وسقينا ركابنا وملأنا أوعيتنا، ثم أتينا عدونا، وقد جاوزنا خليجاً في البحر إلى جزيرة ، فوقف العلاء على الخليج ودعا فقال: (يا عليّ يا عظيم ، يا حليم يا كريم) .

ثم قال : (اجيزوا -أي سيروا- باسم الله) .

قال أنس : فسِرنا على وجه الماء وما يبلُّ الماء حوافر إبلنا ، وأصبنا العدو ، فقتلنا وأسرنا وسبينا، ثم أتينا الخليج .

فقال العلاء ودعا بمثل مقالته الأولى، فاجزنا وما يبلُّ الماء حوافر دوابنا .

فلم نلبث إلا يسيراً حتى رمي في جنازته -أي: توفي-.

قال أنس: فحفرنا له وغسلناه ودفنَّاه.

---

[1] مسند الإمام أحمد بن حنبل ١١١٩٨ والمعجم الكبير للطبراني

فأتى رجل بعدما دفناه فقال: إن هذه الأرض تلفظ الموتى؛ فلو نقلتموه إلى ميل أو ميلين إلى أرض تقْبل الموتى.

فقلنا : ما جزاء صاحبنا أن نعرضه للسباع تأكله، فاتفقنا على نقله، فحفرنا قبره فلما وصلنا إلى اللحد إذا صاحبنا العلاء ليس في القبر، وإذا اللحد مدّ البصر يتلألأُ نوراً.

قال أنس : فأعدنا التراب إلى اللحد ثم ارتحلنا.

نعم لقد نقلته الملائكة عليهم السلام[1].

وقد أمَدَّ سيدُنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أسيدَ بن حُضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما.. أمدهما بالنور ، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ وَعَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ رضي الله عنهما كَانَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ حِنْدِسٍ، قَالَ: (فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ أَضَاءَتْ عَصَا أَحَدِهِمَا فَكَانَا يَمْشِيَانِ بِضَوْئِهَا فَلَمَّا تَفَرَّقَا أَضَاءَتْ عَصَا هَذَا وَعَصَا هَذَا)[2].

وأخرج البخاري في تاريخه، والبيهقي وأبو نعيم عن الصحابي الجليل حمزة بن عمرو بن عويمر بن الحارث بن سعد الأسلمي رضي الله عنه قال:

(كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فتفرقنا في ليلة ظلماء، فأضاءت أصابعي) أي: جعل يَمُدُّها لتضيء لهم (حتى جمعوا عليها ظهرهم) أي: رِكابهم (وما هلك) أي: أشرف على الهلاك (منهم) بسبب تفرقهم لما أصابهم من شدة الظلمة (وإن أصابعي لتنير) أي: تضيء[3].

---

[1] قال الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه (التقرب إلى الله تعالى):
قال البيهقي رحمه الله تعالى: وقد روى عن أبي هريرة أيضاً في قصة العلاء بنحو من هذا. اهـ.
وفي تاريخ ابن كثير قال: ذكر البخاري في (التاريخ) لهذه القصة إسناداً آخر .اهـ.
قلت: وذكر نحو هذه القصة عن العلاء في (مجمع الزوائد) عن الطبراني في الثلاثة، وذكرها أبو الفرَج الأصبهاني وغيرهم.

[2] مسند الإمام أحمد ١٢٥١١

[3] انظر (شرح الزرقاني على المواهب) ٩٠/٧

نعم ؛ كل ذلك بإمدادات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أفاض الأنوار والأسرار على أصحابه الكرام رضي الله عنهم فصاروا بفضله صلى الله عليه وسلم مرايا نقية صافية تنعكس فيها أنواره وأسراره الشريفة صلى الله عليه وسلم.

ولقد أكرم الله تعالى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فكلَّمه عند جبل الطور ، وهذا من بينات سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وأنه رسول الله وكليم الله تعالى، قال جل وعلا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ .

فقد تجلى سبحانه على سيدنا موسى بنوع من التجلي ونوع من التكليم والمناجاة، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فلقد أكرمه الله تعالى بما هو أعظم من ذلك؛ فقد كلمه سبحانه كِفاحاً بلا حجاب عند سدرة المنتهى -لا عند بقعة من بقاع الأرض-، وكان تجلي رب العالمين على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تجلياً بالرؤية والكلام، فكان مقامه أعظم من مقام سيدنا موسى الكليم عليه الصلاة والسلام، فهو صلى الله عليه وسلم كليم الله وصفي الله وخليل الله وحبيب الله تعالى.

ولمّا تجلّى سبحانه للجبل لم يثبت الجبل لهذا التجلي بل ساخ وصار دكاً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ أي: بنوع من التجلي؛ دل عليه قوله تعالى: ﴿رَبُّهُۥ﴾ أي : رب موسى عليه السلام.

أَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ عَدِيٍّ فِي الْكَامِلِ، وَأَبُو الشَّيْخِ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الرُّؤْيَةِ، مِنْ طُرُقٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ ووضع طرف إبهامه عَلَى أُنْمُلَةِ الْخِنْصَرِ[1]-وذلك ليبيّن صلى الله عليه وسلم أن التجلي كان يسيراً ومع ذلك ساخ الجبل وذاب رغم قساوته وصلابة صخوره-.

وقد ثبّت الله جسم موسى عليه السلام من التَّفتت، لكنه صعق ولم يثبت لمشهد الرؤيا، قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، فكان جسم موسى عليه السلام أقوى من الجبل.

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد تجلى الله تعالى عليه بالرؤية والكلام عند سدرة المنتهى -وإن التجلي عند سدرة المنتهى أعظم وأكبر من التجلي على جبل الطور- ومع ذلك فقد ثبت صلى الله عليه وسلم لهذا التجلي العظيم بتقوية من الله تعالى وإمداده سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

جاء في صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم:

[فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ: تَغَيَّرَتْ؛ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا][2].. الحديث.

---

[1] انظر (فتح القدير) للشوكاني ٢/٢٨٠

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وقال الحسن رضي الله عنه: (غشيها نور رب العالمين جل وعلا)[1] -أي: حين تجلى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فلقد غطت أنوار رب العالمين عالم السدرة كله -على عظمتها وضخامتها- والسدرة: عالم كبير محيط بالسماء السابعة.

وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ أي: لما تجلى رب العالمين على سيدنا محمد ﷺ بالرؤية وكلّمه بلا حجاب فرأى ﷺ ربه بعيني بصره.

واعلم أن رؤية رب العالمين في عالم الدنيا لم تكن لأحد ولم يثبت لها أحد إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على وجه فرداني خاص؛ في عالم أعظم وأكبر من هذا العالم وهو عالم السدرة .

روى أبو نعيم والحكيم الترمذي وغيرهما أنه صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ وإنه سبحانه قال لموسى عليه السلام بعدما أفاق:

[يَا مُوسَى: إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَيٌّ إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَابِسٌ إِلَّا تَدَهْدَهَ[2]، وَلَا رَطْبٌ إِلَّا تَفَرَّقَ، إِنَّمَا يَرَانِي أَهْلُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ لَا تَمُوتُ أَعْيُنُهُمْ وَلَا تَبْلَى أَجْسَامُهُمْ][3] لأن الله تعالى ينشئ أهل الجنة نشأة أخرى باقية، ويجعل فيهم الاستعداد والقابلية لأن يتجلى عليهم بالرؤية؛ فيرونه سبحانه حين يتجلى عليهم.

---

[1] انظر ما ذكره القرطبي والآلوسي حول تفسيرهما للآية الكريمة

[2] أي: تدحرج وسقط .. انظر (النهاية) لابن الأثير ٩٥/٢

[3] انظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي

ولمّا كلّم الله تعالى موسى عليه السلام وتجلى عليه بالرؤية -ولم يثبت لها- كانت حواسه ومداركه وقتئذ في غاية العظمة والاستحضار حتى إنه كان يشهد ويسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصّمّاء من بُعد عشرة فراسخ[1] -وذلك لما في التجلي الإلهي من آثار وانكشافات نورانية عالية.

وإذا كان هذا قد حصل لموسى عليه السلام عند تجلي الحق عليه عند جبل الطور فما بالك بمشهد التجلي الأعظم الذي تجلى به الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى؟!

وما أعظم مداركه وحواسه وسمعه وبصره صلى الله عليه وسلم لمّا تجلى الله عليه!

ولما رجع موسى عليه السلام إلى قومه -بعد انتهاء مدة ميعاد الله له وتكليمه له وتجليه عليه- بقي مدة لا يستطيع أن يكلم الناس لقوة أثر التجلي عليه[2]؛ أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أعده الله وأمده .. قال عز من قائل: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ فلم يتلعثم ولم يتلكأ صلى الله عليه وسلم بل جعل يخبر قومه بما رأى وسمع؛ كل ذلك يدل على أن بيّنته صلى الله عليه وسلم أعظم البيّنات، وأن معجزاته صلى الله عليه وسلم أعظم المعجزات، فهو صلى الله عليه وسلم فاتح النّبوّات، وجُمعت له وخُتمت به صلى الله عليه وسلم، فهو صلى الله عليه وسلم حقاً بيّنة الله الكبرى الجامعة لكل بيّنة.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] انظر ما ذكره الآلوسي حول تفسيره للآية الكريمة

[2] انظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي ٣١١/٤

المحاضرة الثانية

حول بيّنات الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمْتَنا إنك أنت العليم الحكيم.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ آمين.
الحمد لله رب العالمين.

تقدَّم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ .

امتنَّ الله تعالى على العباد ببعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم، وبيَّن الحكمة في إرساله عليه الصلاة والسلام: وذلك أنَّ الله تعالى قد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى العالَم وله معهم مواقف متعددة تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، ومن هذه المواقف: أنه صلى الله عليه وسلم جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى، ويزكّيهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة.

أما الكتاب فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذِكر العوالم كلها، وتقدَّم الكلام على بعض العلوم القرآنية التي جاء بيانها بالأحاديث النبوية صلى الله عليه وسلم.

ومِن العلوم القرآنية: العلم بقضايا الإيمان، ومن القضايا الإيمانية: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام، وتقدَّم الكلام موجزاً على الإيمان بالله تعالى، والأدلةِ والبراهين على ذلك.

أما الإيمان بالرسل فيتطلب منك أيها المؤمن أن تعتقد أن رسلَ الله صلوات الله عليهم خيرةُ الله تعالى من خلقه نسباً وحسباً وفضلاً وأدباً وعقلاً وفطانة، اصطفاهم الله لنفسه، واختارهم على جميع خلقه، وجمَّلهم بالكمالات النفسية، وأفاض عليهم العلوم والمعارف الإلهية، وأرسلهم إلى العالَم نصحاء أمناء يدلونهم على ما فيه سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، وأيّدهم بالبيّنات، وعَصَمهم من المخالفات.

وقد تكلمنا على بعض هذه الكلمات الموجزة [1] فيما يتعلق بالاعتقاد بالرسل عليهم الصلاة والسلام.

أما تأييده سبحانه لرسله بالبيّنات فقد قال سبحانه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فقد أيَّد الله تعالى كلَّ رسول بِبيّنات.

و(البيّنات): جمع (بيّنة) وهي التي تَبِينُ بها الأمور ويظهر بها الحق بيّناً واضحاً، وهذه البيّنات التي أيّد الله تعالى بها رسله تثبت وتبيّن أنهم حقاً رسل الله تعالى.

وتنقسم البيّنات إلى: بيّنات سمْعية عقلية علمية، وبيّنات شهودية مرئية، ولا بيان يُرجى بعد العِيان والبرهان، فإما أن تكون البينة أمراً معقولاً تسمعه الآذان وتقبله العقول وتعيه القلوب وتنقطع به الحجة، وإما أن تكون شيئاً عِيانياً يراه الإنسان فلا يمكن أن ينكره.

---

[1] انظر بيان ذلك في الجزء الثالث من كتاب: (محاضرات حول موقفه صلى الله عليه وسلم مع العالم -موقف تعليم الكتاب)، ويمكنك تحميله من الموقع الرسمي الوحيد للشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه www.srajalden.com في قسم: كتب الإمام - تحميل كتب الإمام بصيغ متعددة.

فكل رسول جاء ببيّنات تثبت أنه: لا إله إلا الله وأنه رسول الله حقاً من عند الله جل وعلا، لأن القضية قضية إيمان وشهادة، فكل رسول دعا قومه أن يشهدوا أنه لا إله إلا الله وأنه رسول الله، والإيمان والشهادة لا بدَّ أن تقوم على أمور قطعية، ولذلك قال سبحانه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: بالبيّنات القاطعة الدالة على أنَّ الله حق، وعلى أنَّ هؤلاء الكرام هم رسل الله حقاً.. عليهم صلاة الله وسلامه.

ومن ذلك: أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه من الأقباط وإلى بني إسرائيل، وأيّده بالبيّنات العقلية الدامغة وهي الحجج والبراهين الدالة على أنه لا إله إلا الله، والبيّنات المشهودة الحسيَّة كالعصا واليد البيضاء وغيرها.

وفي هذا يقول سبحانه:﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾ يعني: إن كنتم توقنون أن هناك سماوات وأرضاً فينبغي أن تكونوا بوجود خالق السماوات والأرض أشدّ وأعظم يقيناً؛ لأن العقل السليم يثبت أنه لا بدَّ للمصنوع من صانع، ولا بدَّ للبناء من بانٍ، ولا بدَّ للمتحرّك من محرِّك وهكذا..

فلو نظر الإنسان إلى بناء عظيم فإنه لا يتحاكم إلى عقله:

هل هناك مَن بناه؟ وهل قام بنفسه؟

لأنَّ ذلك من الأمور المسلَّمة البديهية، بل يقول في نفسه: إن هذا الباني رجل عظيم في علمه وذوقه حتى شيَّد هذا البناء -ولله المثل الأعلى-

قوله تعالى مخبراً عن فرعون: ﴿قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥﴾ أي: ألا تستمعون إلى ما يقوله موسى عليه السلام! ﴿قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦﴾ ذكر لهم الدليل النفسي بعد أن ذكر لهم الدليل الآفاقي -أي : تفكَّروا في أنفسكم؛ مَن الذي أوجدكم بعد عدم؟-

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ أي: تعقَّلوا وتفكَّروا فيما تقولون: "إنَّ فرعون هو ربكم"، فالرب: هو الذي يتصرف في المشرق والمغرب، فهل فرعون يقدر على ذلك؟!

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِى لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾ يعني: لما عجز فرعون عن الجواب وقامت عليه الحجة والبرهان صار يهدّد موسى وهارون بالسجن ﴿قَالَ﴾ يعني: موسى عليه السلام ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَىۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ يعني: أَتَلْجَأُ إلى التهديد والوعيد ولو أني جئتك بشيء ظاهر؟ -يعني على صدق وحقيَّة ما أقوله لك- ﴿قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١﴾ فلما استكبر فرعون عن قبول الدليل العقلي على أن [لا إله إلا الله] راح موسى عليه السلام يبيّن له الدليل الحسي الشهودي -وهو انقلاب العصا إلى ثعبان كبير، وبياض ونور يد سيدنا موسى اليمنى إذا ضمَّها إلى جناحه الأيسر- قال تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ وكأنه عليه السلام يقول: (يا فرعون إن كنت تجحد البيّنة والبرهان الذي جئتك به، وتأبى إلا أن ترى نور شريعتي ظاهراً فأنا أريك ذلك) فمدَّ موسى عليه السلام يده اليمنى إلى جيبه الأيسر مروراً على قلبه، ثمَّ أخرجها بيضاء لكل من نظر إليها -وفي هذا إشارة إلى صدق نور الشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام-.

ولما أقام موسى عليه السلام البيّنات العقلية العلمية وأظهر البيّنات الشهودية المرئية -وهي المعجزات- ظلَّ فرعون على جحوده ولم يقبل الحق ، وراح يتهم موسى عليه السلام بالسحر، وجيء بالسحرة من كل فَجّ ووعدهم فرعون بالأُجور والقرب منه إن هم غلبوا موسى عليه السلام، فتصدى لهم موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: أبطَلَتِ السحر الذي جاء به السحرة لما سحروا أعين الناس وخيّل إليهم أن الحبال والعصي حيات تسعى، فلما ألقى موسى عصاه أبطلت ذلك كله وظهرت الحبال والعصي على حقيقتها.

ولما رأى السحرة أن عصا موسى عليه السلام أبطلت عملهم وتلقفت ما ألقوه من السحر حينذاك أيقنوا أن القضية ليست قضية خيال وسحر، وإنما هو حق وحقيقة وأنها معجزة من رب العالمين، وما وَسِعَهم إلا أن يسجدوا لله مؤمنين مذعنين للحق لمّا بان لهم، قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: بادروا للسجود مسرعين لما رأوا من الحق، و ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ولمّا سجدوا لله تعالى كشف الله تعالى لهم عن منازلهم في الجنة وأراهم ذلك عِياناً[1]، وآمن مَنْ آمن مِن قوم فرعون، وكفر مَنْ كفر.

وهكذا أيَّد الله تعالى موسى عليه السلام بالعصا التي تنقلب ثعباناً بين يدي فرعون وتدنو منه لتفترسه، وبهذه العصا يضرب موسى عليه السلام البحر فينفلق اثنا عشر طريقاً يعبر عليه بنو إسرائيل، وبهذه العصا يضرب الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عين ماء ليشرب منها بنو إسرائيل... كل ذلك بقدرة الله تعالى.

---

[1] جاء في تفسير الرازي والنيسابوري والآلوسي وغيرهم: [وعن عكرمة رضي الله عنه قال: لما خرّوا سُجّداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة]. اهـ

ولمّا عبر موسى عليه السلام وعبر قومه البحر ووصلوا إلى الجهة الأخرى أراد أن يضرب البحر حتى يغلقه لئلا يلحق به فرعون وجنوده فقال له سبحانه: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوٗاۖ﴾ أي: مفتوح الفجوة.

وكأن موسى عليه السلام تساءل: لِمَ لا يغلقه ويمنع فرعون من اللحاق به؟

فأتاه جواب ذلك من رب العالمين: ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤﴾ أي: لأنهم جند مغرقون؛ فسيدخلون البحر ويتبعون موسى وقومه حتى إذا صاروا كلهم في البحر انطبق عليهم ليغرقهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤﴾ أي: اتركه مفتوحاً لأجل أن يدخلوا فيه ويغرقوا؛ لا ليلحقوا بك يا موسى، فصار البحر تحت أمْر موسى عليه السلام وسخَّره الله تعالى له.

وكان من دعاء موسى عليه السلام لما ضرب البحر ما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ][1].

وإذا كان موسى عليه السلام يضرب الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً -على عدد أسباط بني إسرائيل- فإن الماء قد تفجَّر من أصابع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا شكا الصحابة له العطش وقلة الماء يوم الحديبية.

ويضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صخرة كبيرة -أعيا الصحابةَ يوم حفر الخندق تحطيمُها- فتتحطم بضرباته صلى الله عليه وسلم رؤوس ممالك الكفر وقتئذ -وهي مملكة الروم ومملكة الفرس ومملكة صنعاء اليمن- لتصير هذه الممالك ملكاً للصحابة ولأتباعه صلى الله عليه وسلم.

---

[1] انظر (المعجم الصغير) للطبراني، وارجع إلى (الدر المنثور) للحافظ السيوطي

روى الإمام أحمد في مسنده عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال:

(أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ.

قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ.

قَالَ: فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: [بِسْمِ اللَّهِ] فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ وَقَالَ:

[اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا]، ثُمَّ قَالَ: [بِسْمِ اللَّهِ] وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: [اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا]، ثُمَّ قَالَ: [بِسْمِ اللَّهِ]، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: [اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا][1].

وأما تَفَجُّرُ الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم فقد جاء في صحيح البخاري عَنْ سَالِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

(عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ؛ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا ثُمَّ أَقْبَلَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَا لَكُمْ]؟

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ بِهِ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا فِي رَكْوَتِكَ.

قَالَ: فَوَضَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ.

قَالَ: فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا.

---

[1] ١٧٩٤٦

فَقُلْتُ لِجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟

قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا؛ كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً)[1].

وروى الإمام البخاري عن عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَيْمَنَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ:

(إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ[2] شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ.

فَقَالَ: أَنَا نَازِلٌ، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ أَوْ أَهْيَمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟

قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحَت الْعَنَاقَ وَطَحَنَت الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعَجِينُ قَد انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ.

قَالَ: [كَمْ هُوَ]؟

فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: [كَثِيرٌ طَيِّبٌ].

قَالَ: [قُلْ لَهَا لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ وَلَا الْخُبْزَ مِن التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ].

فَقَالَ: [قُومُوا] فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ، جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ.

قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟

قُلْتُ: نَعَمْ.

---

[1] في كتاب المغازي

[2] وَهِيَ الْقِطْعَةُ الصُّلْبَةُ الصَّمَّاءُ كما في (فتح الباري) للحافظ ابن حجر

فَقَالَ ﷺ: [ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا] فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ.

قَالَ: [كُلِي هَذَا وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ][1].

ولقد أيَّد الله تعالى عيسى ابن مريم عليه السلام بالبيّنات الكثيرة ومنها : أنه يُبْرِئُ الأكمه والأبرص ، ويمسح المرضى والزمنى[2] فيبرؤون بإذن الله تعالى... كل ذلك أدلة وشواهد تشهد على صدق عيسى وعلى نبوته عليه الصلاة والسلام.

ولقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم إبراء الأكمه والأبكم وإبراء الزَّمِن والمريض، وقد جاء في هذا الباب أحاديث ووقائع كثيرة جرت مع الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

فمن ذلك: ما رواه البيهقي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِصَبِيٍّ قَدْ شَبَّ لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ، قَالَ: [مَنْ أَنَا]؟

قَالَ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ.

وفي رواية: (جَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَحَرَّكَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ ابْنِي هَذَا لَمْ يَتَكَلَّمْ مُنْذُ وُلِدَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَدْنِيهِ] فَأَدْنَتْهُ مِنْهُ، فَقَالَ: [مَنْ أَنَا]؟ فَقَالَ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ)[3]ومِن تلك الشهادة فتح الله عليه باب الكلام.

---

[1] صحيح البخاري كتاب المغازي

[2] جمع (زَمِن) أَي: مُبْتَلىً كما في (لسان العرب)

[3] انظر الحديثين في (دلائل النبوة) للبيهقي

كما أنه صلى الله عليه وسلم أعاد البصر لمن كان لا يبصر، فقد روى ابن أبي شيبة في مصنفه عن عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلامَانِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أُمِّهِ، أَنَّ خَالَهَا حَبِيبَ بْنَ فُوَيْكٍ حَدَّثَهَا: أَنَّ أَبَاهُ خَرَجَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَعَيْنَاهُ مُبْيَضَّتَانِ، لا يُبْصِرُ بِهِمَا شَيْئًا، فَسَأَلَهُ: مَا أَصَابَهُ؟ فَأَخْبَرَهُ، فَنَفَثَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي عَيْنَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ[1] يُدْخِلُ الْخَيْطَ فِي الإِبْرَةِ، وَإِنَّهُ لابْنُ ثَمَانِينَ، وَإِنَّ عَيْنَيْهِ لَمُبْيَضَّتَانِ[2].

وروى الترمذي وغيره عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أنَّ رجلاً ضريراً أتى النبي صلّى الله عليه وآله وسلم فقال: ادع الله تعالى أن يعافيني.

قال: [إن شئتَ دعوتُ، وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك]

قال: فادعه -أي : ادع الله تعالى-.

فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: [اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلّى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا مُحَمَّدُ إنّي توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لِتُقْضَى لي؛ اللهم فشفعه فِيَّ][3].

وفي رواية النسائي: (فتوضأ ثم صَلّى ركعتين -أي : ثم دعا-، فَرَجَعَ وَقَدْ كَشَفَ لَهُ عَنْ بَصَرِهِ)[4].

وروى الطبراني والبيهقي في (الدلائل) عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أن عينه ذهبت يوم أُحد، فجاء النبيَّ ﷺ فردَّها فاستقامتْ.

وروى الطبراني وابن شاهين عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أُصيبتْ عينه يوم أُحد، فوقعت على وجْنته، فردَّها النبي ﷺ فكانت أصحَّ عينيه[5].

---

[1] والقائل أحد رواة هذا الحديث الشريف
[2] انظر (مصنف ابن أبي شيبة) كتاب الطب
[3] سنن الترمذي كتاب أبواب الدعوات ومسند الإمام أحمد ١٧٢٤٠وسنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسُّنة فيها
[4] السنن الكبرى للنسائي كتاب عمل اليوم والليلة
[5] انظر (الإصابة)

وجاء في رواية الطبراني وأبي نعيم عن قتادة قال : (كنت أتَّقي السِّهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ فكان آخرها سهماً ندرتْ -أي سقطت- منه حدقتي، فأخذتها بيدي وسعيتُ إلى رسول الله ﷺ .

فلما رآها في كفّي دمعت عيناه فقال : [اللهمّ قِ قتادةَ كما وقى وجه نبيك، فاجعلها أحسنَ عينيه وأحدَّهما نظراً] فكانت أحسنَ عينيه وأحدَّهما نظراً.

وفي رواية : (وكانت لا تَرمَد إذا رمدت الأخرى)[1].

وقتادة رضي الله تعالى عنه هو الذي أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم العُرجون -وهو عصا قصيرة من النخل- فجعلت تضيء له ما بين يديه عشراً ومن خلفه عشراً ، وكان يريد الذهاب إلى بيته في ليلة شاتية مظلمة ، وقال له: [إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ خَلَفَكَ فِي أَهْلِكَ، فَاذْهَبْ بِهَذَا الْعُرْجُونِ، فَأَمْسِكْ بِهِ حَتَّى تَأْتِيَ بَيْتَكَ، فَخُذْهُ مِنْ وَرَاءِ الْبَيْتِ فَاضْرِبْهُ بِالْعُرْجُونِ][2].

كما تفل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيني سيدنا علي رضي الله تعالى عنه يوم فتْح خيبر فشفاه الله تعالى من رمدٍ شديد أصاب عينيه.

روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ:

(كَانَ أَبِي يَسْمُرُ مَعَ عَلِيٍّ، وَكَانَ عَلِيٌّ يَلْبَسُ ثِيَابَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، وَثِيَابَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ سَأَلْتَهُ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ:

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ إِلَيَّ وَأَنَا أَرْمَدُ الْعَيْنِ يَوْمَ خَيْبَرَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْمَدُ الْعَيْنِ.

قَالَ: فَتَفَلَ فِي عَيْنِي وَقَالَ: [اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ] فَمَا وَجَدْتُ حَرًّا وَلَا بَرْدًا مُنْذُ يَوْمِئِذٍ)[3].

---

[1] كما في (شرح المواهب)
[2] كما تقدم في المحاضرة الأولى
[3] المسند ٧٣٩

وفي المسند عن يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ:

[رَأَيْتُ أَثَرَ ضَرْبَةٍ فِي سَاقِ سَلَمَةَ[1] فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُسْلِمٍ مَا هَذِهِ الضَّرْبَةُ؟

قَالَ: هَذِهِ ضَرْبَةٌ أُصِبْتُهَا يَوْمَ خَيْبَرَ.

قَالَ: يَوْمَ أُصِبْتُهَا قَالَ النَّاسُ: أُصِيبَ سَلَمَةُ[2]، فَأُتِيَ بِي إِلَى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَفَثَ فِيهِ ثَلَاثَ نَفَثَاتٍ؛ فَمَا اشْتَكَيْتُهَا حَتَّى السَّاعَةِ].

وهذا خُبيْب بن إساف رضي الله عنه ضربه أمية بن خلف على كتفه يوم بدر ، فانقطع طرفه ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحمل يده ، فردَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم موضعها وبصق وبارك عليه فالتأمت وعادت يده أحسن مما كانت ، ثم عاد خبيب إلى قتال الأعداء في نفس الغزوة واشترك مع جملة من الصحابة في قتْل أمية بن خلف[3].

وعن معاذ بن عمرو رضي الله عنه أنه لما كان يوم بدر ضربه عكرمة بن أبي جهل -قبل أن يدخل في الإسلام- فتدلت يده، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعادها رسول الله موضعها وتفل وبارك عليها حتى عادت أحسن مما كانت[4].

نعم إنَّ ذلك كله بقدرة الله رب العالمين الذي أيَّد رسوله صلى الله عليه وسلم بالمعجزات وخوارق العادات ليكون ذلك كله من شواهد صدقه وصدق ما جاء به صلى الله عليه وسلم .

---

[1] سيدنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه

[2] أي: لم يَعُدْ يَبْرَأ

[3] انظر (أسد الغابة) لابن الأثير ٣١٧/١ و(الإصابة) للحافظ ابن حجر ٢٨٧/١

[4] انظر (دلائل النبوة للبيهقي) ٨٣/٣ و(صحيح ابن حبان) كتاب التاريخ

وكلُّ ذلك يندرج في خصائص ريق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي خصَّه الله تعالى بالخصائص العالية في ذاته وذرّاته وسائر أجزائه وآثاره صلى الله عليه وسلم، فكانت ذراته الشريفة صلى الله عليه وسلم تنبع بالبركات والأسرار والأنوار حتى إنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتزاحمون على ماء وضوءه صلى الله عليه وسلم وعلى أظفاره وشعره ونخامته وريقه صلى الله عليه وسلم لِما يعلمون من فضائلها وخصائصها، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يُقرّهم على ذلك ولا ينهاهم، بل إنه صلى الله عليه وسلم هو الذي أمر بتوزيع شعره على الصحابة لما تحلّل يوم حجة الوداع.

وهذه أم سُليم رضي الله تعالى عنها تضع عَرَق النبي صلى الله عليه وسلم في قارورة لها للتبرك والاستشفاء والتطيب...

روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال:

(دخل علينا النبي ﷺ فَقَالَ[1] عندنا، فعرق فجاءت أمي - أُم سُلَيم بنت مِلحان - بقارورة[2] فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ النبي ﷺ فقال: [يا أم سُلَيم ما هذا الذي تصنعين]؟

قالت: (هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطِّيب) .

وروى مسلم أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال : (كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها[3] وليست فيه. قال : فجاء ذات يوم فنام على فراشها ، فأُتِيَتْ فقيل لها : هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه ﷺ على قطعة أديم على الفراش، ففتحت أم سُليم عتيدتها[4] فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها، ففزِع[5] النبي ﷺ فقال: [ما تصنعين يا أم سُليم؟]

---

[1] أي : فنام وقت القيلولة وهي : نصف النهار .
[2] وهي : إناء من زجاج يوضع فيه الطيب وقد يطلق على غير الزجاج .
[3] وكانت مَحرماً له ﷺ .
[4] هو كالصندوق الصغير تجعل المرأة فيه ما يعز عليها من متاعها .
[5] أي : استيقظ من نومه .

فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، فقال ﷺ: [أصبتِ].

وروى مسلم عن أنس عن أم سليم أن النبي ﷺ كان يأتيها فيقيل عندها - أي : ينام في وقت القائلة- فتبسط له نطْعاً فيقيل عليه[1]وكان النبي ﷺ كثير العرق، فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير ، فقال النبي ﷺ : [يا أم سليم ما هذا ؟] قالت: عَرَقُكَ أدوف[2]به طيبي

- وفي رواية أحمد: فدعا لها بدعاءٍ حسن.

---

[1] قال الإمام النووي في شرحه على هذا الحديث: إنها كانت محرماً له ﷺ ، ففيه الدخول على المحارم والنوم عندهن. اهـ .
وقال أيضاً في (تهذيب الأسماء):
أم سليم : اختلف في اسمها ، فقيل : سهلة، وقيل : رملة ، وقيل: أنيسة وقيل: رميثة ، وقيل : الرميصاء ، وهي بنت ملحان - بكسر الميم وقيل : بفتحها - وهي أم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، لا خلاف في هذا بين أهل العلم ، ثم قال : وكانت أم سليم هذه وأختها خالتين لرسول الله ﷺ من جهة الرضاع ، وكانت من فاضلات الصحابيات اهـ.
فلا ينبغي أن يُتوهَّم من حديث أم سليم أنه ﷺ كان يخلو بامرأة أجنبية عنه، فإن أم سليم كانت محرماً له؛ خالته من الرضاع .
بل إنه ﷺ قد تبرأ من ذلك الوهم ونفى عنه أن يُظَن به ذلك..
ففي الصحيحين عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن صفية زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً ، فحدّثته، ثم قمت لأنقلب -أي: أرجع- فقام معي ليقلبني - أي يودّعني من حيث جئت- فمرَّ رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال النبي ﷺ : [على رسلكما] - أي : على مهلكما دون إسراع- [إنها صفية بنت حُيَيّ] فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال ﷺ: [إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ؛ وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً - أو قال : شيئاً]. وفي هذا تشريع لأمته من بعده أن أحدهم مهما ارتفعت درجته وطابت نفسيته فإنه لا يجوز له أن يخلو بامرأة أجنبية أصلاً.
[2] بالدال المهملة وبالمعجمة كما قال النووي .

وهذه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما تحتفظ بجبّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا قصدها مريض غسلتها له وأعطته ماء الغُسالة ليشرب منه ويتبرك به..

روى مسلم عن عبد الله مولى أسماء، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما أنها أخرجت جُبّةً طيالسة كسروانية[١]، لها لِبنةُ [٢] ديباج، وفرجاها مكفوفان بالديباج [٣]، وقالت: (هذه جبة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت عند عائشة ، فلما قُبضت رضي الله عنها قبضتُها -أي : أخذت الجبة- وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى يُسْتَشْفَى بِهَا [٤]).

وفي رواية : [فنحن نغسلها للمريض منّا إذا اشتكى ، ونستشفي بها][٥] .

وفي رواية: [فَنَحْنُ نَغْسِلُهَا لِلْمَرِيضِ مِنَّا يَسْتَشْفِي بِهَا[٦]]

وهذا أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه يحتفظ بنعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتبرك به ، ويتحف ضيوفه بالتبرك والاستشفاء به...

روى البخاري والترمذي في (الشمائل) عن عيسى بن طهمان قال: أخرج إلينا أنس بن مالك نعلين جَرْداوين - أي : صقيلتين لا شعر عليهما - لهما قِبالان - تثنية قِبال ، وهو زمام النعل - .

---

[١] نوع من الثياب لها عَلَم وحاشية .
[٢] بكسر اللام وسكون الباء : رقعة - أي : قطعة - في جيب القميص .
[٣] قال الزرقاني : أي : عمل على جيبها وكمها كفاف من حرير ، وكفة كل شيء : طرفه وحاشيته .
[٤] صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة
[٥] انظر (السنن الكبرى) للبيهقي
[٦] انظر (مسند الإمام أحمد) ٢٥٧٠٥

قال ابن طهمان : فحدثني ثابت البناني بَعدُ عن أنس ، أنهما كانتا نعلَيْ رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

فأنس بن مالك يحتفظ بنعل رسول الله ﷺ عنده للبركة ، ويعرضها على زواره ليكرمهم ببركتها.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

[1] والبحث في هذا الباب واسع كبير تجد جملة منه في كتاب: (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ شمائله الحميدة وخصاله المجيدة) للشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه.

المحاضرة الثالثة

حول بيان أن سيدنا محمداً ﷺ هو بينة الله تعالى الكبرى وحُجَّته العظمى على العالم

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمْتَنا إنك أنت العليم الحكيم.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ آمين.

الحمد لله رب العالمين.

قال الله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝٣﴾

لقد أخبر الله تعالى عن حال العالم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم؛ وكيف أنهم كانوا في ضلال مستحكم بهم لم يكونوا منفكين عنه حتى أرسل الله تعالى البينة الكبرى .

وما هي تلك البيّنة؟

قال جل وعلا: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو البيّنة، وإنما سُمّي صلى الله عليه وسلم بـ ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ لأنه جامع لكل بيّنة جاء بها مَن قبْله من الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء هو بَيِّنَةً لأنه صلى الله عليه وسلم جاء بكتاب -هو القرآن الكريم- أعْجَزَ الخلقَ عن الإتيان بمثله، وجاء بالمعجزات المتنوعة؛ كل ذلك بيّنات جامعة جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمي بـ ﴿ٱلۡبَيِّنَة﴾.

ولقد تقدم القول أن بيّنته صلى الله عليه وسلم تتجلى في خَلقه الكريم صلى الله عليه وسلم، وفي خُلقه العظيم، وفي شرعه القَويم، وفي الكتاب المُبِين الذي جاء به صلى الله عليه وسلم، وفي المعجزات التي أجراها الله تعالى على يده صلى الله عليه وسلم، كما تتجلَّى بيّنات صدقه صلى الله عليه وسلم في علومه ومعارفه وإخباراته الغيبية.

كما أنه صلى الله عليه وسلم هو ﴿ٱلۡبَيِّنَة﴾ لأنه جمع بيّنات مَن قبْله مِن الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأن كل رسول جاء ببيّنات صُدِّقت بها نبوّته وأيِّدت بها رسالته، ثم أعْلَنَ أن سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل نبي وكل رسول مُصَدَّق بآيات ومعجزات تَشْهد له بالنبوة والرسالة ، وكل منهم شهِد أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل منهم أعلن أمام قومه وأعلمهم بأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل منهم بشَّر بأنه سيَظهر سيدُنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل هذه الإخبارات والنّبوّات شواهد صِدْق أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جَمَعَ الله تعالى له نبوّات مَنْ قبله.

وقد تقدم البحث في هذا ....

فلقد أعطى الله تعالى داود عليه السلام أن ألان له الحديد، قال تعالى : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠﴾ أي: صار بين يديه كالعجين يتصرف به كما يشاء في صناعة الدروع، ولقد أعطى الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك، فلقد جعل الله له الغصن اليابس حديداً -وهذا قلب حقيقةٍ إلى حقيقة ثانية- كما روى البيهقي وغيره أن عكاشة بن محصن رضي الله عنه قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه جذلاً من حطب وقال: [قاتل به يا عكاشة]، فلما أخذه من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم هزه فعاد سيفاً في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على رسوله، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد -وهو عنده- وكان ذلك السيف يُسمّى (القويّ)[1].

وقد انكسر سيف سلمة بن أسلم رضي الله عنه يوم بدر أيضاً فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عُرجوناً فقال: [اضرب به] فصار في يده سيفاً فحارب وقاتل به وبقي معه زمناً طويلاً حتى توفي[2].

وفي ذلك برهان قاطع على أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه رد على من يقول: "إن طابع الأشياء ذاتية لها" والحق أن طابِع الطبائع وخالِق الخلائق هو الله رب العالمين الذي يتصرف بالأشياء كما يشاء جل وعلا، ومِن هذا قَلَبَ العرجون اليابس إلى حديد تأييداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإكراماً له، وألان الحديد لداود عليه السلام، فليست الصلابة طبعاً ذاتية للحديد بل كل ذلك بيد الله تعالى.

---

[1] انظر (دلائل النبوة) للبيهقي ٩٨/٣ و(شرح الزرقاني على المواهب) ٣٠١/٢

[2] انظر (دلائل النبوة) للبيهقي ٩٩/٣

واعلم أن المعجزات التي جاءت بها رسل الله عليهم السلام تدلّ على أمور كثيرة... منها:

أولاً: تدل على أن هناك ربّاً خالقاً مُدَبّراً يتصرف في خلقه كما يشاء، وتدلّ على صدق مَن جرت على يده على أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واعلم أيضاً أن انقلاب حقيقة الشيء إلى شيء آخر يدل على أن المادة ليست ذاتية للمواد بل إن الله تعالى يحوِّل المادة من حال إلى حال بلحظة واحدة، أو أنه سبحانه يحوِّلها ويطوِّرها إلى مادة أخرى خلال مدة زمنية -على مقتضى علمه وحكمته سبحانه- وهذا يدلّك على أن الله حق، وأنه سبحانه يحوِّلُ المواد كما يشاء، وأن الذي جرى الأمرُ على يده هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد أعطى الله سيدنا سليمان عليه السلام مُلكاً، قال جل جلاله مخبراً عنه عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧﴾ ..الآيات الكريمة.

فقد أعطى الله تعالى سليمان عليه السلام مُلْكاً على الإنس والجن والطير، وسخَّر له الريح..

وقد نال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما هو أعظم من ذلك؛ فقد عَرض عليه سبحانه مقام المُلك فاختار صلى الله عليه وسلم أن يكون نبياً عبداً، ولم يتصرف بمقام الملك -كما هو مقتضى الملك- بل كان يتصرف بمقتضى مقام العبودية لله تعالى.

أما سيدنا سليمان عليه السلام -الذي أعطاه الله مقام الملك- فكان يتصرف بمقتضى مقامه في الملك، وأما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ورد في الحديث الذي رواه الطبراني بإسنادٍ حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا فقال:

[يا جبريل والذي بعثك بالحقّ ما أمسى لآل محمد سفَّة من دقيقٍ، ولا كفّ من سويق]، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدَّةً من السماء أفزعته فقال ﷺ: [أمر الله تعالى القيامة أن تقوم؟]

فقال جبريل: لا، ولكن أُمَرَ إسرافيل فنزل إليكَ حين سمع كلامك.

فأتاه إسرافيل فقال: إن الله قد سمع ما ذكرتَ فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك: أسيِّر معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فإن شئت نبياً ملِكاً، وإن شئت نبياً عبداً -ثلاثاً-.

قال ﷺ: [فأشار جبريل إليَّ بيده -أنْ تواضعْ- فعرفتُ أنه] - أي جبريل- [لي ناصح فقلتُ: نبياً عبداً] -وهذا بأمر الله لجبريل فقد خيّره سبحانه واختار له المقام الأكمل- ثم قال ﷺ: [فلو أني قلت: (نبياً ملِكاً) لسارت الجبال معي ذهباً][1].

فاختار صلى الله عليه وسلم مقام العبودية -لكن مقام الملك طُوي له وأعطي له ولم يتصرف به صلى الله عليه وسلم- يدلُّكَ على هذا ما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم: [إِنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي فَشَدَّ عَلَيَّ لِيَقْطَعَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ فَذَعَتُّهُ[2]، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُوثِقَهُ إِلَى سَارِيَةٍ حَتَّى تُصْبِحُوا فَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ فَذَكَرْتُ قَوْلَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام: رَبِّ ﴿هَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِئًا][3].

---

[1] انظر (المعجم الأوسط للطبراني)
[2] بِالذَّالِ أَيْ: خَنَقْتُهُ
[3] صحيح البخاري كتاب الجمعة

وفي رواية: [وَلَوْلَا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مَرْبُوطًا بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ يَتَلَاعَبُ بِهِ صِبْيَانُ الْمَدِينَةِ][1] ولم يوثقه صلى الله عليه وسلم في سارية المسجد بل أطلقه.

فقوله تعالى مخبراً عن سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي: لا ينبغي أن يظهر به ويعمل بمقتضاه، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان سليمان عليه السلام يأمر بإغلال الشياطين وربطهم فإن لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعاويذ تغلُّهم وتقيّدهم بل قد تحرقهم.

ومِن ذلك لمّا تعرّض له صلى الله عليه وسلم عفريتٌ من الجن ليلة المعراج وأراد إزعاجه صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: [أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولُهُنَّ؛ إِذَا قُلْتَهُنَّ طَفِئَتْ شُعْلَتُهُ وَخَرَّ لِفِيهِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلَى.

فَقَالَ جِبْرِيلُ: فَقُلْ: أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ وَبِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ اللَّاتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِن السَّمَاءِ وَشَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَشَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَشَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِنْ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ][2]

وفي رواية: [فَكُبَّ الْعِفْرِيتُ لِوَجْهِهِ[3]، وَانْطَفَأَتْ شُعْلَتُهُ][4].

---

[1] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ١١٣٥٤

[2] طرف حديث في موطأ الإمام مالك كتاب الجامع

[3] أي : سقط واشتعل بنار

[4] طرف حديث في (السنن الكبرى) للنسائي

وإذا كان سليمان عليه السلام قد سخَّر الله له الريح تجري بأمره -حيث كان عليه السلام يجلس مع وزرائه على الكراسي ثم يأمر الريح فتعلو بهم في أجواء السماء بسرعة دونما اضطراب وإزعاج-، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ وقال جل وعلا: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ فمن حيث السرعة هي (عاصفة)، ومن حيث المحمول عليها هي (رُخاء) أي ليّنة، وقد جاء في القرآن الكريم تحديد سرعتها، قال تبارك وتعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ أي تطوي بمن حملته مسافة شهر في زمن يسير كالغداة، وكذلك الرواح -وهو آخر النهار- فتقطع مسافة شهرين في يوم واحد ، والغدو ما كان قبل الزوال والرواح ما كان بعده.

إذا كان ذلك لسليمان عليه السلام فقد أعطي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أعظم من ذلك؛ فقد أسري به صلى الله عليه وسلم في ليلة واحدة على البراق من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماوات، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، إلى عالم العرش، وقد قال المحققون: ذاك يوم مقداره خمسين ألف سنة بدليل قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾ كل هذا طواه رسول الله صلى الله عليه وسلم في جزء من الليل...

وإذا كان سليمان عليه السلام يركب الريح للاستطلاع والاستكشاف وما هنالك فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم كشف الله له عن عالم الدنيا كله كما قال صلى الله عليه وسلم: [إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا][1].

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة

وفي رواية الطبراني:

[إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ رَفَعَ لِيَ الدُّنْيَا، فَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهَا وإِلى مَا هُوَ كَائِنٌ فِيهَا إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ، كَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلى كَفِّي هَذِهِ][1] ولم يحتجْ صلى الله عليه وآله وسلم إلى ركوب الريح للاستطلاع والكشف، فرأى صلى الله عليه وسلم الدنيا ومَن فيها ومَن كان ومَن سيكون إلى يوم الدين.

كما أعطي سيدنا سليمان عليه السلام جنوداً من الإنس والجن والطير، وأعطي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك وهو ما ذكره سبحانه في أول سورة الفتح: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنَا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾ وقال سبحانه بعدها بآيتين: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨﴾ والمعنى: أن الله ينصرك يا رسول الله بجنود السماوات والأرض -يعني: أن السماوات والأرض وما بينهما جنود لله تعالى يُجَنِّدها سبحانه لنصرة رسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم- وهذا من وجوه النصر العزيز، قال سبحانه: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ ومِن مظاهر ذلك: ما كان يوم بدر.. فقد جَنَّدَ الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الملائكةَ يوم بدر، قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٢٣ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾.

---

[1] طرف حديث في (المعجم الكبير) للطبراني و(حلية الأولياء) لأبي نعيم

وجَنَّدَ سبحانه لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الملائكة والرياح يوم الأحزاب، قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: [نُصِرْتُ بِالصَّبَا][1].

كما جَنَّدَ سبحانه التراب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم رمى بكفٍ من تراب وجوهَ المشركين في غزوة بدر[2] ويوم حُنين[3]، ويوم رمى به أولئك الذين أرادوا اغتياله يوم هجرته صلى الله عليه وسلم فأعماهم الله وأصمهم وقتلهم يوم بدر[4].

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجمعة.
و(الصبا) -بفتح الصاد- هي: الريح الشرقية، كما في (شرح النووي على مسلم) ١٩٨/٦

[2] جاء في المعجم الكبير للطبراني أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ، فَانْهَزَمُوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

[3] جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم يوم حُنين قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِن الْأَرْضِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ فَقَالَ: [شَاهَت الْوُجُوهُ] فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلَأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ فَهَزَمَهُم اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

[4] انظر (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية) ٩٩/٢

ولقد جنَّد الله تعالى له صلى الله عليه وسلم الطير؛ فهذه الحمام تعشّش على باب الغار لما دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبو بكر رضي الله عنه يوم الهجرة، بل إن تلك العنكبوت التي نسجت خيوطها على باب الغار هي جند من جنود الله تعالى[1].

وإن جبريل وميكائيل هما من قادة جنود الملائكة؛ إذ نزلا يوم بدر عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله[2]، وشاركته الملائكة المقربين في قتال المشركين.

وقد نزلت الملائكة عليهم السلام في عدد من الغزوات تباشر القتال أحياناً، وتنزل بالسكينة على قلوب المؤمنين وتثبّتهم، وتلقي الرعب في قلوب الأعداء وهكذا.

روى الإمام أحمد وابن حبان والضياء برجال الصحيح عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: [أُتِيتُ بمقاليد الدنيا على فرسٍ أبلق] أي: في لون سواد وبياض [جاءني به جبريل، عليه قطيفة من سندس].

وفي رواية: [جاءني به إسرافيل] وهذا من عالم الغيب.

---

[1] جاء في (معجم الزوائد) ٤٧٤/٢: وعن أبي مصعب المكي قال: (أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يحدّثون أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة بات في الغار أمر الله تبارك وتعالى شجرة فنبتت في وجه الغار فسترت وجه النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر الله تبارك وتعالى العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأمر الله تبارك وتعالى حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار، وأتى المشركون من كل فَجّ حتى كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعاً معهم عصيهم، وتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين فرجع فقال لأصحابه: ليس في الغار شيء؛ رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد)... الحديث

[2] روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ سَعْد بن أبي وقاص رضي الله عنه قَالَ: (رَأَيْتُ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ شِمَالِهِ يَوْمَ أُحُدٍ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابُ بَيَاضٍ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ، يَعْنِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَام).

وقد جاء إسرافيل عليه السلام بمفاتيح خزائن الدنيا كلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، مما يدلك على أنه صلى الله عليه وسلم أعطي الملك العام ولكنه لم يعمل بمقتضى الملك بل عمل بمقتضى العبودية لله تعالى، فحين دخل صلى الله عليه وسلم مكة فاتحاً والجيوش من حوله والناس يتطلعون إليه حنى رأسه الشريف وظهره الشريف تواضعاً لله تعالى[2].

وقد علَّم الله تعالى سليمان عليه السلام منطق الطير.. قال تعالى مخبراً عنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ ..الآية، فكان عليه السلام يفهم لغة الطيور، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أعطي ذلك وفوق ذلك..

جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: [إِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَار فَتَعَوَّذُوا بِالله مِن الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَاناً، وَإِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكاً].

وفي سنن أبي داود عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسولِ الله ﷺ في سفرٍ فانطلق لحاجتِه، فرأينا حُمَّرة[3]معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمَّرة فجعلت تُعَرِّش[4].

فجاء النبي ﷺ فقال: [مَنْ فجع هذه بولديها؟

رُدُّوا ولديها إليها].

---

[1] انظر (المعجم الأوسط للطبراني)
[2] انظر (سيرة ابن هشام) ٤٠٥/٢
[3] طائر صغير كالعصفور.
[4] قال في (النهاية) مفسراً لهذه الجملة: التعريش أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها.اهـ.

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: (أردفَني رسول الله ﷺ خلفَه ذات يومٍ فدخل حائطاً) -أي: بستاناً- (لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل فلما رأى النبيَّ ﷺ حنَّ) -أي: حنَّ الجمل- (وذرَفَتْ عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذِفْراه) -موضع الأذنين من مؤخر الرأس- (فسكت) -الجمل-..

فقال ﷺ: [مَنْ رَبُّ] -أي: صاحب- [هذا الجمل؟ لِمَن هذا الجمل؟].

فجاء فتى من الأنصار فقال له ﷺ: [أفلا تتقي الله في هذه البهيمةِ التي ملَّكك الله إياها؟! فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعُه وتدئبُه] أي : تُتعبه من كثرة العمل عليه واستعماله فوق طاقتِه.

كما أنه صلى الله عليه وسلم أعطي منطق الحصى والأحجار فسلَّمت عليه بصفة الرسالة، كما روى الترمذي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله)[1]، وقد سمع ذلك سيدنا علي رضي الله عنه.

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

(جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : بمَ أعرف أنك رسول الله؟

قال: [أَنْ أَدْعُوَ هذا العِذْق ينزل من النخلة فيشهد لي أني رسول الله] .

فدعاه فجعل العِذْق - أي: عرجون النخل- ينزل من النخلة حتى سقط إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقال:

(السلام عليك يا رسول الله).

ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : [ارجع إلى موضعك] فعاد إلى موضعه والتأم -أي: اتصل بالشجرة- فأسلم الأعرابي)[2].

---

[1] سنن الترمذي كتاب المناقب

[2] سنن الترمذي كتاب المناقب

وقد صاح الجذع لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو الجذع الذي كان يستند عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في خُطبه في مسجده الشريف صلى الله عليه وسلم[1] -لأن العلم والمعرفة بأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم هما أمر سارٍ في جميع الأشياء والمخلوقات؛ إلا من طُمس على قلبه فجحد وأنكر وتعامى فأعمى الله قلبه، وأعرض فأعرض الله عنه-.

ولقد أعطى الله تعالى عيسى ابن مريم عليه السلام آيات ومعجزات منها: أنه كان يبرئ الأكمه والأبرص -الأكمه: من وُلد أعمى، والأبرص: من أصيب بداء البرص- فكان عيسى عليه السلام يبرئ المصابين -ولو بداءات مزمنة أعيت الأطباء وأعجزتهم- حيث يمسح المصاب ويدعو الله له فيبرئ المصاب بإذن الله تعالى.

وقد أعطى الله تعالى ذلك سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه أعظم وأكبر، فلقد أبرأ بعض العُمْيان حين ألحّوا في الطلب.

جاء في الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي والبيهقي ، وصححه الحاكم وقال: على شرطهما، عن عُثمان بن حُنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضريراً جاء إلى النبي صلّى الله عليه وآله وسلم فقال: (يا رسول الله ادْعُ الله أن يَكشف عن بصري).

وفي رواية: (ادع الله أن يعافيني).

فقال: [إِنْ شِئْتَ دَعَوتُ، وإن شئْتَ صَبَرتَ فهو خير لك].

قال : فادعه -أي: ادع الله تعالى-.

فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: [اللهم إِنِّي أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلّى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه فِيَّ].

فتوضأ ثم صلّى ركعتين، وجاء في رواية البيهقي: (فقام وقد أبصر) .

---

[1] ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري كتاب المناقب

ومعنى: [أتوجه إليك]: أي أجعل وجهي إليك يا الله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومعنى: [بنبيك محمد]: أي بذاته صلى الله عليه وسلم ومقامه النبوي عندك يا الله.

فهذا الحديث يدل على مشروعية التوسل بذات النبي صلّى الله عليه وآله وسلم، فإن الضرير هو الذي دعا وتوجه إلى الله تعالى برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم، وليس ذلكَ خاصاً بالضرير، بل هو عام له ولغيره، في حياته صلّى الله عليه وآله وسلم وبعد وفاته، يدل على ذلك الزيادة التي رواها ابن خيثمة ، حيث قال صلّى الله عليه وآله وسلم للأعمى : [فإن كانت لك حاجة فافعل مثل ذلك] وهي زيادةٌ مِن ثقةٍ مقبولةٌ.

وبهذا الحديث وأمثاله استدل العلماء على جواز التوسل بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأن التوسل به صلى الله عليه وسلم هو من أعظم أسباب إجابة الدعاء.

وروى الطبراني والبيهقي في (الدلائل) عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أن عينه ذهبت يوم أُحد، فجاء النبيَّ ﷺ فردَّها فاستقامتْ.

وروى الطبراني وابن شاهين عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أُصيبتْ عينه يوم أُحد فوقعت على وجنته، فردَّها النبي ﷺ فكانت أصحَّ عينيه[1].

وجاء في رواية الطبراني وأبي نعيم عن قتادة قال:

(كنت أتَّقي السِّهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ فكان آخرها سهماً ندرتْ) -أي سقطت- (منه حدقتي، فأخذتها بيدي وسعيتُ إلى رسول الله ﷺ.

فلما رآها في كفّي دمعت عيناه فقال: [اللهمّ قِ قتادةَ كما وقى وجه نبيك، فاجعلها أحسنَ عينيه وأحدَّهما نظراً]. فكانت أحسنَ عينيه وأحدَّهما نظراً.

[1] انظر (الإصابة) .

وفي رواية : (وكانت لا تَرمَد إذا رمدت الأخرى)[1].

وفي بعض الروايات عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال:

(أصيبت عيناي يوم أحُد فسقطتا على وجنتي، فأتيت بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعادهما مكانهما وبصق فيهما فعادتا تبرقان][2].

وكم من مريض أو مبتلى شفاه الله تعالى وعافاه بدعواته ومسحاته صلى الله عليه وسلم.

ولقد تفل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيني علي رضي الله عنه لما أصابه الرمد يوم خيبر فبرأ من ساعته[3].

وروى البخاري عن يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ:

(رَأَيْتُ أَثَرَ ضَرْبَةٍ فِي سَاقِ سَلَمَةَ فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُسْلِمٍ مَا هَذِهِ الضَّرْبَةُ؟

فَقَالَ: هَذِهِ ضَرْبَةٌ أَصَابَتْنِي يَوْمَ خَيْبَرَ، فَقَالَ النَّاسُ: أُصِيبَ سَلَمَةُ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَفَثَ فِيهِ[4] ثَلَاثَ نَفَثَاتٍ فَمَا اشْتَكَيْتُهَا حَتَّى السَّاعَةِ].

---

[1] كما في (شرح المواهب) .
[2] انظر السيرة النبوية لابن كثير ٦٦/٣
[3] انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير
[4] أي: في موضع الضربة

وجاء في (الصحيحين) -واللفظ للبخاري- عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: (ذهبتْ بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالتْ: يا رسول الله إن ابن أختي وَجِعَ[1] فمسح رسول الله ﷺ رأسي ، ودعا لي بالبركة...) [2]الحديث.

ونسأل الله تعالى أن يرزقنا من مسحاته صلى الله عليه وسلم وفيوضاته ما نسعدُ به في الدنيا والآخرة، ونسأله جل وعلا التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] وفي رواية : (وقِع) -بكسر القاف- والمراد أنه كان يشتكي رجله.

[2] قال في (المرقاة) ٤٤٧/٢ : (وَعَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ) وُلِدَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، حَضَرَ مَعَ أَبِيهِ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ، قَالَهُ الطِّيبِيُّ. (قَالَ: ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي) : الْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ أَيْ: أَذْهَبَتْنِي (إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجِعٌ) : بِكَسْرِ الْجِيمِ أَيْ: مَرِيضٌ، وَقِيلَ: بِفَتْحِهَا أَيْ: ذُو وَجَعٍ (فَمَسَحَ رَأْسِي) : أَيْ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا فِي الشَّمَائِلِ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْوَجَعَ كَانَ بِرَأْسِهِ، فَمَسَحَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِيَدِهِ الْمُبَارَكَةِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِشِفَائِهِ، فَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَبَلَغَ السَّائِبُ نَحْوَ الْمِائَةِ وَلَمْ يَشِبْ لَهُ شَعْرٌ وَلَا سَقَطَ لَهُ سِنٌّ. (وَدَعَا لِي) : وَفِي بَعْضِ نُسَخِ الشَّمَائِلِ: بِالْفَاءِ (بِالْبَرَكَةِ) : أَيِ: النَّمَاءِ، وَزِيَادَةِ الْخَيْرِ، وَالنَّعْمَاءِ. اهـ

درس حول المقام المحمود

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

المقام المحمود هو من جُملة المقامات والخصائص والمَكارم التي خَصَّ الله تعالى بها رسولَه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم.

ولا تصحّ الشهادة بأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالتَّعرف إلى مقاماته وخصائصه صلى الله عليه وسلم والإيمان بها.

وإن من أعظم مظاهر المقام المحمود: شفاعته صلى الله عليه وسلم العامة في أهل الموقف.

والمقام المحمود: مقام يقوم به صلى الله عليه وسلم ويحمده عليه الأوَّلون والآخرون والإنس والجن على اختلاف طبقاتهم، كما تَحمَده وتُثني عليه ملائكة الله تعالى أيضاً.

روى الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: [أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بِمَ ذاك؟

يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فَيُسمِعُهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يُطيقون وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض:

ألا تَرَوْن ما أنتم فيه؟

ألا ترون ما قد بلغكم؟

ألا تنظرون مَنْ يشفع لكم إلى رَبِّكم؟

فيقول بعض الناس لبعض: (ائتوا آدم) فيأتون آدم فيقولون: (يا آدم أنت أبو البشر: خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك- اشفع لنا عند ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟).

فيقول آدم: [إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن أكل الشجرة فعصيته، نَفْسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح].

فيأتون نوحاً فيقولون: (يا نوح أنت أوّل الرسل إلى الأرض، وسَمّاك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟).

فيقول لهم: [إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم].

فيأتون إبراهيم فيقولون: (أنت نَبِيُّ الله وخليله من أهل الأرض؛ اشفع لنا عند ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟).

فيقول لهم إبراهيم: [إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله] -وذكر كذباته- [نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى صلى الله عليه وسلم] .

فيأتون موسى فيقولون: (يا موسى أنت رسول الله، فَضَّلَك برسالاته وبتكليمه على الناس؛ اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟).

فيقول موسى صلى الله عليه وسلم: [إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أُوْمَر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى عيسى صلى الله عليه وسلم].

فيأتون عيسى فيقولون: (يا عيسى أنت رسول الله، وكَلَّمْتَ الناس في المهد، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟).

فيقول لهم عيسى صلى الله عليه وسلم: [إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله] -ولم يذكر له ذنْباً- [نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري؛ اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم]

وجاء في رواية لمسلم، عن جابر رضي الله عنه: [فيؤتى عيسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم].

وفي رواية لهما عن أنس رضي الله عنه: [فيقول عيسى: لستُ هناكم، ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم؛ عبداً غفر الله ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر].

وفي رواية لأحمد والنسائي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: [فيقول عيسى: إني اتُّخِذتُ إلهاً من دون الله].

وفي رواية لأحمد أَنَّ كل نبي يقول: [إنه لا يَهمّني اليوم إلا نفسي] -من آدم إلى عيسى عليهم السلام- .

وفي حديث أنس رضي الله عنه عند سعيد بن منصور نحوه، وزاد:

فقال آدم فمَن بعده: [وأن يغفر لي اليوم حسبي].

-ولا يَكشف التَّجلي بالغضب إلا الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم-

قال صلى الله عليه وسلم: [فيأتوني فيقولون: (يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنْبك وما تأخر، اشفع لنا عند ربك، ألا ترىٰ إلى ما نحن فيه؟ ألا ترىٰ إلى ما قد بلغنا؟).

قال صلى الله عليه وسلم: [فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليَّ ويلهمني مِن محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يُقال: [يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تُشَفَّع]

أي أنَّه صلى الله عليه وسلم يسترحِم الله ويستعطِفه بهذه الأسماء الإلهية والمحامد التي يُفيضها الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فينكشف التَّجلي الغضبي وينفضُّ أمر الخلائق إلى الحساب.

قال صلى الله عليه وسلم: [فأرفع رأسي فأقول: [يا ربِّ أمّتي أمّتي] فيُقال: [يا محمد أَدْخِل الجنة مِن أمتك مَن لا حساب عليه مِن الباب الأيمن مِن أبواب الجنة؛ وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب].

[والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع[1] الجنة لَكَمَا بين مكة وهجر، أو ما بين مكة وبُصْرى].

وأمَّا الحِكمة من ذهاب النَّاس إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام، ثم إلى سيدنا مُحمَّد صلى الله عليه وسلم -ولم يذهب النَّاس مُباشرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم-:

فاعْلَم أنَّهم لو ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشَفَعَ بهم لرُبما قالوا: (لو أننا ذهبنا إلى آدم أو إلى موسى أو غيره لشَفع بنا) ..

ولكنَّ الله تعالى ألهمهم ذلك[2] فذهبوا إلى أبيهم آدم عليه السلام -لأنَّ الإنسان إذا أصابه أمر يلجأ أولاً إلى والده -فلمَّا عجز واعتذر -وكذا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام- ذهبوا إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لِيَتَبَيَّن لهم أنَّه لا يكشِف عنهم ما هم فيه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يشفع بهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو الشَّفيع الذي لا شفيع له، ولا شفيع قبْله صلى الله عليه وسلم.

وهنا يتبيَّن معنى قوله صلى الله عليه وسلم في صَدر حديث الشَّفاعة : [أنا سيد النَّاس يوم القيامة] لأنَّ سِيَادته صلى الله عليه وسلم ظَهرت لجميع أهل الموقف، وكلُّهم اعترفوا بذلك وحمدوه على ذلك، وأثنوا عليه صلى الله عليه وسلم.

أمَّا في الدنيا فقد يُنكر الكافر سيادة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم -وإنْ كان صلى الله عليه وسلم سيدَ الناس في جميع العوالم-.

---

[1] المصراعان: جانبا الباب .

[2] جاء في رواية: [فيُلهَمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يُريحنا من مكاننا هذا].

وسيد القوم هو الذي يرجعون إليه عند الشَّدائد والمُهمات.

ومن ناحية ثانية: فإنَّ ذهاب الناس إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم فموسى وعيسى ثم إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي شفع فيهم؛ إن في ذهابهم هذا: إظهاراً لمقاماتهم والخصائص التي خص الله بها كل رسول.

فلما ذهبوا إلى آدم عليه السلام قالوا: [يا آدم أنت أبو البشر: خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟].

وكذا لما ذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام ذكروا أنه خليل الله، وكذا نوح قالوا له إنه أول الرسل، وإن موسى كليم الله، وعيسى كلمة الله وروح منه ، ومع هذا كله فإنهم عليهم الصلاة والسلام لم يروا أنفسهم أهلاً للتقدم إلى مقام الشفاعة.

ولما ذهب الناس إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا:

[يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنْبك وما تأخر، اشفع لنا عند ربك، ألا ترىٰ إلى ما نحن فيه؟ ألا ترىٰ إلى ما قد بلغنا ؟] ثم شفع صلى الله عليه وسلم بهم:

إن في ذلك دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم قد أعطي من المقامات ما نالته كل الأنبياء والرسل، وزاد عليهم بالمقام المحمود الخاص بما اشتمل عليه من محبة خاصة وغفران لما تقدم وما تأخر من الذنوب، فتقدَّمَ صلى الله عليه وسلم إلى الشفاعة، فلم يُكشف الأمر إلا بالوالد الروحاني الذي خلق الله روحه قبل الأرواح ونبّأه في ذلك العالم.

وقولهم لنوح عليه السلام: [يا نوح أنت أوّل الرسل إلى الأرض]: أي أول الرسل بالبشارة والإنذار، إذ إن الرسل قبله كانوا يأتون قومهم بالبشائر والتعاليم فقط دون إنذار -لأنه لم يكن هناك شِرك- فلما بدأ الشرك أرسل الله تعالى نوحاً عليه السلام بالإنذار والتخويف للمشركين، والبشائر للمؤمنين.

قولهم لعيسى عليه السلام: [يا عيسى أنت رسول الله، وكَلَّمْتَ الناس في المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه]: أي روح ابتدأ خلْقُها مِن الله، لا أن عيسى روح متقطعة من الله أو جزء منه سبحانه -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - لأن (مِن) هنا للابتداء ، وليست للتبعيض، فافهم.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ فليس الكتاب جزءاً من الله تعالى، بل بدأ نزوله من الله تعالى.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾ وليست السماوات والأرض جزءاً من الله تعالى، بل المعنى: ابتدأ خلْقُها من الله سبحانه وتعالى.

قولهم لآدم عليه السلام: [وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ][1]: يدل على أن الجنة التي أسكنها الله تعالى آدم هي جنة المأوى، ثم خرج منها بذنْبه، وليست جنة دنيوية إذ إنهم لما قالوا: [وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ] فأي جنة أرادوا وهم في الآخرة؟

والدليل الآخر قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ وهذا من صفة ونشأة جنة المأوى.

قولهم لآدم عليه السلام: [يا آدم أنت أبو البشر: خلقك الله بيده] : لأن الله تعالى قال لإبليس لما امتنع عن السجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام؛ خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه، فالجسم الآدمي مكرَّم مشرَّف، وليس كجسم سائر المخلوقات..

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد

وقد جاء في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض؛ جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبيْن ذلك، والسهل والحزن] -أي: الغليظ الذي فيه عنف - [والخبيث والطيّب وبين ذلك][1].

واختلفوا: هل كان ذلك بواسطة جبريل أم دون واسطة..

فيجب على الإنسان أن يحفظ عليه شرف آدميته وذلك باتباع الرسل والتمسك بالشريعة التي شرعها الله تعالى لعباده حتى يترفعوا عن مستوى البهيمية، ويتحققوا بالإنسانية الكاملة.

ولما سجد صلى الله عليه وسلم وحمد الله تعالى بمحامد لم يحمد اللهَ بها أحدٌ قبله وأثنى عليه، ثم قيل له: [يَا مُحَمَّدُ] -صلى الله عليه وسلم- [ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ][2]: ظهر هنا مقام (أحمد) صلى الله عليه وسلم، لأنه صلى الله عليه وسلم أحمد الحامدين لرب العالمين، وهو صلى الله عليه وسلم أحمَدُ مَن حَمِدَ الله تعالى.

ولما شفع صلى الله عليه وسلم في أهل الموقف وانفض أمرهم إلى الحساب ظهر هنا مقامه صلى الله عليه وسلم، إذ حمده جميع أهل الموقف وأثنوا عليه صلى الله عليه وسلم.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين .

---

[1] رواه الترمذي وصححه، وأبو داود، وأحمد، والحاكم وغيرهم

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد

درسٌ حول

فضل تلاوة القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

إن من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم: موقف تلاوة آيات الله تعالى، قال جل وعلا: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي آيات الله التدوينية.

وفي تلاوته صلى الله عليه وسلم لهذا القرآن الكريم دليل على أنه صلى الله عليه وسلم حقاً رسول الله، إذ إنه صلى الله عليه وسلم نشأ أمّيّاً ولم يتعلم من معلِّم، فمن أين أتى بهذا القرآن المعجِز الجامع؟!

كما أن في تلاوته صلى الله عليه وسلم: تعليماً للناس كيف يتلون هذا القرآن، لأن له وجهاً خاصاً في التلاوة لا يكون إلا بالتلقي، وذلك لأن تلاوة القرآن الكريم عبادةٌ لله تعالى، فكما أنه صلى الله عليه وسلم علَّم الناس الصلاة وقال: [صلُّوا كما رأيتموني أصلّي][1] كذلك فقد قرأ عليهم كتاب الله تعالى، وكأنه صلى الله عليه وسلم قال: [اقرؤوا كما سمعتموني أقرأ]....

فافهم.

---

[1] طرف حديث في صحيح ابن حبان كتاب الصلاة

وإن تلاوة القرآن الكريم قُربة إلى الله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم: [وما تقرّب العباد إلى الله تعالى بمثل ما خرج منه][1] أي: بمثل ما بدأ منه؛ يعني القرآن الكريم، فإنه كلام الله تعالى، [منه بدأ] لأنه سبحانه هو المتكلم به، [وإليه يعود][2] فهو كلامه سبحانه لا كلام غيره.

روى الترمذي عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:

(قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟

قَالَ ﷺ : [الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ].

قَالَ: وَمَا الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ؟) وكأن المواظب على تلاوة القرآن يقطع أشواطاً في الوصول إلى الله والقرب منه سبحانه، فكلما حل -أي خَتَمَ القرآن الكريم- ارتحل أي إلى سورة الفاتحة ليبدأ ختمة جديدة، وهكذا عرَّفه صلى الله عليه وسلم بقوله:[الَّذِي يَضْرِبُ مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ إِلَى آخِرِهِ؛ كُلَّمَا حَلَّ ارْتَحَلَ][3].

كما أن تلاوة القرآن من أعظم الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم: [الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيتَعْتعُ فِيهِ[4]وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ: لَهُ أَجْرَانِ][5] أي أجر التلاوة وأجر المشقة التي يلاقيها.

وقراءة القرآن -نَصاً ولو دون فهم- هي قربة إلى الله تعالى، أما إن كانت بفهم فإن الأجر يتضاعف.

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

[2] قال الحافظ السيوطي في (الدر المنثور): أخرج البيهقي عن عكرمة رضي الله عنه قال: صلى ابن عباس رضي الله عنهما على جنازة، فلما وضع الميت في قبره قال له رجل: اللهم ربَّ القرآن اغفر له.
فقال له ابن عباس رضي الله عنه: (مَهْ، لا تقل مثل هذا، منه بدأ وإليه يعود).

[3] سنن الترمذي كتاب القراءات

[4] يعني: أن القارئ الذي يقرأ بدون تلعثم ومشقة مع السَّفَرة السابقين، والذي يقرأ بكلفة ومشقة له أجران.

[5] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

ومِن الحِكم في مواقفه صلى الله عليه وسلم أنه جاء يتلو آيات الله تعالى:

أن للقرآن روحاً تسري في قلب السامع، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: مَن طلب منك الجوار والأمان فأمِّنه واقرأ عليه القرآن حتى يسمعه.

وقال جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾

وقال سبحانه: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ .

ومِن شأن الروح أن تعطي الحياة، وإن الروح الإنساني يحتاج إلى الروح القرآني ليحيا بها حياة الأبد، وإن النافخ لهذا الروح القرآني هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم... قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ مع أنهم أحياء بالحياة الجسدية، فالمراد: حتى يحيي قلوبكم وأرواحكم حياة الأبد.

روى البخاري، وأحمد، وأصحاب السنن عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: (كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم فلم أُجِبه ، ثم أتيته) - أي: بعد انتهاء الصلاة- (فقلت :

يا رسول الله إنِّي كنت أصلي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : [ألم يقل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟] يعني : أنَّ الأمر بالاستجابة لدعوته صلى الله عليه وسلم عام لكل حال.

ثم قال صلّى الله عليه وآله وسلم: [ألا أعلّمك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أنْ تخرج من المسجد؟.

ثم أخذ بيدي، فلما أراد أنْ يخرج قلت:

ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟

فقال صلّى الله عليه وآله وسلم: [﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ هي السبْع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته].

أما الكفار فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ أي أموات القلب والروح ميتة الأبد، بخلاف المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم فحييت أرواحهم حياة الأبد.

ومن هنا تفهم شدة حاجة العالم إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء ينفخ الروح القرآني في القلوب والأرواح.

وإن مقامه صلى الله عليه وسلم في هذا أعظم من مقام الملك الذي ينفخ الروح في الأجِنّة، وأعظم من مقام إسرافيل عليه السلام الذي ينفخ في الصور فتتطاير الأرواح إلى أجسادها وتحيا بها الأجساد الكافرة والمؤمنة، لأن الروح القرآني المحمدي صلى الله عليه وسلم به حياة وسعادة الأبد .

وقد أعرض الكفار عن تَقَبُّل الروح القرآني، قال جل جلاله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٢٠١﴾ أي لأنهم مجرمون أعرضوا واستكبروا -وإلا فإن الروح القرآني دخل إلى قلوبهم- إلا أنهم استكبروا وأعرضوا وجحدوا.

ومِن الشواهد على ذلك: ما قاله الحافظ ابن كثير في تفسيره:

وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، فِي قِصَّةِ أَبِي جَهْلٍ حِينَ جَاءَ يَسْتَمِعُ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، هُوَ وَأَبُو سُفْيَانَ صَخْر بنِ حَرْب[1] والأخْنَس بْنُ شرِيْق، وَلَا يَشْعُرُ واحدٌ مِنْهُمْ بِالْآخَرِ.

فَاسْتَمَعُوهَا إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا هَجَم الصُّبْحُ تَفرَّقوا، فَجَمَعَتْهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالَ كُلٌّ مِنْهُمْ لِلْآخَرِ: مَا جَاءَ بِكَ؟

فَذَكَرَ لَهُ مَا جَاءَ لَهُ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا، لِمَا يَخَافُونَ مِنْ عِلْمِ شَبَابِ قُرَيْشٍ بِهِمْ، لِئَلَّا يَفْتَتِنُوا بِمَجِيئِهِمْ.

فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ جَاءَ كُلٌّ مِنْهُمْ ظَنًا أَنَّ صَاحِبَيْهِ لَا يَجِيئَانِ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْعُهُودِ، فَلَمَّا أَجْمَعُوا جَمَعَتْهُمُ الطَّرِيقُ، فَتَلَاوَمُوا، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا. فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ جَاؤُوا أَيْضًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا لِمِثْلِهَا ثُمَّ تَفَرَّقُوا فَلَمَّا أَصْبَحَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيق أَخَذَ عَصَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلة عَنْ رَأْيِكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ؟

قَالَ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ، وَاللَّهِ لَقَدْ سمعتُ أَشْيَاءَ أَعْرِفُهَا وَأَعْرِفُ مَا يُراد بِهَا، وَسَمِعْتُ أَشْيَاءَ مَا عَرَفْتُ مَعْنَاهَا وَلَا مَا يُرَادُ بِهَا.

قَالَ الْأَخْنَسُ: وَأَنَا وَالَّذِي حَلَفْتَ بِهِ.

ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فِي بَيْتِهِ فَقَالَ:

يَا أَبَا الْحَكَمِ، مَا رَأْيُكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ؟

قَالَ: مَاذَا سَمِعْتُ؟ تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ: أَطْعَمُوا فأطعمنا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجاثينا عَلَى الرُّكَب، وَكُنَّا كَفَرَسي رِهَان، قَالُوا: (مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ)

فَمَتَى نُدْرِكُ هَذِهِ؟

---

[1] وذلك قبل إسلامه

وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ وَتَرَكَهُ.

ومن الشواهد أيضاً: قول الوليد بن المغيرة عن القرآن الكريم بعدما استمع إليه: (إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة[1]) ثم إعراضه وجحوده بعد إلحاح أبي جهل عليه، فكان أبو جهل من شياطين الإنس.

وقد ورد في إنجيل عيسى عليه السلام: (وإني سأطلب من الرب أن يرسل فيكم فارِقْلِيطاً) -أي رسولاً محمود السيرة- (آخر يبقى معكم إلى الأبد).

والفارقليط : هو الحامد والمحمود، وهذا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب مقام الحمد والمحمودية.

وكما أن للقرآن روحاً فإن له نوراً ، وشأن النور أن يهديك إلى الأمور ، ويعرّفك إلى الحقائق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي أنزل عليه صلى الله عليه وسلم، وهو معه لا يفارقه؛ وهو القرآن الكريم.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] انظر (دلائل النبوة) للبيهقي وقوله: (لطلاوة) أي: حُسنًا وبهجة وقبولًا

درسٌ حول

تفسير سورة ﴿ٱلْبَيِّنَة﴾

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

لقد وقع أهل الكتاب في الجهل والضلال، وكذا العرب الذين تقادم العهد على شريعتهم الموروثة عن إسماعيل عليه السلام، واشتدت حاجة العالم إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم حتى ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من الظلمة -وهي الحيرة والضلال- إلى النور، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ -وهم اليهود والنصارى- ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ -وهم عباد الأوثان والنِّيران والكواكب وغيرهم- ﴿مُنفَكِّينَ﴾ -أي تاركي غيِّهم وضلالهم- ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ -وما هي هذه البينة؟- ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾.

وقال جل وعلا: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ ...الآية.

وقد بَشَّرَ عيسى عليه السلام بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطلب من الله تعالى أن يبعث رسولاً لكافة الناس، فقال لأصحابه:

(إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الرب فيعطيكم فارقليطاً آخر ليثبت معكم إلى الأبد) -أي: لا نبي بعده- (هو روح الحق) أي: يأتي بروح من الله تعالى تحيا بها الأرواح، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وقال عز من قائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ ، قال عليه السلام: (ويخبركم بكل ما يأتي) وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن كل شيء، كما في حديث عمرو بن أخطب رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر وخطب من الفجر إلى غروب الشمس، وأخبر الصحابة عن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة[1].

وفي التوراة بعد التعريب: [ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء] -أي: يُصحِّحَ به العقيدة التي طرأ عليها الاعوجاج والأباطيل- [بأن يقولوا : (لا إله إلا الله)، ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً][2] أي: يدخل النور الإيماني في القلوب والجوارح.

---

[1] روى الإمام مسلم في صحيحه عن عَمْرِو بْنِ أَخْطَبَ رضي الله عنه قَالَ: [صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَت الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَت الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَت الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا].

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب البيوع

قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝٣﴾
فالدليل على أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله: أنه يتلو صحفاً مُطهَّرة -وهي القرآن الكريم الذي حوى علوماً ومعارف وإخبارات عجز عنها الأولون والآخرون- فمن أين أتى بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد نشأ صلى الله عليه وسلم أمّيّاً؟!
هذا دليل يبين أنه صلى الله عليه وسلم رسول من الله حقاً، فبيِّنةُ صدقه معه صلى الله عليه وسلم، وهي القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فاعرفوا له فضله ومقامه وشرفه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم رسول من الله جل وعلا، وشَرَفُ الرسول على شَرَف مُرسِله.

كما أن في ذلك دليلاً على محبة الله تعالى لهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إذ إنه سبحانه اصطفاه واختاره رسولاً عاماً، وأعدّه وأمدّه ليقوم بهذه الرسالة العامة، وقد أعلن هذا صلى الله عليه وسلم فقال:

[ألا وأنا حبيب الله ولا فخر][1].

وتجب محبته صلى الله عليه وسلم فوق محبة الآباء والأبناء والأموال والأنفُس[2]، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم أرحم بالمؤمن من نفسه، ومِن والده وأمه، ولمّا يأتي يوم القيامة ويفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه فلا ملجأ له إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب المناقب وسنن الدارمي في المقدمة
[2] لا شك أن محبته صلى الله عليه وسلم هي ركن ركين، وعقد متين من عقود الإيمان، كما ورد في الأحاديث الصحيحة: [لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين].
وقال صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه: [حتى أكون أحب إليك من نفسك]
وروى الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما].... الحديث

وإن في قوله صلى الله عليه وسلم: [مِن أشدّ أمّتي لي حباً: ناس يكونون بعدي؛ يود أحدهم لو رآني بأهله وماله][1] وفي رواية: [أشدّ أمّتي لي حباً قوم يكونون أو يخرجون بعدي؛ يود أحدهم أنه أعطى أهله وماله وأنه رآني][2]

فيه: بيان وجوب الشوق إلى رؤياه صلى الله عليه وسلم، وبذل النفس والنفيس في ذلك.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين .

[1] صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها
[2] مسند الإمام أحمد ٢٠٤٢١

درسٌ حول

الإسراء والمعراج

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

إن الإسراء والمعراج أمران ثابتان في الكتاب والسُّنَّة، ويجب الاعتقاد بهما، وهما من خصائص سيدنا رسول الله ﷺ ومقاماته التي فضَّله الله تعالى بها على غيره من المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومِن الفوائد والمنافع التي نالتها هذه الأمة من خلال إسرائه ومعراجه صلى الله عليه وسلم ما جاء في قوله عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم:

[فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ.

فَفَتَحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ فَقَالَ[1]: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ]...الحديث.. مِن هذه الفوائد والمنافع: أنه لما عُرج برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات بصحبة جبريل عليه السلام كان خازن كل سماء يقول لجبريل عليه السلام لما يستفتح: [مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ.

---

[1] أي: قال جبريل عليه السلام

قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ].

ولم يقل:(وهل معك أحد؟) أي أن كل خازن شعر بوجود أحد مع جبريل عليه السلام، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك لقوة النورانية المحمدية صلى الله عليه وسلم، وقد أوحى الله تعالى إليهم بذلك فراحوا ينتظرون قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: [مَرْحَبًا بِهِ؛ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ].

وعندما سلَّم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على سيدنا آدم وعلى سيدنا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ردا عليه السلام ثم قالا له: [مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ] [1] أي : الصالح لهذا المقام وهو المعراج إذ لا يصلح غيره له، وليس المراد بالصلاح هنا: الصلاح العام؛ لأنه صلى الله عليه وسلم سيد وإمام الصالحين والأنبياء والمرسلين.

وروى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [لقيت ليلة أسري بي إبراهيم عليه السلام فقال لي: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وبشّرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان] -أي: هي بِقاعٌ واسعة صالحة للغرس والزراعة- [وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم] وينبغي ذِكرها في اليوم أربعمائة مرة ، ولله أسرار في هذه الأعداد وخصائص وحِكم[2].

وقد التقى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بسيدنا موسى عليه السلام في السماء السادسة، قال صلى الله عليه وسلم:

[فأتيت على موسى بن عمران فسلّمت عليه، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، فلما جاوزته بكى، فقيل: ما يبكيك؟

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب المناقب

[2] انظر آخر كتاب (أدعية الصباح والمساء) للشيخ الإمام رضي الله عنه

قال: يبكيني أن هذا نبي يبعث بعدي، يدخل من أمّته الجنة أكثر ما يدخل الجنة من أمتي][1] فكان بكاء موسى عليه السلام بكاء فرح وغبطة.

وروى الإمام أحمد في مسنده عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُونَ صَفًّا] فأهل الجنة عشرون ومائة صف، وكل صف لا يعلم عدده إلا الله تعالى، ثمانون صفاً من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأربعون صفاً من سائر الأمم السابقة.

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه بعيني رأسه صلى الله عليه وسلم لحديث مسلم أنه صلى الله عليه وسلم سُئل: [هل رأيتَ ربك؟

فقال صلى الله عليه وسلم: رأيتُ نوراً][2] أي أن التجلي بالرؤيا كان تجلياً نورانياً، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦﴾ فلقد فسّرها صلى الله عليه وسلم بقوله عنها: [فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا] -أي لما تجلى سبحانه عليها بالرؤيا- [تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا][3].

وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله: (يغشاها نور الخلّاق سبحانه).

وقال الحسن رضي الله عنه: (غشيها نور رب العالمين فاستنارت) .

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (غشيها رب العزة عز وجل)[4].

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] انظر معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني وأصله في الصحيحين
[2] صحيح مسلم كتاب الإيمان
[3] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ١٢٠٤٧
[4] انظر تفسير الألوسي والقرطبي والبغوي للآية الكريمة

درس في جامع بانقوسا

حول موقفه صلى الله عليه وآله وسلم

مع الأمّة في تعليم معاني الكتاب

البحث في قضايا الآخرة وعوالمها

انتفاع الأموات بما يُهدَى إليهم مِن الأحياء

مِن ثواب أعمال صالحة وأقوال طيبة

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

إنّ ما يهديه الأحياء إلى أمواتهم مِن ثواب أعمال صالحة كصلاة وصيام وحج وكذا أقوال طيبة كقراءة قرآن واستغفار ودعاء؛ كل ذلك يَصِلُ ثوابه إليهم، ولا ينكر ذلك إلا مَن كان في قلبه مرض، أو كان جاهلاً بالكتاب والسُّنّة.

ومما يدل على ذلك:

أولاً: أن الله تعالى شرع الصلاة على الأموات، وقال لنبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، ولولا أن الأموات ينتفعون بهذه الصلاة لَمَا شرعها الله تعالى!

ففي الصلاة على الأموات نفع للمصلي وللمصلَّى عليه، لأنها تتضمن الاستغفار والدعاء له.

وقد بيَّن سبحانه في كتابه الكريم مشروعية دعاء الأحياء للأموات واستغفارهم لهم فقال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ أي : وهذا شأن المؤمنين فيما بينهم: أن الأحياء منهم يدْعون لِمَن قبْلهم ويستغفرون لهم، ولولا أن في ذلك نفعاً لهم لَمَا شرعه الله تعالى ولمَا أخبر عنه.

كما أن إهداء ثواب الصدقات من الأحياء للأموات يصلهم ويعود بالنفع عليهم؛ ففي الصحيحين عَن أم المؤمنين السيدة عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا[1]، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ[2]، فَهَلْ لَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: [نَعَمْ][3].

وفي صحيح البخاري عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ:

(إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: [نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا[4]، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً؟

اقْضُوا اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ][5].

---

[1] أي ماتت بغتة.
[2] أي لأوصت بالصدقة.
[3] صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب الوصية
[4] أي فيصل ثواب الحج عنها إليها.
[5] صحيح البخاري كتاب الحج

وَمَن اسْتَغْفَرَ للمؤمنين والمؤمنات فهو ينتفع بهذا الاستغفار؛ كما ينتفع مَن استغفر له مِن المؤمنين والمؤمنات، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلّى الله عليه وآله وسلم يقول: [مَنِ استغفر للمؤمنين والمؤمنات: كَتَبَ الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة] رواه الطبراني بإسناد جيد[1].

أي كتب له على عددهم حسنات، ويشمل هذا الأحياء منهم والأموات.

وَرَوَى الطَّبراني عن أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [من قال كلَّ يوم: (اللهم اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات): أُتحِف به] -أي: أُعطي- [بكل مؤمن ومؤمنة حسنة].

وروى الطبراني عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:[مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَالٌ يَتَصَدَّقُ بِهِ[2] فَلْيَسْتَغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ] أي فإن ذلك له صدقة.

ومن استغفر لأبويه بعد وفاتهما نفعهما الله تعالى بذلك، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَّى لِي هَذِهِ؟

فَيَقُولُ الله تعالى: [بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ] [3].

وروى الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يتْبع الرجلَ من الحسنات يوم القيامة أمثالُ الجبال فيقول: أنى هذا؟

فيقال: باستغفار ولدك لك] ويشمل هذا ولده وولد ولده من بعده وهكذا

---

[1] رواه الطبراني بإسناد جيد. انظر فيض القدير للمناوي ٦ \ ٥٧ .
[2] أي يتصدق به على المؤمنين والمؤمنات.
[3] ١٠٢٠٢

وروى الطبراني عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: [إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده؛ فيقال له: (إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك)[1].

فيقول: (يا رب قد عملت لي ولهم)، فيؤمر بإلحاقهم] وتلا ابن عباس: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ الآية[2].

ومعنى الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾-أي إيماناً كاملاً- ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ -أي بإيمان ضعيف دون إيمان الآباء، ويشمل هذا الإيمان بأنواعه- ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾-أي ألحقنا الفروع بالأصول- ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ ﴾ أي وما أنقصنا من أجور وثواب الآباء من شيء ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾.

ولقد قام سعيد بن المسيب رضي الله عنه -وهو من أكابر التابعين رضي الله عنهم أجمعين- قام الليل خمسين سنة يصلي الفجر بوضوء العشاء[3] وقَالَ لِابْنِهِ: (لَأَزِيدَنَّ فِي صَلَاتِي مِنْ أَجْلِكَ، رَجَاءَ أَنْ أُحْفَظَ فِيكَ) ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾[4] أي فصلاح الآباء ينفع الأبناء في الدنيا وفي الآخرة، أما نفعه لهم في الآخرة فقد تقدم بيانه، وأما نفعه لهم في الدنيا فهو كما ذكر سبحانه في سورة الكهف: أنه أكرم الغلامين اليتيمين وحفظ لهما الكنز حتى يكبرا وذلك بسبب صلاح أبيهما، قال جل وعلا: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ .

---

[1] أي هم دونك في الرتبة .
[2] انظر المعجم الصغير للطبراني
[3] انظر (وفيات الأعيان) ٧٥/٢
[4] انظر (جامع العلوم والحكم) ٤٦٧/١

وإن مِن بر الوالدين بعد وفاتهما: الاستغفار لهما والدعاء لهما..

روى أبو داود وابن ماجه عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ:

(بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: [نَعَمْ؛ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا[1]، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا][2].

وهذا الحديث يدل على عظيم حق الوالدين على ولدهما في حياتهما وبعد مماتهما، وقد جاء في الصحيحين واللفظ لمسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟]

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ][3] أي: ارجع إليهما، وقم بحقوقهما عليك، وكن باراً محسناً إليهما: فإن هذا لك جهاد.

وروى أبو يعلى والطبراني بإسنادين جيّدين عن أنس رضي الله عنه قال:

(أتى رجل رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه [4]، فقال ﷺ: [هل بقي من والديك أحد؟]

قال: أمي.

---

[1] أي أن تُنفِذ ما عهدا به إليك وأوصياك به.
[2] سنن أبي داود وسنن ابن ماجه كتاب الأدب
[3] صحيح البخاري كِتاب الجهاد والسِّيَرِ وصحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب
[4] أي كان عاجزاً عن الجهاد.

قال ﷺ: [قابِل الله في بِرّها[1] فإذا فعلت ذلك فأنت حاجّ ومعتمر ومجاهد][2]

أي لك ثواب ذلك كله.

وروى النسائي عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السَّلَمِيِّ أَنَّ جَاهِمَةَ رضي الله عنه جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

(يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ..

فَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: [هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟]

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ ﷺ: [فَالْزَمْهَا فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا] [3].

وروى الطبراني عن طَلْحَةَ بن مُعَاوِيَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ:

(أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

قَالَ: [أُمُّكَ حَيَّةٌ؟]

فَقُلْتُ: نَعَمْ

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [الْزَمْ رِجْلَهَا، فَثَمَّ الْجَنَّةُ][4].

فما أعظم ثواب بر الوالدين، وخاصة إن كانا بحاجة إلى ولدهما !!

---

[1] أي ابْق معها براً ومحسناً.
[2] كما في الترغيب للمنذري، كتاب البر والصلة.
[3] سنن النسائي كتاب الجهاد
[4] المعجم الكبير للطبراني

ومما يدل على وصول ثواب ما يهديه الأحياء إلى الأموات مِن قراءة ودعاء واستغفار:

ما رواه الإمام أحمد وغيره عن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: [﴿يسٓ ۝١﴾ قَلْبُ الْقُرْآنِ، لَا يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَالدَّارَ الْآخِرَةَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ، وَاقْرَؤُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ][1]

أي: وبقراءتها ينتفع الأحياء، وينتفع الأموات إن أهدي ثواب قراءتها إليهم،

وفي الحديث إرشاد ونصح وهدي من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للأحياء بما ينفع الأموات.

والمعنى: فكما أن أحدكم إذا قرأها مخلصاً بها غفر الله تعالى له فكذلك إذا قرأها على الميت غفر الله تعالى له.

وربما يقول بعضهم: إن المراد من قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

[وَاقْرَءُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ] أي حين الاحتضار.

فيقال له: ولِمَ خَصَّصتَ القراءة عند الاحتضار؟

فيقول: لأن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله.

فيقال له: إذا كان الإنسان لا ينتفع بقراءة غيره فهو لا ينتفع بها بعد موته ولا ينتفع بها عند الاحتضار أيضاً، طالما أنه لا ينتفع بعمل غيره حسب زعمك!

ومن هنا تعلم أن المراد من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [وَاقْرَءُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ] أي: على موتاكم وهم موتى، لأنه لا يقال عن المحتضر إنه: (ميّت) على الحقيقة، ولكنه (ميت) مجازاً بمعنى أنه سيموت، والحقيقة مقدمة على المجاز كما هو مقرر عند العلماء، وهذا شأن نصوص الكتاب والسنة، إذ إن الحقيقة فيها مقدَّمة على المجاز ما لم يصرفها صارف صريح.

---

[1] مسند الإمام أحمد ١٩٤١٥ وسنن النسائي الكبرى

وقد روى البيهقي في شُعَب الإيمان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -ويروى موقوفاً عن ابن عمر رضي الله عنهما، ومثل هذا لا يقال بالرأي، بل هو من باب التوكيد- أنه قال : [إذا مات أحدكم فلا تحبسوه، وأسرعوا به إلى قبره[1]، وليُقرأ عند رأسه فاتحة البقرة، وعند رجليه بخاتمة البقرة].

وفي (المرقاة)[2]: أَخْرَجَ أَبُو مُحَمَّدٍ السَّمَرْقَنْدِيُّ فِي فَضَائِلِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: [مَنْ مَرَّ عَلَى الْمَقَابِرِ وَقَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إِحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً ثُمَّ وَهَبَ أَجْرَهُ لِلْأَمْوَاتِ: أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ بِعَدَدِ الْأَمْوَاتِ].

ويروى هذا أيضاً موقوفاً، وله حكم المرفوع لأنه لا يدرَك بالرأي.

وفي المرقاة أيضاً نقلاً عن محمد بن أحمد المروزي قال: سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: (إذا دخلتم المقابر فاقرؤوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ؛ واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم).

وجاء في بعض الآثار استحباب قراءة سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ عند زيارة المقابر؛ ففي الجزء الثالث من المرقاة:أخرج الزنجاني في فوائده عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : [من دخل المقابر ثم قرأ فاتحة الكتاب و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ ثم قال: (إني جعلت ثواب ما قرأتُ من كلامكَ لأهل المقابر من المؤمنين والمؤمنات): كانوا شفعاء له إلى الله تعالى][3].

---

[1] أي لا تؤخِّروا دفنه.
[2] أي مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح.
[3] انظر ما سبق في (المرقاة) ١٢٢٨/٣

وليجمع المؤمن قراءة كل ذلك إن أمكنه، وليبدأ بقراءة سورة ﴿يسٓ ۝١﴾ ثم بقيّة ما ورد.

وروى الترمذي وغيره عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ][1].

أي: فمن كان له رجاءات عند الله تعالى وأسئلة يسأله إياها وشَغَلَه القرآن بتلاوته عن سؤاله الله حاجاته ومطالبه: فإن الله تعالى يعطيه أفضل ما يعطي السائلين ويحقق له رجاءه.

ولما كان الدعاء للميت ينفعه بلا ريب فإن أنت اشتغلت بالقرآن لهم بدلاً من الدعاء لهم فإن ذلك يكون دعاء لهم، ويصِلهم ثوابه كما دل عليه الحديث الشريف المتقدم.

وإذا كان دعاؤك يحتمل الإجابة فإن تلاوتك للقرآن الكريم محققة الإجابة والثواب، لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي يضاعِف الله لقارئه الحسنات -وإن لم يفهم ما يقرأ- بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

[مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ حَرْفٌ؛ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ][2].

---

[1] سنن الترمذي وسنن الدارمي كتاب فضائل القرآن

[2] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

وإذا قال جاهل أو مريض قلب: إنه لا يصل شيء إلى الأموات مِن عمل الأحياء مستدلاً بفهمه للآية: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، وزعم[1] أنه لا ينتفع الإنسان إلا بعمله وسعيه، ولا ينتفع بعمل غيره...

فيقال في البيان: لقد قرأتَ وما دريتَ، ولو أنك لجأتَ لِفهم القرآن إلى بيانات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاهتديتَ إلى الصواب ولعرفتَ الحق.

فقد بيّن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ السعي نوعان:

سعي مباشر، وسعي تَسَبُّب، وكلاهما ينفع الإنسان، وهذا بيان منه صلى الله عليه وآله وسلم للآية الكريمة المتقدمة، فقد روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وأصحاب السنن أيضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

[إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ] [2].

والمعنى: إذا مات ابن آدم انقطع عمله الدنيوي المباشر الذي كان يصدر منه؛ لكن الأعمال التي كان هو سبباً فيها لم تنقطع عنه، وهذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [إلا من ثلاثة[3]: إلا من صدقة جارية] : كأن بنى مسجداً أو ساهم في بنائه، أو حفر بئراً ينتفع به الناس، أو ورّث مصحفاً ليُقرأ به.. فيبقى ثواب هذه الأعمال مستمراً يُكتب في صحيفة هذا الإنسان -وإن مات- طالما أن أعماله تلك ينتَفع بها -ولو بعد موته-.

---

[1] أي زعم الجاهل أو مريض القلب

[2] صحيح مسلم كتاب الوصية والترمذي في كتاب الأحكام والنسائي في كتاب الوصايا
وأبو داود في كتاب الوصايا ومسند الإمام أحمد ٨٤٨٩

[3] أي لأنها من أعماله بالتسبب.

فمن ورّث مصحفاً ليقرأ به غيره بعد موته فإن تلاوة غيره مِن هذا المصحف تُكتب في صحيفة مَن ورّثه لأنه تسبب في ذلك، وهذا من الأعمال التسببية، ويسمى: (السعي بالتسبب).

فمن مات فقد انقطع عمله المُباشر ويبقى عمله -الذي كان هو سبباً له- يبقى ثوابه جارياً ويكتب في صحيفته وينال أجره.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [أو ولد صالح يدعو له] أي: يدعو له بعد موته، ولو كان هذا الولد من ذريته لأنه كان سبباً في وجودهم وهدايتهم وتربيتهم على الإيمان والتقوى.

فالمُراد إذاً من قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي سعياً مُباشراً أو مُتسبباً.

ولو لم ينتفع الإنسان إلا بعمله وسعيه المباشر فما فائدة الصلاة عليه عندئذ إذا مات؟!

ولكن الصلاة عليه هي من سعيه إذ إنه آمن ومات على الإيمان فتسبب في أن يصلي عليه المؤمنون، بحيث لو لم يمت على الإيمان لما صلَّى عليه أهل الإيمان، فصلاة المؤمنين عليه ودعاؤهم له واستغفارهم له؛ كل ذلك كان بسعي منه وسبب منه إذ إنه آمن ومات على الإيمان فتسبّب في أن ينتفع بصلاة المؤمنين عليه ودعائهم واستغفارهم له.

ومن دخل في الإيمان بأن آمن وأسلم فقد تعاطى سبباً عظيماً في نيل الخيرات من المؤمنين، وشمله أولاً : استغفار أنبياء الله تعالى للمؤمنين، وكذا استغفار حملة العرش واستغفار المؤمنين كلهم، وأن يسلّم عليه أهل الإيمان في صلاتهم، وأن يدْعو له أولاده من بعده.

أما استغفار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- استغفارهم للمؤمنين فقد أخبر سبحانه عن سيدنا نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام قوله: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ٢٨﴾ فمن دخل في الإيمان فقد شمله استغفار سيدنا نوح عليه السلام للمؤمنين بالمغفرة.

ويشمله أيضاً استغفار سيدنا إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام كما أخبر عنه سبحانه قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾.

ومن آمن فقد تسبب أيضاً في أن تشمله المغفرة التي دعا بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمؤمنين كما بيَّن ذلك سبحانه بقوله:

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾؛ وقد استغفر لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وامتثل أمر ربه جل وعلا، ومِن هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

[حياتي خير لكم؛ تُحْدِثون[1] ويُحْدَث لكم، ووفاتي خير لكم[2]؛ تُعرَض عليّ أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم] [3].

---

[1] والمعنى: تُحْدثون أقوالاً وأعمالاً ويُحْدَث لكم أحكام شرعية فيها بيان ما يجوز وما لا يجوز من الأقوال والأعمال.

[2] فلا ينقطع خيره صلى الله عليه وآله وسلم عن أمّته في حياته ولا بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم.

[3] عزاه في مجمع الزوائد إلى البزار وقال: رجاله رجال الصحيح، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: ورواه الحارث ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه، وعزاه السيوطي في الجامع الكبير لابن سعد عن بكر بن عبد الله مرسلاً.

وهذا امتثال منه صلى الله عليه وآله وسلم لأمر الله تعالى له بقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾.. فافهم.

ومن آمن فقد سَعَى وتسبَّبَ في أن يناله استغفار حملة العرش والمقرَّبون من الملائكة عليهم السلام كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ -أي فيقولون:- ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ هم الملأ الأعلى، وسيِّدهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان آخر كلامه: [اللهم الرفيق الأعلى][1]، وكان مِن دعائه صلى الله عليه وآله وسلم قبل النوم: [وَاجْعَلْنِي فِي النَّدِيِّ الْأَعْلَى][2] ؛ فهو سيد الملأ الأعلى وإمام الملأ الأعلى في حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم.

فلأنك آمنت فقد سعيت وتسببت في أن ينالك استغفار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحملة العرش عليهم السلام.

وقد جاء في مسند الإمام أحمد أَنَّ الْعَاصَ بْنَ وَائِلٍ[3] نَذَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَنْحَرَ مِائَةَ بَدَنَةٍ، وَأَنَّ هِشَامَ بْنَ الْعَاصِ نَحَرَ حِصَّتَهُ خَمْسِينَ بَدَنَةً، وَأَنَّ عَمْرًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ:

[أَمَّا أَبُوكَ فَلَوْ كَانَ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ فَصُمْتَ وَتَصَدَّقْتَ عَنْهُ: نَفَعَهُ ذَلِكَ][4] أي: ولكنَّه لم يمُت على التَّوحيد فلا ينفعه ذلك شيئاً.

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق

[2] طرف حديث في سنن أبي داود كتاب الأدب

[3] الذي لم يُسْلِم، وهو والد الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه.

[4] ٦٤١٧

فمن آمن فقد سعى وتسبَّب في أن يناله حظ من دعاء المؤمنين وإحسانهم وصدقاتهم.

ومن سعى إلى عمل خير أعطاه الله تعالى ذلك؛ فمن انضمَّ إلى الصالحين وسعى إليهم وجلس بينهم أعطاه الله تعالى من الأجر والثواب مثلهم -ولو لم يعمل مِثلهم مباشرة- دلَّ على ذلك ما جاء في الحديث القدسي: [هم القوم لا يشقى بهم جليسهم].

فقد روى الشَّيخان وغيرهم -واللفظ للبخاري- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

[إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذِّكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: (هَلُمّوا إلى حاجتكم) قال ﷺ: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم -وهو أعلم منهم-[1]: [ما يقول عبادي؟] قال: يقولون: يسبّحونك ويكبّرونك ويحمدونك ويمجّدونك .

قال: فيقول: [هل رأوني؟]

قال: فيقولون: لا والله ما رأوك .

قال: فيقول: [وكيف لو رأوني؟]

قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً وتحميداً، وأكثر لك تسبيحاً.

قال: يقول: [فما يسألونني؟]

قال: يقولون: يسألونك الجنة .

قال: يقول: [وهل رأوها؟]

قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها.

---

[1] قال ابن حجر في (الفتح) : قوله ﷺ: [فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم منهم]: في رواية الكشميهني: [وهو أعلم بهم] كذا للإسماعيلي ، وهي جملة معترضة وردت لرفع التوهّم.

قال: يقول: [فكيف لو أنهم رأوها؟]

قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة.

قال: [فممّ يتعوذون؟]

قال: يقولون: من النار.

قال: يقول: [وهل رأوها؟]

قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها.

قال: يقول: [فكيف لو رأوها؟]

قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة .

قال: فيقول: [فأُشهدكم أني قد غفرت لهم].

قال: يقول ملَك من الملائكة: (فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة).

قال: [هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم][1].

وفي رواية عند مسلم:

[قَالَ: فَيَقُولُونَ: (رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ؛ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ).

قَالَ: فَيَقُولُ: [وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ][2].

وهذا يدلُّ على أنَّ المؤمنين لمَّا يرون ربهُم بالعِيان في حضرة الجِنان يكونون أكثر تسبيحاً له وتحميداً وعِبادةً -على وجه الكَلَف والوَلَع لا التكلُّف والمشقَّة- كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في وصفهم: [يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ][3].

---

[1] في كتاب الدعوات

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار

[3] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

وفي رواية بمثله وبزيادة: [وَيُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّكْبِيرَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ][1]

فحياتُهم ونعيمُهم ولذَّتهم: تسبيح الله تعالى وتحميده وتكبيره، وهم يسألون الله تعالى الجنة لأن فيها رؤية رب العالمين ومناجاته ومحاضرته لهم وسماعهم لكلامه جل وعلا، ويقرأ عليهم سبحانه القرآن الكريم، ولمَّا يسمعونه منه فكأنَّهم ما سمعوه من قبل، كما جاء ذلك في الحديث الذي رواه الحكيم الترمذي عن بُريدة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

[إنَّ أهل الجنة يَدخلون على الجبار كلَّ يوم مرتين، فيقرأ عليهم القرآن، وقد جلس كلُّ امرئ منهم مجلسَه الذي هو مجلسه[2]، على منابر الدرِّ والياقوت والزمرُّد والذهب والفضة: بالأعمال، فلا تقَرُّ أعينهم قطُّ كما تقرُّ بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى رحالهم وقُرَّة أعينهم ناعمين إلى مثله من الغد][3].

وهذا من أعظم النعيم وأجلِّ أنواع التكريم، وتعتريهم لذة في سماعهم ما ذاقوا لها من قَبْلُ مثيلاً ، ولا مِعشاراً منها ولا فتيلاً ، كما روى السِّجزي في (الإبانة) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: [كأنّ الناس لم يسمعوا القرآنَ حين يتلوه اللهُ عليهم في الجنة].

وروى صاحب (الفردوس) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: [كأن الخَلْقَ لم يسمعوا القرآن حين يسمعونه من الرحمن يتلوه عليهم يوم القيامة][4].

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

[2] يعني: أن كلاً منهم يجلس في مجلسه المُعَدِّ له والمستعِدِّ له، دون أن يكون هناك فوضى في المجالس.

[3] انظر: (الفتح الكبير).

[4] انظر: (الفتح الكبير).

ولمَّا يتجلَّى الله تعالى على أهل الجنة بالرؤية فإنَّ أحدهم يصير كلُّه رائياً، وكل ذرة منه تكون مبصِرة، لأن كل ذرة فيه لها نصيب من رؤية رب العالمين، وهي مخلوقة بقوله جل وعلا: ﴿كُن﴾ ، فلها حظ أن تتنعم برؤية مكوِّنها جلَّ وعلا.

وفي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى:

[تريدون شيئاً أزيدكم؟]

فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟

قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل].

وفي رواية: [ثم تلا صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾][1].

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

[1] الرواية الأولى والزيادة هما في صحيح مسلم كتاب الإيمان

محاضرة

في جامع بانقوسا عام ١٣٩٩ هجري

حول موقف تعليم الكتاب - العلم بقضايا الإيمان،

الإيمان باليوم الآخر وما فيه - عالم الصراط

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ والمعنى: ما منكم من أحد يا معشر الجن والإنس إلا واردها -أي وارد جهنم- وهذا أمر لازم حتَّمه الله تعالى وأوجبه على نفسه، وهو مقتضى حكمة ربوبية رب العالمين جل وعلا.

أما الورود في جهنم فقد اختلف العلماء في ذلك:

هل هو مرور على ظهر جهنم، أم دخول فيها وخروج منها؟

وقد ذهب كثير من علماء السلف إلى أن الورود هو المرور عليها مروراً، لكن الجمهور وما عليه أهل التحقيق أن المراد بالورود: الدخول، فالصراط منصوب في جهنم ، والمؤمن يمر عليه مرور عبور ، أما الكافر فيدخل جهنم إقامة ومُكثاً، ويدل على ذلك قوله سبحانه : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ أي داخلون، ففسر الورود بالدخول،

وكذا قوله سبحانه عن فرعون: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ - أي أدخَلَهم- ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ ، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ أي داخلُها، أما المؤمن فيدخل دخول عبور، وأما الكافر فيدخل دخول بقاء .

وقد روى أحمد بالسند الجيد والرجال الثقات عن أبي سُميّة رضي الله عنه قال: (اخْتَلَفْنَا هَاهُنَا فِي الْوُرُودِ فَقَالَ بَعْضُنَا: لَا يَدْخُلُهَا مُؤْمِنٌ، وَقَالَ بَعْضُنَا: يَدْخُلُونَهَا جَمِيعًا ثُمَّ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا.

فَلَقِيتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ) - وهو الصحابي الجليل رضي الله عنه- (فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا اخْتَلَفْنَا فِي ذَلِكَ الْوُرُودِ، فَقَالَ بَعْضُنَا: لَا يَدْخُلُهَا مُؤْمِنٌ، وَقَالَ بَعْضُنَا: يَدْخُلُونَهَا جَمِيعًا.

فَأَهْوَى بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَالَ: (صُمَّتَا إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [الْوُرُودُ الدُّخُولُ، لَا يَبْقَى بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِ بَرْدًا وَسَلَامًا كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ -أَوْ قَالَ: لِجَهَنَّمَ- ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ] -أي صياحاً واستغاثةً من البرد حين يمر عليها أهل الإيمان- [ثُمَّ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَيَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا][1] والجاثي هو المقيم في الشيء -أي وهم قعود على رُكَبِهم لا يفارقونها- نسأل الله العافية. آمين

[1] انظر المسند ١٣٩٩٥، وقال الحافظ المنذري في (الترغيب) : رواه أحمد ورواته ثقات، والبيهقي بإسناد حسّنه .اهـ

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وغيره أن النار تقول للمؤمن: [جُزْ يا مؤمن؛ فقد أطفأ نورك لهبي][1] فنورُ الإيمان يطفئ النيران وذلك على حسب قوة النور، وهذا لأن المؤمن لمّا عرف الله تعالى وآمن به وخشع له وخاف منه وخشيه سبحانه ودمعت عيناه ولو مرة في العمر: فإن الدمعة الواحدة تطفئ بحاراً من جهنم كما ورد في الحديث :

[ما من شيء إلّا له مقدار وميزان إلّا الدمعة، فإنه يطفأ بها بِحار من النار][2]

قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ أي أن هذا أمر حتّمه سبحانه على نفسه وأوجبه.

واعلم أنه سبحانه قد يوجِب على نفسه ويحتِّم على نفسه جل وعلا، وليس لغير الله أن يوجِب أمراً على الله تعالى، لكنه سبحانه قد يوجب على نفسه كَرَماً منه وتفضلاً على مقتضى حكمته سبحانه، وكذلك قد يُحَرِّم على نفسه ويكتب على نفسه.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: [يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا[3]] .

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ][4].

وفي الآية الكريمة يقول جل جلاله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

---

[1] قال الحافظ العراقي في (تخريج أحاديث إحياء علوم الدين) : رواه الطبراني وأبو نعيم والبيهقي والخطيب، وضعّفه البيهقي.

[2] قال الحافظ الزرقاني في شرحه على المواهب ٣٦٣/١٢: وللبيهقي مرفوعاً ... وذكر الحديث

[3] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

[4] المسند ٢١٠٢١

قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ ذكرهم سبحانه بصيغة التقوى، لأنهم لما لبسوا لباس التقوى في الدنيا كان لهم وقاية في الآخرة من حر جهنم وبردها أيضاً، قال جل وعلا: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ .

وأما السبيل لكي يلبس المؤمن لباس التقوى فهو: امتثال أوامر الله تعالى واجتناب ما نهى عنه، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فهو سبحانه خلق الحر والبرد، وخلق لك أسباباً تقيك الحر والبرد .

﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ فاعتبر في ذلك لمّا وقيت نفسك في الدنيا من البرد بأن لبست ما يقيك البرد وكذلك قِ نفسك في الآخرة بلباس التقوى، وعلى هذا قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ فعلى قدر وحسب تقواهم نجّاهم الله تعالى، وفي هذا بيان أن للأعمال التكليفية التي أمرك الله تعالى بها آثاراً في نفس المؤمن تظهر عليه يوم القيامة.

واعلم أنه لا تكمل لك الوقاية من مساوئ الآخرة حتى تتقي الله تعالى في الدنيا في نفسك، وتقي مَن هو في مسؤوليتك -وهم أهلك وأولادك-، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ وذلك بأن تأمر مَن لك الولاية عليهم - زوجتك وأولادك - أن تأمرهم بتقوى الله تعالى، وتنهاهم عما نهى الله تعالى عنه.

واعلم أن النار لا تحرق من ذاتها، ولو كانت كذلك لأحرقت إبراهيم عليه السلام، ولأحرقت المؤمنين عندما يمرون عليها!

لكن الذي يحرق بالنار هو رب النار جل وعلا.

وكذلك فإن الماء لا يُغرِق من ذاته، لكن الله تعالى هو الفعّال، كما أغرق طوفان نوح قومه ونجّى اللهُ نوحاً عليه السلام ونجّى مَن معه.

وعلى هذا فلا شيء له طبيعة ذاتية من نفسه، وإنما طابع الطابع والمؤثِّر في الأسباب هو الله تعالى.

ثم ما الحكمة في مرور أهل التقوى على النار - وإن كانوا يتفاوتون في سرعة مرورهم فمنهم كالبرق الخاطف والجواد السريع وغير ذلك-؟

نعم إن من حكمة ذلك: أن يوقن المؤمن أن إيمانه حَصَانة، وعبادته لله تعالى في الدنيا قد رأى أثرها في الآخرة، وأنها وقاية وحصانة له، وقد عاين ذلك وهو داخل جهنم يمر عليها، فلما يمر المؤمن عليها يعرف قيمة ما أمره الله تعالى به.

ثم إن المؤمن لما يمر عليها ويرى مخاوفها وشدائدها ثم ينجو منها ويأمن مِن حرها وعذابها يعرف قدر نعمة الله تعالى عليه ويحمده على ذلك، ويعلم أن نعمة الإيمان نعمة كبرى لا تعادلها نعمة، وكذلك نعمة التوفيق للعمل الصالح.

ثم إن مرور المؤمنين عليها مرور عبور ، وبقاء الظالمين فيها: يزيد ذلك في عذاب الظالمين عندما يرون أن الله تعالى قد نجّى المؤمنين منها - والحال أن الظالمين كانوا في الدنيا يحتقرون صلاة المؤمنين وعبادتهم- وهكذا يُسَرُّ المؤمنون بعذاب الظالمين، ويزداد الظالمون ألماً وحسرة بنجاة المؤمنين.

كما أن نهاية الصراط باب الجنة، فلما يدخلها المؤمن ويرى نعيمها يعلم الفرق الكبير بين جنات النعيم وعذاب الجحيم - وبضدها تتميز الأشياء - فيحمد الله على نعمه عليه، ولولا ظلمة الليل ما عرف فضل ضوء النهار .

واعلم أن أول مَن يجتاز الصراط على وجه أسرع من لمح البرق هو السيد الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام:

[فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ]

- أي سلِّم أمّتنا من وراءنا، وإلا فإن الأنبياء في سلام وأمان-

[وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: [فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ][1]... الحديث -فكل عمل في معصية الله تعالى هو كلّوب لصاحبه في جهنم يتعلق به وهو على الصراط-.

وقد قال تعالى في صفة المارّين على الصراط من المؤمنين والمنافقين :

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي أهل الإيمان الكامل ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أمامهم وعلى أطرافهم، ولم يذكر شمائلهم بل أيمانهم لأنه لا شمال لهم؛ بل صارت جهاتهم كلها ميمونة ومباركة ، فأضاءت لهم نور أعمالهم الصالحة من صلاة وزكاة وصيام، وأضاءت لهم الشيبة التي شابوها في الإسلام ، كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم : [مَنْ شَابَ شَيْبَةً] أي: شعرة واحدة [فِي الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ][2].

ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نتف الشيب ففي رواية الإمام أحمد: (فَقَالَ رَجُلٌ عِنْدَ ذَلِكَ: فَإِنَّ رِجَالًا يَنْتِفُونَ الشَّيْبَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ شَاءَ فَلْيَنْتِفْ نُورَهُ][3] ويُكره صبغ الشيب إلا بالحنّاء.

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأذان
[2] سنن الترمذي كتاب فضائل الجهاد
[3] المسند ٢٢٨٢٧

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أما الكافر فقد سقط في جهنم أول مروره على الصراط ، وأما المنافق الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر فلما مشى على الصراط أضاءت له كلمة [لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم] مسافة قصيرة ثم طفئ نوره ووقع في الظلمة، قال جل جلاله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

ولا أشد على الإنسان من الظلمة بعد النور ، فلما طفئ النور عليهم جعل المنافقون يقولون للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي تمهلوا في سيركم حتى نمشي وراءكم ونستضيء بنوركم - ﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ - أي إلى الدنيا -﴿فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ أي آمِنوا واعملوا حتى تنالوا النور، وأنى لهم ذلك ؟!

بل هو من باب التهكم عليهم ليزدادوا حسرة وألماً وعذاباً .

أو أن المراد من قوله تعالى مخبراً عن المؤمنين قولهم للمنافقين: ﴿ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ هو عالم يمر عليه المؤمنون ويتحلون فيه بالأنوار قبل أن يمروا على الصراط .

فيقال للمنافق: ارجع إلى هذا العالم واكتسب النور حتى تمر به على الصراط، ولا يمكن له ذلك لأنه لو كان من أهل النور لنال النور كما ناله أهل الإيمان !

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ أي لا تعجلوا في سيركم بل انتظرونا، أو أن المراد: انظروا إلينا بوجوهكم حتى نستضيء بنور وجوهكم في مرورنا على الصراط، وذلك لما يعطي الله تعالى المؤمنون من أنوار في وجوههم، كما ورد في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ]

-أي في قوة النور والبهاء، أما في المنظر والشكل فهم أجمل الصور الآدمية-

[ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً] ... الحديث

وذلك لأن الإيمان في القلب نورٌ من الله تعالى ، قال عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ ولولا النور لما ظهرت لك الأمور ولوقعت في الحيرة، وكلما قوي إيمانك قوي نورك في الدنيا والآخرة، كما أن الصلوات والأعمال نور كما قال صلى الله عليه وسلم: [وَالصَّلَاةُ نُورٌ][1] .

وفي الحديث عن قتادة رحمه الله قال: (ذكر لنا -أي ذكر لنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم- أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: [إن مِن المؤمنين يوم القيامة مَن يضيء له نوره] -أي حين يمرّون على الصراط- [كما بين المدينة إلى عدن أبين إلى صنعاء، فدون ذلك، حتى إن من المؤمنين مَن لا يضيء له نورُه إلا موضعَ قدميه][2].

اللهم اجعل في أبصارنا نوراً، وفي أسماعنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً. آمين

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الطهارة

[2] عزاه الحافظ السيوطي في (الدر المنثور) إلى عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن المنذر

أبحاث من دروس جامع بانقوسا

عالم الجَنّة - كتابة الأعمال

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

لقد افتتح سبحانه سورة الفاتحة بذِكر أنه سبحانه هو رب العالمين، فقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ وفي هذا تنبيه للعباد أن يتعرّفوا إلى ربهم جلّ وعلا بمشاهدة هذه العوالم، فإن العوالم علامات دالّة على الله تعالى وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته سبحانه.

فلقد أشهدهم الله تعالى آثار صفات قدرته وعلمه وحكمته في العوالم المشهودة -كعالم السموات وعالم الأرض وعالم النبات وعالم الحيوان وغيرها-.

ومِن العوالم التي ذكرها سبحانه في القرآن الكريم: عالم الجنة وعالم النار -وهما دار القرار- اللهم اجعلنا من أهل الجنة. آمين

ولقد خلق الله تعالى الجنة وجعل فيها ألواناً من النعيم الجسماني والروحاني والفكري والقلبي والعلمي وغير ذلك مِن مشاهدة العوالم والاطلاع على الكائنات على وجه لا حدّ له ولا انتهاء.

ولما خلق الله تعالى الجنة قال لها: [انطقي] -وقد علَّمها سبحانه بِمَ تنطق- [فقالت: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾][1]..الحديث.

---

[1] طرف من حديث عزاه الحافظ المنذري في (الترغيب) إلى الطبراني في الكبير والأوسط بإسنادين أحدهما جيد، وإلى ابن أبي الدنيا واللفظ له.

وقد دعا الله تعالى عباده إلى الجنة التي سمّاها جل وعلا: ﴿ دَار ٱلسَّلَٰمِ﴾

فقال عز من قائل: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي : دار الله ، لأن ﴿ٱلسَّلَٰم﴾ اسم من أسماء الله تعالى.

فالجنة دار السلام ودار الرحمن ودار الرضوان وحظيرة القدس الرباني، ومن جملة أسماء الجنة: (حظيرة القدس)، وهذا كما يقال: (حديقة القدس) أي: لا يدخلها إلا أهل النفوس المقدسة الطاهرة الطيبة.

قال صلى الله عليه وسلم: [إِنَّهُ لَا يَلِجُ حَظِيرَةَ الْقُدُسِ مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَا الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَلَا الْمَنَّانُ عَطَاءَهُ] [1] أي: مَن مات مِن هؤلاء ولم يَتُبْ فإنه لا يدخل الجنة حتى يتطهر من صفات الدّنس التي فيه -ويكون ذلك في برازخ الآخرة- وإذا لم يطهر منها -لشدة ذنوبه وتمكنها منه- فإن جهنم آخر المُطَهِّرات بالنسبة لعصاة المؤمنين؛ حتى إذا طَهُرَ أحدهم وطاب أُذِنَ له بدخول الجنة.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: [مَنْ تَرَكَ الْخَمْرَ وهُو يَقْدِرُ عَلَيْهِ] -أي: يقدر على شربه ولكنه تركه من أجل الله تعالى- [لأَسْقِيَنَّهُ مِنْهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدسِ، وَمَنْ تَرَكَ الْحَرِيرَ وهُو يَقْدِرُ عَلَيْهِ لأَكْسُوَنَّهُ إِيَّاهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدسِ] [2]

فلينظر الإنسان العاقل في موقفه من دعوة الله تعالى له إلى دار ضيافته وكرامة جواره: هل يلبي دعوة الله تعالى؟ أم يعرض عنها؟

وقد أرسل الله تعالى أفضل الأنام سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى دار السلام.

---

[1] رواه الطبراني في الأوسط بهذا اللفظ وهو في مسند الإمام أحمد ١٢٨٨١بلفظ: [لَا يَلِجُ حَائِطَ الْقُدُسِ] -والحائط: الحديقة- أي: جنة القدس [مُدْمِنُ الْخَمْرِ وَلَا الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ وَلَا الْمَنَّانُ عَطَاءَهُ].

[2] انظر (مسند البزّار)

وقد جاء عن الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ قال: (لبيك اللهم لبيك)[1].

ومَن سلك طريق ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ بتقوى الله تعالى قيل له في الآخرة: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ -أي: حفَّتهم الملائكة بالتحية بالسلام، وحلّ عليهم السلام، فيسمعون المنادي بأمر الله تعالى: [إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا][2].. الحديث

فسَلِموا مِن الآفات والعاهات، وسَلِموا من الشيخوخة وكبر السنّ والوهن، وظفروا بألوان النعيم المتجدّد. اللهم اجعلنا منهم. آمين

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] قال الحافظ السيوطي في (الدر المنثور): وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ قَالَ: (لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ).

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

منازل أهل الجنة

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

إنّ أهل الجنة لمّا يدخلونها يعرف كل منهم منزله ومنزلته فيها بتعريف من الله تعالى لهم، كما قال سبحانه: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم:

[فَلأَحَدُهُمْ أَعْرَفُ بِمَنْزِلِهِ فِي الآخِرَةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا][1].

وفي رواية: [فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا].

ومنازل الجنة كلها عالية.. وهناك الأعلى والأعلى وهكذا.. قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠﴾، فلا يتصف أحد من أهل الجنة بدنو المنزلة، بل كلها عالية، ومنازلها على مراتب في العلوّ، كما روى مسلم في صحيحه عنه صلى الله عليه وسلم قال:

[سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟

قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ؛ فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُل الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟

فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟

فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ.

---

[1] انظر (مستدرك الحاكم).

فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ.

فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ.

قَالَ: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟

قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ؛ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾][1].

وقوله تعالى في الحديث القدسي: [غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي]: -أي: أنه سبحانه غرس جِنانهم بيده جل وعلا، وفي هذا من الإكرام ما لا يدركه الإنسان.

وقد شرّف الله خلْق آدم عليه السلام فخلَقه بيده، كما جاء في الآية الكريمة قوله سبحانه[2]: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

وروى الترمذي في سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:[إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى جِنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرُرِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ] -وفي رواية الإمام أحمد: [أَلْفَيْ سَنَةٍ، يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ][3]- [وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غدْوَةً وَعَشِيَّةً، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾][4] وهذا مقام عليين، وهذا مقام أهل الفردوس الأعلى، اللهم ألحقنا بهم بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين.

---

[1] في كتاب الإيمان
[2] مخاطِباً إبليس
[3] المسند ٤٣٩٥
[4] في كتاب صفة الجنة

ويقال عن أهل هذا المقام العالي: (أهل عليين)، وهذا غير المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾، ويقال لهم: (أهل الفردوس الأعلى).

وقد بيّن سبحانه في القرآن الكريم أن هناك ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾، وفي آيات ثانية ذكر سبحانه ﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ فقط فقال جل وعلا:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾.

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في أحاديثه الشريفة.

أما جنات الفردوس فهي تشمل جميع مراتب الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلَا ١٠٨﴾ .

وقوله تعالى : ﴿نُزُلَا﴾ أي : منزلاً .

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: أن الجنة منزل لهم خالدٌ باقٍ، فهم دائماً في النعيم الدائم المتجدد ، بحيث لا يملّون ولا يسأمون، فهم لا يريدون التحول عن ما هم فيه لأن ألوان النعيم وأنواعه تتجدد عليهم ويترقّون في النعيم فلا يطلبون التحول عن حالهم -لملل أو ضجر أو كسل-.

أما منزلة (العِلّيين) في الجنة فيقال عنها: (الفردوس الأعلى) وهي التي ذكرها سبحانه لمّا امتدح أهل الإيمان الكامل وذكر شيئاً من صفاتهم ثم قال عز من قائل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾.

قال جل وعلا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ .

قوله تعالى : ﴿يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾:

الضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ﴾ يعود إلى ﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ ، لأن كلمة ﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ في اللغة تذكّر وتؤنّث ، فتذكَّر للفظها، وتؤنَّث لمعناها -باعتبار أنها جنة عالية أعلى الجنان-.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ وقد نزلت هذه الآيات في مكة المكرمة ولم تكن زكاة المال قد فُرِضت فما هي الزكاة في هذه الآية؟!

كما أن الآيات التي جاءت بالأمر بالزكاة جاء فيها الأمر بكلمة (الإيتاء) قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وقال سبحانه: ﴿يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ... وهكذا، أما في آية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾فجاء الخبر عن أهل الإيمان بفعل الزكاة!

نعم، إن المراد من (الزكاة) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾: زكاة النفس أي: تطهير النفس وتخليتها من القبائح والرذائل، وتطييبها وتحليتها بالمكارم والفضائل .. وهذا المعنى جاء في قوله تعالى في ذِكر فضله سبحانه على سيدنا يحيى عليه السلام : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ أي : وآتيناه حناناً منّا وطهارة نفس، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾.

ومعنى الآية المتقدمة ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ يكون:

والذين هم لتزكية نفوسهم وتطهير قلوبهم يفعلون ما أمر اللهُ تعالى، فيمتثلون أوامر الله كي تزكو نفوسهم وتطهر قلوبهم.

وممّا يعين الإنسان على طهارة نفسه من الشرور والفساد:

أن يراقب ربه في جميع أموره، كما أرشد إلى ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تعالى مزكياً للعالمين كلهم فقال صلى الله عليه وسلم:

[ثلاثٌ مَن فعلهن فقد طَعِم طعْم الإيمان: مَن عَبَدَ الله وحده؛ فإنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا الشرط اللئيمة ولا المريضة[1] ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله عز وجل لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره، وزكّى نفسه.

فقال رجل: ما تزكية المرء نفسه؟

قال ﷺ: أن يعْلم أن الله معه حيثما كان] [2] أي: فيحمله هذا على الخشية والخوف من الله تعالى؛ فينتهي العبد عن فعل المعصية ويُقْبل على العبادات فتزكو نفسه.

---

[1] قال في عون المعبود شرح سنن أبي داود :
[الدرنة] - بفتح الدال بعدها راء مكسورة -هي الجرباء، و[الشرط] -بفتح الشين و الراء- هي صغار المال وشراره ، و[اللئيمة] هي البخيلة باللبن .

[2] رواه البخاري في التاريخ الكبير والبيهقي في السنن الكبرى والطبراني في المعجم الصغير وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني وأبو نعيم في معرفة الصحابة

وقد ذكر سبحانه أول صفات أهل الإيمان: الخشوع في الصلاة، وذكر ثانياً ما يحمل الإنسان على الخشوع في الصلاة ويعينه على ذلك وهو: الإعراض عن اللغو في الكلام، وهو : الكلام الذي لا فائدة منه في الدنيا ولا في الآخرة، ويدخل في هذا -من باب أولى-: الإعراض عن الكلام الباطل الحرام كالغيبة والنميمة وغير ذلك، فإذا أعرض الإنسان عن اللغو في كلامه واشتغل بذِكر الله تعالى في ذهابه وإيابه وعمله ومجالسه فإن ذلك يعينه على الخشوع في صلاته، فيدخل الصلاة وقلبه عامر بمراقبة الله تعالى، ولسانه رطب من ذِكر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨﴾ أي: يرعون أمانات الله عندهم وأمانات الخلق عندهم؛ يرعونها حق رعايتها، وهم يرعون عهد الله لهم، والعهود فيما بينهم.

أما أمانات الله عند الإنسان فهي كثيرة وتشمل: سمعه وبصره وعقله وقلبه وأعضاءه وجوارحه، فمن استعملها فيما شرع الله له فقد رعى الأمانة عنده،

ومَن تصرف بها بخلاف ما شرع الله له فقد خان الأمانة، لأن من شأن الأمين ألّا يتصرف في الأمانة إلا بما قال له المؤتمِن الذي أمّنه عليها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ :

لقد بيّن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المراد من ﴿ٱلْفِرْدَوْس﴾ فقال ﷺ: [إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ[1] وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ][2]

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [وإن أهل الفردوس يسمعون أَطيط العرش][3] أي : يسمعون تسبيح العرش وملائكته .

وقوله صلى الله عليه وسلم: [وفوقَه] -بفتح القاف-: على الظرفية.

وفي رواية: [وفوقُه] -بضم القاف-: يعني سقفه[4].

ومما تقدم يتبين لك أن الفردوس هو أعلى منزلة في الجنة بالنسبة لأهل الجنة، وليس فوقه في العلو إلا مقام الوسيلة لصاحب مقام الوسيلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

---

[1] قال الحافظ ابن حجر في الفتح: الْمُرَادُ بِالْأَوْسَطِ هُنَا الْأَفْضَلُ.

[2] صحيح البخاري كتاب التوحيد

[3] طرف حديث عزاه الحافظ السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه

[4] قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وَقَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم فِيهِ: [وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ] كَذَا لِلْأَكْثَرِ بِنَصْبِ (فَوْقَ) عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَيُؤَيِّدُهُ الْأَحَادِيثُ الَّتِي قَبْلَ هَذَا، وَحَكَى فِي الْمَشَارِقِ أَنَّ الْأَصِيلِيَّ ضَبَطَهُ بِالرَّفْعِ بِمَعْنَى: (أَعْلَاهُ) .اهـ
وقال الإمام القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ٥﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: (هو العرش، وهو سقف الجنة).

وفي الحديث: [لَوْ أَنَّ مَا يُقِلُّ ظُفُرٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ بَدَا] أي : لو أن شيئاً قليلاً جداً مثل ما يحمله الظفر ظَهَرَ لعالم الدنيا [لَتَزَخْرَفَتْ لَهُ مَا بَيْنَ خَوَافِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَ] أي : على أهل الدنيا [فَبَدَا سِوَارُهُ لَطَمَسَ ضَوْءُهُ ضَوْءَ الشَّمْسِ كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ][1].

وفي رواية له: [وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الدُّنْيَا لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحَ الْمِسْكِ، وَلَطُيِّبَ مَا بَيْنَهُمَا][2].

وروى أبو داود في سننه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

[إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ عِلِّيِّينَ] -يعني: من أهل الفردوس الأعلى-

[لَيُشْرِفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ] -أي: الذين هم دونه في الرتبة-

[فَتُضِيءُ الْجَنَّةُ لِوَجْهِهِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَمِنْهُمْ؛ وَأَنْعَمَا][3]

أي : وزادا فضلاً [4].

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] المسند ١٣٧١

[2] المسند ١٢١٤٢

[3] في كتاب الحروف والقراءات

[4] جاء في حاشية السندي على سنن ابن ماجه ٥٠١١:
(قَوْلُهُ ﷺ: [وَأَنْعَمَا] مِنْ: (أَنْعَمَ) إِذَا زَادَ، أَيْ زَادَ عَلَى تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ، أَوْ مِنْ: (أَنْعَمَ) إِذَا دَخَلَ فِي النَّعِيمِ.
قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي حَاشِيَةِ التِّرْمِذِيِّ فِي تَارِيخِ ابْنِ عَسَاكِرَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ:
فَقُلْتُ لِأَبِي سَعِيدٍ: وَمَا [أَنْعَمَا]؟
قَالَ: (هُمَا أَهْلٌ لِذَلِكَ)، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: (وَحُقَّ لَهُمَا ذَلِكَ). اهـ

مقام الوسيلة

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

إن مقام الوسيلة هو أعلى مقامات ومنازل الجنة كلها على الإطلاق، وهو مقام فَرْديّ خاص بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويشرف ويُشرق بأنواره ﷺ على جميع منازل أهل الجنة، والكل يستمدون منه ويستنيرون بنوره ﷺ.

وفي الحديث الذي رواه مسلم وغيره عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

[إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ] -وفي رواية الترمذي: [لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ][1]- [وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ] -أي: أن هذه المنزلة العالية لا تقبل التعدد - [فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ] -أي: وجبت- [لَهُ الشَّفَاعَةُ][2].

وانظر في كرامة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الله تعالى؛ فقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسأل الله له الوسيلة لينتفع السائل، لا لينتفع هو صلى الله عليه وسلم.

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب المناقب

[2] صحيح مسلم كتاب الصلاة

وفي الحديث قال ﷺ: [إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ] -أي: عند ختم وردكم من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم- [فَاسْأَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَسِيلَةُ؟

قَالَ: أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ][1].

فلقد طالبَنا صلى الله عليه وسلم أن ندعو بالوسيلة لننتفع من وسيلته صلى الله عليه وسلم.

واعلم أيها العاقل أن مقام الوسيلة في الجنة هو لصاحب الوسيلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو الوسيلة العظمى والواسطة الكبرى،

وقد دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: [ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ].

و(الوسيلة) و(الواسطة) و(السبب) على معنى واحد في اللغة، فإن جميع ما ينزل على أهل الجنة من رحمات وخيرات وبركات وأنوار وأسرار ومشاهدات ومكاشفات: كل ذلك بواسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الوسيلة، وجميع أهل الجنة يأخذون عنه صلى الله عليه وسلم ويستمدون منه.

ولا تنكر ذلك فقد قال صلى الله عليه وسلم: [أَلاَ وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ، وَلاَ فَخْرَ ، وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ تَحْتَهُ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ، وَلاَ فَخْرَ][2] أي: كي يتعلموا المحامد الإلهية من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أحمد الحامدين لرب العالمين جل وعلا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ وهو نهر في الجنة عليه خير كثير، ينتفع بهذا الخير جميع أهل الجنة، يعني أن خير الجنة كله من كوثر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

---

[1] مسند الإمام أحمد ٧٢٨١

[2] سنن الدارمي في المقدمة

فالله تعالى يعطي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم، كما قال ﷺ في الحديث: [وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، وَاللَّهُ يُعْطِي] [1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾: يعني: (إنا فتحنا لك لنفتح القلوب بك، ولنفتح العقول بك، ولنفتح الرحمة على العالم بك).

ومما يؤكد هذا المعنى: أن الجنة لا يمكنُ لأحد أن يفتحها إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو صلى الله عليه وسلم فاتح الرحمة على العالمين في جميع العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ .

وقد فتح الله به صلى الله عليه وسلم القلوب حتى يملأها جل وعلا بأنواره.

روى الإمام البخاري رضي الله عنه ما وصف الله به رسوله صلى الله عليه وسلم في التوراة، ونقلها الصحابة إلى العربية:

[ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء] - أي: اعوجاج الناس في العقيدة- [بأن يقولوا: (لا إله إلا الله)، ويفتح به أعينا عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوبا غلفاً][2]فهو سبحانه الفتّاح الذي فتح القلوب والأبصار والآذان بواسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، كما أشار إلى ذلك قوله: [ويفتح به].

ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار كان مما قاله لهم ممتنّاً عليهم:

[يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلّالاً **فهداكم الله بي**، وكنتم متفرقين **فألّفكم الله بي**، وعالة **فأغناكم الله بي**] -وذلك بالغنائم التي غنموها عند حروبهم مع المشركين- [كلما قال شيئاً قالوا: (الله ورسوله أَمَنُّ)] [3] أي: (المِنّة والفضل لله ورسوله علينا).

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب العلم
[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب البيوع
[3]صحيح البخاري كتاب المغازي وصحيح مسلم كتاب الزكاة

وتدبَّر في قوله صلى الله عليه وسلم: [**بي**].. فهو صلى الله عليه وسلم واسطة الهدي الإلهي، وواسطة الرحمة الإلهية للعالمين، وهو واسطة النور للعالمين في كل العالمين، وهو واسطة الخير والسرور والنعيم إلى أهل الجنة كلهم، ولذلك فهو صلى الله عليه وسلم صاحب مقام الوسيلة في كل العوالم.. حتى في الجنة، ولذلك فإن كل خير يصل إلى واحد من أهل الجنة إنما هو بواسطته صلى الله عليه وسلم.

وهناك أسلاك نورانية ممتدة من مقام الوسيلة العالي إلى جميع قصور أهل الجنة على حسب مراتبهم.

فالشمس المحمدية هي شمس العوالم الكلية.

وإن الشمس الفلكية المعروفة لا تعتبر شيئاً بالنسبة لنور المؤمن، فما الظن إذاً بقوة نور الشمس المحمدية صلى الله عليه وسلم؟!

وإذا أردت أن تعرف شيئاً عن قوة نور الإيمان ونور المؤمن في الجنة فانظر إلى ما أَخْرَجَهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عِكْرِمَةَ أنه قال: (لَوْ جُعِلَ نُورُ جَمِيعِ الْخَلْقِ فِي عَيْنَيْ عَبْدٍ ثُمَّ كُشِفَ عَنِ الشَّمْسِ سِتْرٌ وَاحِدٌ وَدُونُهَا سَبْعُونَ سِتْرًا مَا قَدَرَ عَلَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا، وَنُورُ الشَّمْسِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جزءاً مِنْ نُورِ الْكُرْسِيِّ، وَنُورُ الْكُرْسِيِّ جُزْءٌ مِنْ سبعين جزءاً مِنْ نُورِ الْعَرْشِ، وَنُورُ الْعَرْشِ جُزْءٌ مِنْ سبعين جزءاً مِنْ نُورِ السِّتْرِ)[1] أي الحجاب الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: [حِجَابُهُ النُّورُ] [2]

فانظر أيها العاقل ما أشد قوة بصر المؤمن في الجنة حيث يتجلى الله سبحانه عليه فيراه عِياناً بلا حجاب!

فهذه الشمس الفلكية تستمد نورها من عالم الكرسي وهكذا ..، أما الشمس المحمدية فتستمد نورها من إفاضات رب العالمين جل وعلا.

---

[1] انظر (فتح الباري) ٤٢٥/١٣

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وإذا كانت الشمس الفلكية تسجد تحت العرش وتستأذن في الشروق دوماً، ويوشك أن يأتي عليها يوم تستأذن فيه فيقال لها: [ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا][1] فإن الشمس المحمدية صلى الله عليه وسلم مقبولة لا تُرَدُّ، قال صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة:

[فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ، يُلْهِمُنِيهِ اللَّهُ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ لِي:

يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ][2].

صلى الله عليه وسلم أبداً أبداً، وجزى الله تعالى جناب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عنا ما هو أهله.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

عالَم الملائكة

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

إن عالم الملائكة هو مِن عالم الأمر الذي لا تركيب فيه، ولا مادة كثيفة، ولا مدة زمنية -بخلاف عالم الإنسان فهو من عالم الشُّهود الذي خلقه الله تعالى من مادة كثيفة في مدة زمنية محددة-.

والملائكة هم: أرواح عُلْوية قائمة في أشباح -أي: أجسام نورانية- أعطاهم الله تعالى قدرة التشكل بأمثلة مختلفة من عالم المثال؛ على حسب المناسبات والأوامر التي أمرهم الله تعالى بها.

ولقد كيّف الله تعالى الملائكة بكيفية التعبّد، فهم يعبدون الله تعالى كَلَفاً بغير تكلف ولا مشقة، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾،

وقال سبحانه: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ أي: فهم أَمْرِيّون لا يفعلون إلا ما يؤمرون به، أما الإنسان فهو مكلف وله اختيار أن يفعل أو لا يفعل، وعلى ذلك يترتب الجزاء والثواب، وأما الملائكة فهم أَمْرِيّون مُكَيَّفون، ولا يقال عنهم: (إنهم مجبورون).

وإن أشبه ما يكون بهم: حال أهل الجنة -جعلنا الله منهم بشفاعة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام- فإن أهل الجنة يُنشئهم الله تعالى نشأة باقية يكيّفهم فيها على عبادته دون تكلف أو مشقة عليهم، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: [يُلهَمون التسبيح والتحميد كما تُلهَمون النفس][1].

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

وفي رواية: [يُلْهَمون فيها التسبيح والتكبير][1].

فكما لا يجد الإنسان في حياته الدنيوية مشقة في تنفّسه -وعليه تتوقف حياته الدنيوية- فكذلك أهل الجنة يجري التسبيح والتحميد والتقديس لله تعالى على ألسنتهم دون تعب ولا مشقة، ويعبدون الله تعالى ويجدون في ذلك نعيمهم وريحانهم، وعلى هذا خَلَق الله تعالى الملائكة، ولهذا قال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: لا يعتريهم حسور ولا تعب ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: لا يتعبون، ولا يسأمون، ولا يملّون من ذِكر الله تعالى .

ولقد شرّف الله تعالى الملائكة بعبادته: بصلوات له وتسبيح وتهليل، وشرّفهم بشهادة أن: [لا إله إلا الله] وبشهادة أن [محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم]، وشرّفهم بذِكره سبحانه، وبالصلاة على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي هذا يقول سبحانه عن الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: يقومون للصلاة صفوفاً متراصة مستوية؛ كما بيّن صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: [فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدْ الْمَاءَ] وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى[2]...

وفي رواية النسائي: [وَأُوتِيتُ هَؤُلاءِ الآيَاتِ آخِرَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنْهُ قَبْلِي، وَلا يُعْطَى مِنْهُ أَحَدٌ بَعْدِي][3].

---

[1] طرف حديث في مسند عبد بن حميد

[2] صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة

[3] طرف حديث في السنن الكبرى للنسائي كتاب فضائل القرآن

وقال صلى الله عليه وسلم للصحابة الكرام رضي الله عنهم:

[أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟

فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟

قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ][1] أي: وهذا من خصائص الأمة المحمدية التي خصّها الله وكرّمها بها، فالمؤمنون المُتَّبِعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يتشبهون بالملائكة لِما بينهم من المشابهة والمناسبة.

والملائكة يعبدون الله تعالى بتلاوة القرآن الكريم؛ كما قال سبحانه:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١﴾ أي: للصلاة .

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾.

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ .

يعني: أن الله تعالى كتب القرآن الكريم في صحف الملائكة، يتلونه تقرّباً به إلى الله تعالى، وكلّ منهم له حظه ونصيبه من القرآن الكريم، وقد سمّاهم الله تعالى ﴿سَفَرَة﴾ لأنهم رسل بين الله تعالى وبين خلقه.

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم: [الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البَرَرَة، والذي يقرأ القرآن ويُتَعْتِعُ فيه وهو عليه شاقٌّ : له أجران][2]أي: أجر التلاوة وأجر المشقة، أما ذاك الذي يقرؤه بمهارة ويسر وسهولة فهو مع الملائكة السفرة الكرام البررة.

---

[1] صحيح مسلم كتاب الصلاة

[2] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

وأما صلاة الملائكة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد شرّفهم الله تعالى بها وأخبر عن ذلك بقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ .

وكذلك فإن الملائكة أهْلُ شهادة: (أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وذكر سبحانه ذلك عنهم في مقام التشريف فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

وقال سبحانه عن شهادة (أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم): ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ أي: والملائكة يشهدون بما أنزل الله إليك يا محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب والحكمة؛ كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ والحكمة هي: السُّنة المُطَهَّرَة المشتملة على أقواله وأفعاله وتقريراته صلى الله عليه وسلم، وكلها عن وحي من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾- أي: من الكتاب والحكمة- ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ أي: أنزل ما أوحى إليك من الكتاب والسنة بعلمه سبحانه بما فيه مصالح العباد وسعادتهم في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه يعلم ما يُصلح ويُسعد الإنس والجن ويصلح أمور جميع العوالم .. فأنزل الكتاب والسُّنة -أي: الشريعة المحمدية- أنزل ذلك بعلْمه بما يُصلح أمر العباد والبلاد.

وإن التشريع لا يكون صحيحاً صالحاً مُسعداً للإنسان إلا إذا صدر ممن خلق الإنسان ويعلم ما أودع فيه، ويعلم ما يصلحه وما يفسده وما يسعده ويشقيه، فجاء التشريع الإلهي مصلحاً مسعداً للإنس والجن، وفي هذا قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ .

ومن وجه آخر فإن قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ يعني: بعلمه بما نزل مما يصلح العالم، وبعلمه بالنازل الذي نزل به، وأنه جبريل عليه السلام الروح الأمين على وحي الله تعالى، وبعلمه سبحانه بالمنزل النازل عليه، وهو قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو تعالى يعلم أنه لا يليق بهذه الشريعة والسنة المحمدية إلا سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ أي : أن سبحانه يعلم بمن تليق به النبوة والرسالة، وليست القضية فوضى وعبثاً، بل هي تتطلب إعداداً وإمداداً من الله تعالى لمن تليق به النبوة والرسالة، وهو سبحانه يعلم أنه لا يليق لختم النبوات والرسالات إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أعدّه من آزال الآزال وهيّأه لذلك وأمدّه لتقبُّل ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٤٠﴾.

وقد قَرَنَ سبحانه شهادة الملائكة بشهادته تشريفاً لهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾، وذكر سبحانه الملائكة أولاً لأنهم عليهم السلام أسْبق في الوجود على أولي العلم من أهل التكليف.

والمراد بـ ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾ في الآية الكريمة: العلم النافع الذي يورث الخشية من الله تعالى، وهو العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ العلم المقرون بالعمل.

واعلم أن بين الملائكة وأولي العلم مناسبة باعتبار أن الملائكة أطهار أزكياء، وكذلك العلماء العاملون، كما أن الملائكة أخيار يدلّون الناس على الخير، ولا يصدر منهم شرّ، وكذلك أولو العلم يحملون شريعة الله تعالى ويبلغونها الناس.

ونسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح. آمين

روى ابن ماجه والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول:

[الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذِكر الله، وما والاه] - أي: من والى ولازم ذِكر الله- [أو عالماً، أو متعلماً] [1].

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم:

[مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ.

إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ] [2] .

وجاء في سنن الترمذي قوله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام:

[إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ][3] وإن أول معلم للناس الخير هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكل من أخذ عنه وعلّم يناله حظّ من صلاة الله وملائكته وخلقه على حسب صدقه وإخلاصه.

وفي الحديث الذي رواه الأصبهاني والبيهقي واللفظ له عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[يُبعَثُ العالم والعابد؛ فيقال للعابد: ادخل الجنة.

ويقال للعالم: اثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم][4].

---

[1] في سننهما في كتاب الزهد
[2] سنن الترمذي كتاب العلم
[3] في كتاب العلم
[4] انظر شعب الإيمان للبيهقي

وقال سبحانه في بيان فضل أولي العلم: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ -أي: يرفعهم رفعاً عاماً- ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ أي يرفعهم درجات فوق غيرهم.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

مِن وظائف الملائكة عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

كلمة (المَلَك) -بفتح الميم واللام- مشتقة من (الألوكة) وهي الرسالة والوساطة، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ الآية؛ أي: رسلاً إلى الخَلق، فهم وسائط بين الحق والخلق يرسلهم الله تعالى لتنفيذ أوامره في خلقه وفي بيان الشريعة وإنزال الكتب -كما هي وظيفة سيدنا جبريل عليه السلام- فهناك الملائكة المُوَكَّلون في أمر البحار، والملائكة الموكلون في الأشجار، والملائكة الموكلون في تسيير الرياح، والملائكة الموكلون في إنزال المطر وهكذا ..

وهناك الملائكة الموكلون بتدبير أمر المولود من صلب أبيه إلى رحم أمه حتى ينشأ وينمو ويستعد لتقبّل الروح، فيرسل اللهُ ملَكاً وينفخ فيه الروح الإنساني فيحيا جسمه .. وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: [ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ][1] فالإرسال هنا يقتضي التنفيذ، فيرسلهم سبحانه لتنفيذ أوامره وتدابيره في خلقه.

---

[1] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٣٤٤١

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي : فهناك الملائكة أولي الأجنحة الكثيرة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بالسند الجيد القوي، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: [رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدَّ الأفق...][1].

[1] طرف حديث في المسند ٣٥٦١

الملائكة المُوَكَّلون في أمر الجنين

جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم:

[إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ؛ ذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا يَشَاءُ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ؛ أَجَلُهُ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا يَشَاءُ وَيَكْتُبُهُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ؛ رِزْقُهُ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا يَشَاءُ، فَيَأْخُذُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ فَلَا يُزَادُ فِي أَمْرٍ وَلَا يُنْقَصُ][1].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ:

[حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ:

إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ.

فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا.

وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا][2].

---

[1] صحيح ابن حبان كتاب بدء الخلق واللفظ له وأصله في صحيح مسلم كتاب القدر

[2] صحيح مسلم كتاب القدر

الملائكة المُوَكَّلون بكتابة أعمال الإنسان

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

فالإنسان هو المُمْلي، والملكان الموكَّلان به يستمْلِيان فيكتبان ما يصدر عنه من قول أو فعل، وهذا حتى ينتبه الإنسان ماذا يملي على الملائكة الكرام الكاتبين فيأخذ حذره ويستحيي من فعلٍ أو قولٍ ما لا يرضاه الله تعالى.

ولو قيل لك: (إن فلاناً يكتب ما تقول) فإنك تروح تحاسب نفسك على كل كلمة تصدر منك، وتفكر فيها قبل أن يطلقها لسانك لأنك تعلم أن ما يُكتب عنك سيُقرأ على الناس؛ فإما يمدحونك ويُثْنون عليك، وإما غير ذلك .. فكيف بك إذا علمت أن الملائكة يكتبون عليك كل صغيرة و كبيرة، وسوف تقرأ كتابك هذا يوم القيامة على الملأ كلهم ويقال لك كما أخبر سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾؟!

ومَن خلط في أفعاله أو أقواله وأراد أن يتدارك أمره فعليه أن يمحو ما كُتب عنه -وذلك بالتوبة والاستغفار-.

ومَن تاب إلى الله تعالى محا الله آثار ذنْبه من صحيفته ومِن حافظة الملائكة ومن الأرض المحيطة به ومن كل ما شاهده، قال تعالى : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ فتُمحى السيئة من كتاب أعمالك ويُكتب مكانها حسنة -وذلك لأن التوبة هي بذاتها من أكبر الحسنات- فتمحى السيئة ويحل مكانها حسنة.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ أي: بالبعث والجزاء والحساب.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ - أي ﴿وَ﴾ الحال: ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ وهم الملائكة الكرام الحافظون يكتبون أعمالكم وأقوالكم، وهم أمَناء ثقات لا يزيدون ولا ينقصون من كتابتهم عليكم شيئاً، وسوف تُنشر صحيفتكم يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾، ويقال لكل إنسان: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ الذي صنعْتَه وألّفتَه في الدنيا وقد جمعه وأحصاه عليك كرام ثِقات عدول -وهم الملائكة الحافظون- ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾.

وهناك الملائكة الذين يرسلهم الله تعالى للبحث عن العابدين والذاكرين الله تعالى والمصلّين على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لكي يرفعوا أعمالهم إلى الله تعالى وتُسَجَّل في الديوان الأكبر ويباهي الله بهم ملائكة السموات.. وهكذا.. فمن ذلك ما جاء في الحديث الشريف:

[يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ؛ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟] -أي: المؤمنين المصلّين؟- [فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ] [1].

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾،

وجاء في الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى:

[يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ] [2]

وذلك بواسطة الملائكة المُوَكَّلين بذلك كما تقدم.

---

[1] صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

ومِن حكَم رفع الأعمال الصالحة إلى الله تعالى: أنها تشفع بصاحبها عند الله تعالى في الدنيا قبْل الآخرة؛ ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم:

[إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ: التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّحْمِيدَ؛ يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا.

أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ -أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ- مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟][1]

وتُرفع الأعمال إلى الله تعالى حتى توضع لها الأجور المقابلة لها وتثبت في ديوان عليين، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ وهم الملأ الأعلى مِن حملة العرش ومَن حوله والأرواح العالية..

وإمام وسيد أهل الملأ الأعلى: سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ويبحث أهل الملأ الأعلى في أجور الأعمال الصالحة، وكم من الذّنوب تُكَفّر، وكم من الدرجات ترفع .. ويجري بينهم الجدل حتى يحكم بينهم أحكم الحاكمين جلّ وعلا.

ومَن سُجّل عمله في ديوان عليين فقد ضمن الثبات على الإيمان ودخول الجنة كما لو غُرس له غرسة في الجنة أو بُني له بيت في الجنة؛ لأن ما بُني فله شأن البقاء فلا يُمحى اسمه من عليين ولا يُهدم بيته ولا تُنزع غراسه .. فافهم ذلك ولا تستصغر هذه المعاني.

---

[1] سنن ابن ماجه كتاب الأدب

وفي الحديث لما تجلّى الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد وسأله جل وعلا: [فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟]

وبعد أن تجلّى سبحانه عليه صلى الله عليه وسلم بالعلم والمعرفة والكشف عن المغيّبات قال صلى الله عليه وسلم:

[فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ.

فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ.

قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ.

قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟

قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ]

وفي رواية الإمام أحمد: [يَخْتَصِمُونَ فِي الْكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ].

[قَالَ: مَا هُنَّ؟] -أي: وهن المشهورات المألوفات بين الناس -لأن هناك أعمالاً كثيرة تكفِّر السيئات-.

[قُلْتُ: مَشْيُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ[1]، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكْرُوهَاتِ.

قَالَ: ثُمَّ فِيمَ؟

قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ].

وفي رواية الإمام أحمد: [وَالدَّرَجَاتُ: بَذْلُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ][2].

قَالَ: سَلْ.] - أي: لأن التجلي تجلي قبول وعطاء وإجابة -

---

[1] والجماعات هي: جماعات الذِّكر والتفقه في دين الله تعالى.

[2] المسند ٣٣٠٤

[قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ]. اللهم آمين.

ثم قال صلى الله عليه وسلم بعد أن حدَّث الصحابة بذلك:

[إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا][1].

ومِن حِكَم رفع الأعمال إلى الله تعالى: أن الله تعالى يباهي بعبده الملائكة وينظر سبحانه إليه نظرة الرضا ويغشّيه بالرحمة عاجلاً وآجلاً..

فلا تحسبنَّ أن العمل الصالح ينفع صاحبه في الآخرة فقط، بل ينفعه عمله في الدنيا والبرزخ والآخرة.

ففي الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذِّكر] أي : الذاكرين بنوع من الذِّكر كالصلاة وتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ومذاكرة العلم الشرعي وهكذا ..

[فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هَلُمّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم -وهو أعلم منهم-: ما يقول عبادي؟] -وهو سؤال مباهاة، لا سؤال استفهام واستعلام-

[قال: يقولون: يسبّحونك ويكبّرونك ويحمدونك ويمجّدونك.

قال: فيقول: هل رأوني؟

قال: فيقولون: لا والله ما رأوك.

قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟

قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً وتحميداً، وأكثر لك تسبيحاً.

---

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

قال: يقول: فما يسألوني؟

قال: يقولون: يسألونك الجنة.

قال: يقول: وهل رأوها؟

قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها.

قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟

قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة.

قال: فممّ يتعوذون؟

قال: يقولون: من النار.

قال: يقول: وهل رأوها؟

قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها.

قال: يقول: فكيف لو رأوها؟

قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة.

قال: فيقول: فأُشهدكم أني قد غفرت لهم.

قال: يقول ملَك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة.

قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم][1].

[1] في كتاب الدعوات

مِن صفات جبريل عليه السلام

إن جبريل عليه السلام هو مِن أعظم الملائكة وأشرفهم.. وقد جعله الله تعالى رسولاً بينه جل وعلا وبين رسله وأنبيائه من البشر، فينزل بالكلام الإلهي وبالوحي التشريعي إلى رسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، فهو الذي نزل بالقرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأما غيره من الملائكة فقد ينزلون على الرسل عليهم الصلاة والسلام بتعاليم من الله تعالى وبشائر وأمور غيبية ومواعظ وتذكير وخصائص لبعض الآيات.. وهكذا..

فواسطة نزول الكلام الإلهي هو جبريل عليه السلام، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ويقول جل جلاله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾.

وقد سمّى الله تعالى جبريل عليه السلام بـ ﴿ٱلرُّوح﴾ وذلك لِعِظَمِ روحه الملكية وقوتها؛ فهو روح القُدُس.

و(القُدْس) -بضم الدال وسكونها- في اللغة هي: الطهارة والنماء.

وعلى هذا فمعنى ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ أي: الروح المقدَّسة الطاهرة.

ومن وجه آخر فهو عليه السلام: ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ أي الروح المقدِّسة -بكسر الدال على أنها اسم فاعل- ويكون المعنى: المقدِّسة المطهِّرة النازلة بالشرائع الإلهية التي بها تطهير وتقديس عالم التكليف -وهم الجن والإنس-

فهو عليه السلام ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ أي: الروح الطاهرة التي تنزل بما فيه طهارة لبني الإنسان والجان -وهي الأحكام الشرعية التي أنزلها الله تعالى على رسله عليهم السلام-.

والتقديس يعني: التطهير ، ومنه ما جاء في الحديث الذي رواه الطَّبرانيّ في الكبيرِ وأبو نعيمٍ في الحليةِ عن أبي أُمامةَ رضيَ الله عنهُ عن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قالَ: [إنَّ روحَ القُدسِ نفثَ في روعِي: أنَّ نفساً لن تَمُوتَ حتَّى تستكمِل أجلها وتستوعب رزقها، فاتّقُوا الله وأجمِلوا في الطَّلبِ، ولا يحملنَّ أحدكم استبطاءُ الرزق على أن يطلبهُ بمعصيةِ الله تعالى، فإنَّ الله لا يُنالُ ما عِندَهُ] -أي منَ الرّزقِ النَّافعِ الطَّيِّبِ- [إلا بطاعتِه] .

ويقال عن الجنة: إنها (حظيرة القدس) لأنه لا يدخلها إلا الطاهر المقدّس.. جاء في الحديث القدسي:

[مَنْ تَرَكَ الْخَمْرَ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ لأَسْقِيَنَّهُ مِنْهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدْسِ، وَمَنْ تَرَكَ الْحَرِيرَ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ لأَكْسُوَنَّهُ إِيَّاهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدْسِ][1].

واعلم أن شرائع الله مطهِّرة للإنسان -لا سيّما شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي جاءت تطهِّر الإنسان من الآفات والنقائص والقبائح، وتُحَلّيه وتُجَمِّله بالمكارم والفضائل- وفي هذا يقول سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم﴾ أي: فيما شرع لكم ﴿مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾، ويقول جل وعلا: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾.

[1] انظر مسند البزار، والحديث في مصنف عبد الرزاق ومسند الطيالسي بلفظ: [ولا يتركها وهو عليها قادر ابتغاء مرضاتي إلا سقيته منها فأرويته في حظيرة القدس].

فلقد نزل روح القدس بالروح القرآني على أقدس وأطيب نفس إنساني بأعظم كلام رباني وهو القرآن العظيم؛ نزل به جبريل الأمين من حضرة الملك القدوس على أقدس نفس في العالمين وهي نفس سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى يقدِّس العالم أي: يطهِّرهم مِن دَنَسِ الشبهات في قلوبهم، ومن دنس الشهوات في جوارحهم، ومن دنس الوساوس في عقولهم، ومن دنس النجاسات في أجسامهم وثيابهم، فإذا تطهروا وتقدَّسوا وطابوا وتكمَّلوا صاروا أهلاً لدخول حظيرة القدس وهي جنة الله تعالى الملك القدوس، كما قال تعالى: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

ويقال في اللغة عن الدلو المعروف الذي يُنزح به الماء من البئر يقال عنه: (القادوس) وذلك إذا كان كبيراً يكفي للتطهر به من الحدث الأصغر أو الأكبر، ويكون على هذا معنى القادوس: (الطاهور).

ولقد أثنى الله تعالى على سيدنا جبريل عليه السلام ووصفه بـ: ﴿رُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ لنزاهته وطهارته، وأنه نزل بالقرآن الكريم من حضرة الملك القدوس كما قال تعالى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، وقال عز من قائل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ وفي هذا من المناسبة والحكمة ما فيه .. فلقد ذكر سبحانه أنه الملك القدوس العزيز الحكيم، أنزل القرآن العظيم بواسطة روح القدس عليه السلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه للناس كافة ليبلغهم شريعة الله تعالى ليتطهروا ويطيبوا -كما تقدم-

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو أطهر العالمين وأطيبهم نفساً، ولقد أرسله سبحانه يُزَكي العالمين، فما أعظم زكاة نفسه صلى الله عليه وسلم وقداستها!

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى طهارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وطيبِه بقوله تعالى: ﴿طه ۝١﴾ -فالطاء للطهارة والطيب، والهاء للهداية-، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ ...الآية، وقال عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ أي : نزل به جمْعاً، وقرأه عليك سمْعاً، فهو صلى الله عليه وسلم قرأه كما قرأه عليه جبريل عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ﴾ أي: في قلبك يا رسول الله.

﴿وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧﴾ أي: أن نُقرئك إياه.

﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ﴾ أي: قرأناه عليك بواسطة جبريل عليه السلام.

﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨﴾ أي: قراءته.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ أي: إن علينا أن نبيّن لك معانيه.

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ أي: على قلبك خاصة من بين سائر القلوب، وذلك إشارة إلى قوة القلب المحمدي صلى الله عليه وسلم واستعداده لتلقّي القرآن العظيم بمعانيه وأسراره وأنواره، وأنه لا يمكن لأحد غير سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحمّل ذلك التنزل القرآني لأنه يتطلب إعداداً وإمداداً من الله تعالى لتقبّل ذلك .

وعن قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم استمدت قلوب المؤمنين واستفاضت على حسب قدرها واستعدادها.

الروح القرآني

لقد ذكر سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام في الآية الكريمة بقوله جل وعلا: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فوصفه سبحانه في مقام نزول القرآن الكريم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفه بـ ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ وفي هذا حِكم وأسرار.. منها:

أن جبريل عليه السلام هو أعظم روح مَلَكي، فَحقّ لأعظم روح رباني أن ينزل به أعظم روح ملكي وذلك على أعظم روح إنساني صلى الله عليه وسلم حتى يُحيي به القلوب والأرواح الإنسانية، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي: وهو القرآن العظيم، فوصفه سبحانه بأنه روح تحيا به الأرواح الإنسانية إنْ هي استجابت لدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان من شأن الروح أن تعطي الحياة لكل من نُفِخت فيه أو سَرَت إليه؛ فما هي الحياة التي ينالها الإنسان إذا سرت إلى قلبه الروح القرآني التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

نعم؛ أولاً : هناك الروح الإنساني التي يحيا بها جسم الإنسان، وهي التي يأتي بها الملك وينفخها في الجنين وهو في بطن أمه على تمام أربعة أشهر، فيحيا الجسم بالروح الإنساني ويتحرك وتشعر أمه بذلك.

-ولا يتعارض هذا مع أنه كان يتحرك من قبل ذلك وينبض قلبه؛ فتلك حياة النمو كما هو حال النبات في نموّه وحركته-.

وهذه الروح الإنساني تحتاج إلى روح ثانية تحيا بها حياة الأبد، وهي تدرك الحواس والمدارك الجسمية قوة ونوراً، وهذه الروح هي الروح القرآني النازلة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا ينالها إلا من استجاب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به واتّبعه.. كما قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

وقال سبحانه في الكفار الذين فقدوا هذه الروح القرآني:

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾.

وقال تعالى في المؤمنين الذين سرت روح القرآن إلى قلوبهم وأرواحهم لمّا أجابوا دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ فالمؤمنون هم أحياء على الحقيقة حياة الأبد السعيدة الطيبة -وإن ماتت أجسامهم-، وأما الكافرون فهم أموات على الحقيقة ميتة الأبد -وإن كانت أجسامهم حية بالحياة الإنسانية الدنيوية الحيوانية الشهوانية- ولذلك يتأسف ويتحسّر الكفار يوم القيامة على فقدانهم لتلك الحياة الأبدية الحقيقية كما أخبر سبحانه:

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾

أي: يا ليتني في الدنيا آمنت بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحيا حياة الأبد التي نالها المؤمنون في الآخرة.

واعلم أن القلب هو باب الروح إلى الجسم، وبين القلب والروح تلازم، ولا تُنال الروح القرآني إلا بإجابة دعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. كما قال تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ -أي: لِما يحييكم به، فحياة أرواحكم وقلوبكم لا تُؤخذ إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو صلى الله عليه وسلم واسطة الحياة الأبدية السعيدة لمن أرادها وآمن به صلى الله عليه وسلم.

ولا بد من السعي باختيار الإنسان إلى الفوز بتلك الحياة الأبدية الطيبة، وهذا سرّ قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

وأمّا حياة الجسم: فلم يكن للإنسان اختيار في تقبّلها، بل نفخها الملك في بطن أمه فصار حيّ الجسم.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ أمرٌ بالإسراع لإجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرٌ بعدم التباطؤ والتهاون، وقد حذّر سبحانه من خطر ذلك على الإنسان فقال جل وعلا: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فقد لَفَت سبحانه الفِكر إلى العلم بشيء هام:

وهو أن الإنسان إنْ أعرض عن قبول الحق مرة بعد مرة وجحد وأنكر وأصرّ على الكفر والفسوق والمعاصي فإن الله تعالى يحول بينه وبين قلبه، حتى إنه إن أراد التوبة لم يُجِبْهُ قلبه ولا يمكنه ذلك، بل لا يُوفَّق إليها بسبب إعراضه وكفره، كما قال سبحانه في الكافرين: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: استمروا على الزيغ ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾، وقال جل وعلا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أي: لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة، وقال عَزَّ مِن قائل:

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥﴾.

وعندما يستجيب الإنسان لدعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يجب عليه أن تكون استجابته استجابة اعتقاد بما جاء به صلى الله عليه وسلم، واستجابة قول وعمل واتباع له صلى الله عليه وسلم.

وهو سبحانه يعلم ما في قلب الإنسان ما لا يعلمه الإنسان من نفسه، وهو سبحانه أقرب إلى الإنسان من قلبه.. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ أي: يجعل الإنسان في جانب، ويجعل قلبه في جانب آخر، وفي هذا تحذير للإنسان من التمادي في غفلاته أو الإصرار على ذنوبه.. فليبادر إلى التوبة إلى الله تعالى حتى لا تأتي ساعة لا يطاوعه فيها قلبه -عقوبة له على إصراره وعناده-.

الروح الأمين

لقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بأنه: ﴿ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ وأنه: ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: الأمين على وحي الله تعالى، والأمين على أسرار الله التي أطلعه الله عليها، والأمين على خزائن الله القدسية، فله اطِّلاعات ليست لغيره...

فهو عليه السلام أمين على وحي الله تعالى، فقد نزل بالقرآن على سيد الأنام صلى الله عليه وسلم حافظاً له مؤتمَناً عليه وصائناً له فلا يترك مجالاً لتدخل الشياطين وألاعيبهم.

وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بالأمانة والقوة فقال تعالى:

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ والأمانة صفة قائمة في المؤتَمَن -بفتح التاء والميم-، ولا بد للأمانة من قوة تُمَكِّن المؤتمَن من تنفيذ صفة الأمانة فيه، ولذلك قال تعالى في الخبر عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾، وقال سبحانه مخبراً عن ذلك المقرّب من نبي الله سليمان عليه السلام لمّا سأله إحضار عرش بلقيس: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ -وهو سيدنا جبريل عليه السلام- فهو رسول الله جل جلاله إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

فالملائكة عليهم السلام أصحاب قوة حسية وقوة معنوية ونورانية وروحانية.

ولسيدنا جبريل من الأجنحة ستمائة جناح كما رآه صلى الله عليه وسلم وأخبر عن ذلك، وأنه يسقط من جناحه -وفي رواية: ينتثر من ريشه- التهاويل[1] والدّرّ والياقوت- وجناحه يملأ ما بين السماء والأرض .

قال صلى الله عليه وسلم: [رَأَيْتُ جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ يَنْتَثِرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ][2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِن التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ][3].

ولقد حمل عليه السلام بريشة واحدة من جناحه خمس مدائن من مدائن قوم لوط عليه السلام وقَلَبَها على عقِبها، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

وهو عليه السلام صاح في ثمود -وهم قوم نبي الله صالح عليه السلام-صاح فيهم صيحة واحدة فارتجفت الأرض من تحتهم، وهلكوا كلهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وقال سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

---

[1] قال سيدنا الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه في كتابه (الإيمان بالملائكة): التهاويل: جمع تهويل، وهو ما يهول الناظر ويدهشه بجماله وبداعة محاسنه، ويقال للرياض ذات الزهور المختلفة الألوان: التهاويل، والمراد هنا من تهاويل جبريل عليه السلام: مبدعات جماله التي جمّله الله تعالى بها، ودرّ أنواره التي حلاّه الله تعالى بها.

[2] مسند الإمام أحمد ٤١٦٤

[3] مسند الإمام أحمد ٣٥٦١

ولما رجع موسى عليه الصلاة والسلام من الميقات وأمر بني إسرائيل أن يعملوا بالتوراة كما أمرهم الله تعالى بذلك -قال جل وعلا: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ أي: اعملوا بما فيه بجدٍّ ما استطعتم؛ امتثالاً بالأوامر وانتهاءً عن المناهي- تكاسل بنو إسرائيل وتقاعسوا فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يجمع بني إسرائيل ففعل، وأمر سبحانه جبريل عليه السلام أن يرفع فوقهم جبل الطور ليحذّرهم ويخوّفهم من عواقب أفعالهم، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ فسجدوا لله جميعاً خائفين وأعينهم تنظر إلى الجبل من الخوف والرعب الذي أصابهم.

فلما أعطوا العهد لموسى عليه السلام أعاد جبريل الجبل إلى مكانه، ثم بعد ذلك نقضوا العهد وكان ما كان منهم .. ومنهم مَن وفى بعهده.

وقد ذكر سبحانه هذه الوقائع -التي جرت مع الأمم السابقة- ذكرها في القرآن الكريم يذكّر بها كفار قريش وغيرهم -وهذه الوقائع كانت معروفة عندهم، نقلها المؤرخون وسطروها- فذكّرهم سبحانه بها وذكّرهم بقدرته جل وعلا، وذَكَر لهم عاقبة المنكرين من كل أمة وما نزل بهم ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥﴾ أي : هل من متذكر ومعتبر يعتبر بعقوبات رب العالمين ؟!

وقد يقال: لِمَ لا يقع في هذه الأمّة عقوبة عامة كما حصل للأمم السابقة لمّا كفرت وأنكرت؟

فيقال: لقد حفظ الله تعالى الأمة المحمدية من عذاب عام يستأصلهم وذلك كرامة لرسولهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن قد تحلّ بهم عقوبات جزئية في بعض بقاع الأرض كما هو معلوم... مِن زلازل وفيضانات وخسوفات وأعاصير وغير ذلك، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾.

قوله تعالى في وصف جبريل عليه السلام:

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: له مكانة ومنزلة عند ربّ العالمين جل وعلا.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: هناك مِن الملائكة مَن أمرهم الله عز وجل بطاعة جبريل عليه السلام -وكلُّ شيء بأمر الله جل وعلا- ومِن ذلك: أنه كان إذا نزل بالقرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نزل معه جمع كبير من الملائكة حفاظاً على وحي الله تعالى وإعلاء لشأنه، وحتى لا تتلاعب به الشياطين أو يطّلعوا على ما ليس لهم.

روى الإمام أحمد في مسنده عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [الْبَقَرَةُ سَنَامُ الْقُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا][1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نزلت سورة الأنعام ومعها كوكبة من الملائكة تسدّ ما بين الخافقين، لهم زَجَل بالتسبيح والتقديس، والأرض ترتج] ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم][2].

فلقد بيّن سبحانه أنه أمدّ جبريل عليه السلام بالقوة، قال تعالى:

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ فهناك القوة الحسية الماديّة، وهناك القوة المعنوية في مداركه وسمعه وبصره، فلقد تلقّى القرآن الكريم من حضرة رب العالمين جل وعلا.

---

[1] طرف حديث في المسند ١٩٤١٥

[2] انظر المعجم الأوسط للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي

وعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: [إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عز وجل أَنْ يُوحِيَ بِأَمْرِهِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ أَخَذَتِ السَّمَوَات رَجْفَة -أَوْ قَالَ: رَعْدَة- شَدِيدَة، خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عز وجل فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا، وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّل مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَحْيِهِ مَا أَرَادَ، فَيَمْضِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَى الْمَلائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ يَسْأَلُهُ مَلائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ ؟

فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عز وجل مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ][1] فإذا كان هذا الوحي الإلهي يتعلق بأهل السموات فإن جبريل يأمرهم بتنفيذه، وإلا أنزله إلى عالم الأرض.

وقال جل وعلا: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ أي: تكاد السموات يتشققن لِما يعتريهن من مهابة الوحي الإلهي جل وعلا، ولهذا أعطى الله تعالى جبريل عليه السلام قوة خاصة حتى يتلقى الوحي عنه جل وعلا.

[1] رواه الطبراني والبيهقي وابن جرير وابن خزيمة، وأصله في الصحيحين

ولقد كان بين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبين جبريل عليه السلام إخاء وصفاء وودّ ومحبة واشتياق.

أخرج عبد بن حُمَيد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال:

أبطأ جبريل النزول على النبي ﷺ أربعين يوماً -وفي رواية: اثنتي عشرة ليلةً- ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: [ما نزلتَ حتى اشتقتُ إليك] فقال له جبريل: (بل أنا كنتُ إليك أشوقَ، ولكني مأمور) ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل: أن قلْ له: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾..الآية

وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام:

[مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟

فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾][1].

وروى الطبراني بإسنادٍ حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا فقال: [يا جبريل والذي بعثك بالحقّ ما أمسى لآل محمد سفَّة من دقيقٍ، ولا كفّ من سويق] فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدَّةً من السماء أفزعته فقال ﷺ:

[أمرَ الله تعالى القيامة أن تقوم؟]

فقال جبريل: (لا ولكن أُمر إسرافيل فنزل إليكَ حين سمع كلامك)، فأتاه إسرافيل فقال: (إن الله قد سمع ما ذكرتَ فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك: أسيِّر معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فإن شئت نبياً ملِكاً، وإن شئت نبياً عبداً) -ثلاثاً-

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

قال ﷺ: [فأشار جبريل إِليَّ بيده - أنْ تواضعْ - فعرفتُ أنه - أي جبريل - لي ناصح[1]، فقلتُ: نبياً عبداً، ثم قال ﷺ: فلو أني قلت: [نبياً ملِكاً] لسارت الجبال معي ذهباً].

فكان ﷺ بعدُ لا يأكل متكئاً ، ويقول ﷺ: [آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد][2] -أي: كما يجلس الإنسان الكامل المتذلل لله تعالى، المتواضع لرب العالمين جل جلاله-.

وقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم قوة مقام الملكية لكنه صلى الله عليه وسلم لم يُظهره ولم يعمل به؛ ويدل على ذلك ما جاء في الصحيحين -واللفظ للبخاري- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[إن عفريتاً من الجن تفلّتَ البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ ﴾ [3] ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ فرددته خاسئاً][4] فتركه صلى الله عليه وسلم ولم يعمل بمقام الملكية مراعاة لمقام نبي الله سليمان عليه السلام، كل ذلك يدل على أنه صلى الله عليه وسلم قد أعطي قوة المُلك السليماني -أي: التصرف- لكنه صلى الله عليه وسلم لم يُظهره.

---

[1] أي: لأن الملائكة لا يفعلون إلا ما يؤمرون، فلقد خيّره الله تعالى واختار له.. وذلك لأن مقام العبودية أعلى من مقام الملكية

[2] عزاه في مجمع الزوائد إلى أبي يعلى

[3] أي: لا ينبغي لأحد من بعد سليمان عليه السلام أن يستعمل هذا المُلك أو يظهر به

[4] صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء وصحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة

أما مفاتيح الأرض فهي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال ﷺ في الحديث[1]: [أُتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق] - أي : في لون سواد وبياض- [جاءني به جبريل، عليه قطيفة من سندس][2].

وروى الشيخان وغيرهما عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ:

[إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ[3]، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ -أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ-، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا][4].

---

[1] رواه الإمام أحمد

[2] رواه الإمام أحمد وابن حبان والضياء برجال الصحيح

[3] أي: سابقُكم إلى الحوض؛ أنتظركم

[4] انظر صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب الفضائل ومسند الإمام أحمد ١٦٧٠٥

عالَم الملائكة

الملائكة عليهم السلام هم أرواح عُلْويّة قُدسيّة قائمة في أجساد لطيفة نورانية، أعطاهم الله تعالى قوة التشكل بأشكال مختلفة حسب المناسبات، ولا يتّصفون بذكورة ولا أنوثة، بل هم صنف آخر.

وليس جسم الملك كجسم الآدمي أو الجني، فالإنسان روح قائمة في جسد كثيف طيني ترابي، والجني روح قائمة في جسد ناري، أما الملائكة فهي أرواح قائمة في أجساد نورانية.

وأما تمثّل الملائكة بصور وأشكال مختلفة فيدل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ وهذا دليل على وجود عالم المثال، فلقد تمثل سيدنا جبريل عليه السلام بصورة رجل جاء إلى مريم عليها السلام ليبشرها بسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام.

مِن وظائف الملائكة

قال سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾.. الآية، أي: هم رسل الله في تنفيذ أوامره جل وعلا، وسفراء بين الحق سبحانه وبين الخلق، يدبّرون الأمر بأمر الله تعالى، ويتصرفون بما أمرهم الله تعالى به.

والألوكة في اللغة هي الرسالة، فالملائكة أمريّون لا يتحركون إلا بأمر الله تعالى، ولا يتنزلون إلا بأمر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لجبريل عليه السلام:

[مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟] فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا﴾[1].

ومِن الملائكة: رسل وسُفَراء الله تعالى إلى خلقه؛ فمنهم من يرسله الله تعالى لنفخ الروح الإنسانية في الجنين وهو في بطن أمه، كما في الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ:

حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ:

[إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ]... الحديث[2]

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق وصحيح مسلم كتاب القدر واللفظ له

ومِنهم مَن أمره الله تعالى بكتابة أعمال بني آدم من ذكر أو أنثى، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ فما من إنسان إلا وعليه كَتَبَة يكتبون أقواله وأعماله.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ و(الدِّين) في هذه الآية الكريمة هو الذي أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله: [هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ][1]، فيشمل (الدينُ): الإسلام والإيمان والإحسان، و(الإسلام) يشمل: الأعمال والأقوال، و(الإيمان) يتضمن العقائد الإيمانية الصحيحة، و(الإحسان) يتضمن حال المؤمن مع الله تعالى في عباداته لله تعالى.

وقال تعالى في بيان كتابة الأقوال والأعمال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: يكتب ما يصدر منه، وكلٌّ من الملكين ﴿رَقِيبٌ﴾ لا يغفل عن الإنسان ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر العتاد مستعد للكتابة دوماً، حتى إذا مات الإنسان طُويت صحيفته...

روى البيهقي وغيره عَنْ أَنَس بن مالك رضي الله عنه أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: [وَكَّلَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مَلَكَيْنِ يَكْتُبَانِ عَمَلَهُ، فَإِذَا مَاتَ قَالَ الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ وُكِّلا بِهِ يَكْتُبَانِ عَمَلَهُ: قَدْ مَاتَ، فَتَأْذَنُ لَنَا فَنَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ؟

فَيَقُولُ اللَّهُ تعالى: سَمَائِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَلائِكَتِي يُسَبِّحُونني.

فَيَقُولانِ: أَفَنُقِيمُ فِي الأَرْضِ؟

فَيَقُولُ اللَّهُ: أَرْضِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ خَلْقِي يُسَبِّحُونني.

فَيَقُولانِ: فَأَيْنَ؟

---

[1] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٣٥٢

فَيَقُولُ: قُومَا عَلَى قَبْرِ عَبْدِي فَسَبِّحَانِي، وَاحْمَدَانِي، وَكَبِّرَانِي، وَهَلِّلانِي، وَاكْتُبَا هَذِهِ لِعَبْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][1].

وقوله تعالى في الحديث القدسي: [أَرْضِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ خَلْقِي يُسَبِّحُونِنِي] أي: لأنه ما من شيء -مِن ذرة أو نبات أو حجر أو مدر- إلا يسبّح الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

فقد قام الملكان على قبر المؤمن يسبّحان ويحمدان ويكبّران الله تعالى، ويكتبان ذلك في صحيفة المؤمن، وذلك لأنه مؤمن، ولو عاش كالمعمَّرين -بل لو عاش الدهر كله- لظلّ يعبد الله ويسبّح الله ويحمد الله ويكبّر الله جل جلاله، وليس من نية المؤمن أن ينقطع عن عبادة الله تعالى أو أن يكفر بالله -عياذاً بالله تعالى-.

ومَن نوى الكفر بعد مدة فقد كفر بنيّته قبل أن يدرك تلك المدة.

---

[1] انظر (حلية الأولياء) لأبي نعيم و(شعب الإيمان) للبيهقي و(العظمة) لأبي الشيخ الأصبهاني

الحكمة من كتابة الملائكة لأعمال وأقوال الإنسان

إن الملائكة عليهم السلام يكتبون أعمال وأقوال الإنسان، وذلك لأمور وحِكَم ترجع إلى الإنسان، وليست الكتابة لحاجة الله إليها فهو سبحانه لا يضل ولا ينسى، وعلْمه جل جلاله يحيط بأعمال كل إنسان.

ولما أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون ودعاه إلى الإيمان جرى بينهما مناظرات عديدة؛ كان منها ما أخبر سبحانه عنها بقوله جل وعلا: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾.

فلقد ظهر لفرعون حقيقة جواب موسى عليه السلام، وقد لقّن الله تعالى موسى عليه السلام تلك الحجة في الجواب، فأراد فرعون أن يشاغب في ذلك فراح يسأل موسى عليه السلام عن الأمم السابقة: ما لهم كفروا؟

فكان جواب موسى عليه السلام كما أخبر سبحانه: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ أي: إن الله تعالى عليم بكفرهم وجحودهم بعد علمهم ومعرفتهم للحق، ولا بد أن يجمعهم ليوم القيامة ويحاسبهم ويجازيهم، وقد كتب أعمالهم في كتاب، لا لأنه سبحانه ينسى بل ليقيم الحجة عليهم.

ومِن حِكَم كتابة الأعمال: أنها حُجة على الإنسان يوم القيامة، ولكي يأخذ حذره فلا يملي على الكرام الكاتبين إلا ما يرضاه الله تعالى.

كما أن كتاب الأعمال يُرفع إلى الله سبحانه، ويشهده المقرَّبون ويدْعون لصاحب هذا الكتاب ويثنون عليه، ويباهي الله به ملائكته، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وفي هذا نهضٌ لهمّة المؤمن إلى الأعمال الصالحة لكي ينال الثناء الحسن من المقربين، ويحظى بمباهاة الله تعالى به للمقربين من الملأ الأعلى.

ومن حكمة الكتابة: أنها تَعْذُرُ من نفس الإنسان، فلا عذر له عند الله تعالى[1]، فالملائكة كتبت عنه ما أملاه عليهم، فهو الذي صنف كتابه وجمعه ثم يلقاه يوم القيامة منشوراً ويقال له كما أخبر سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ أي: هذا كتاب أعمالك وأقوالك؛ فحاسب نفسك، فلا أَعْدَلَ من هذا الموقف.

ولما يقرأ الإنسان كتابه ويرى فيه ما يرى يقول سبحانه لعبده كما ورد في حديث البطاقة:

[أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟

أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟] أي: هل زادوا في كتابة شيء من أعمالك؟

أو أهملوا كتابة شيء من حسناتك؟

[فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟

فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ][2]... الحديث

يعني: أن الله تعالى لا يؤاخذ العبد إلا بعد أن يعترف العبد بأن كتابه صحيح مكتوب عليه كما أملاه، وليس له عذر يقدّمه؛ لأن الله تعالى يقبل العذر الصحيح.

---

[1] روى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً] ومعنى: [أَعْذَرَ اللَّهُ] أي: أزال اللهُ عذره فَلم يُبْقِ لهذا الإنسان عُذراً يعْتَذر بِهِ.

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الإيمان

فيرى العبد أعماله مسطورة في كتابه، ويرى أثرها ظاهراً عليه؛ فالأعمال الصالحة لها آثار نورانية، والأعمال السيئة لها آثار ظلمانية تظهر على صاحبها فلا يسعه إنكار ما فعل.

ومَن أخذ كتابه بيمينه فَرِحَ به وانقلب إلى أهله مسروراً وقرأه مستبشراً، ومَن أخذ كتابه بشماله وقرأ ما فيه من المعايب والنقائص أصابه الخزي والهوان.

وأما مَن كان مؤمناً مُخَلّطاً وأراد الله تعالى أن يتلافاه برحمته جل وعلا فإنه سبحانه يقرّره بذنوبه ويستره بستره ولا يفضحه على الملأ، ومِن هذا ما جاء في الصحيحين واللفظ لمسلم أن رجلاً قال لِابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما:

كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟

-أي: مناجاة الله تعالى لعبده المؤمن يوم القيامة- قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ:

[يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ] -أي: ستره وعفوه- [فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟

فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ.

قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ.

فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ.

وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤوسِ الْخَلَائِقِ:

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ][1].

ويجري الحساب في الآخرة على موجب كتاب العبد، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾.

[1] صحيح البخاري كتاب المظالم وصحيح مسلم كتاب التوبة

فلما تجلّى سبحانه بالنور على أرض المحشر لفصل القضاء ظهرت جميع الخفايا والخبايا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ فصار السرّ والعلن على حدّ سواء في الظهور بسبب قوة النور، ومِن شأن النور أن يظهر خبايا الأمور ، وكلما قوي نور الله في قلب المؤمن عَرَفَ اللهَ تعالى، ورأى من نفسه خفايا لم تكن ظاهرة له من قبل فيروح يتوب منها ويستغفر وهكذا ...

ولما يتجلّى الله تعالى على أرض الحساب بالنور وتظهر دقائق الأمور هنالك تعلم كل نفس ما قدّمت وأخّرت، وتعلم كل نفس ما أحضرت، ولا يمكن لنفس أن تنكر شيئاً مما كسبته في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب الإحصاء العام الذي أحصى الله فيه أعمال العباد كلهم، وهو حجة الله على عباده ، وهو الذي ذكره سبحانه بقوله :﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ فهذا الكتاب هو إمام الكتب الإحصائية كلها.

واعلم أن هناك إمامين وأُمَّيْن للكتب، فهناك (أمّ الكتاب): وهو الكتاب الأول الذي كتب الله فيه الأشياء قبل أن يخلقها كما جاء في الحديث: [كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ][1].

ويقال له: (الكتاب الأول)، و(الذِّكر الأول)، و(أمُّ الكتاب).

وهناك كتب قضائية تتفرع عن أم الكتاب، ومنها كتاب خاص بكل إنسان كما في الحديث: [إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ][2]... الحديث

---

[1] صحيح مسلم كتاب القدر

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب القدر

وهناك كتاب الإحصاء العام الذي يحصي على العباد أعمالهم وأقوالهم، وهو حجة الله على عباده كما قال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبَا ٢٩﴾،

فهناك كتاب خاص بكل إنسان تكتبه عليه الملائكة الكرام الحافظون، وجميع هذه النسخ الكتابية تُكتب في كتاب الإحصاء العام الذي قال فيه سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾.

وروى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [تُنسَخ دواوين أهل الأرض في دواوين أهل السماء في كل اثنين وخميس]... الحديث

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾:

هذه الآية الكريمة فيها البشارة لأهل الخير والصلاح، وفيها الإنذار والتهديد لأهل الشرّ والفساد.

ففي هذه الآية يبيّن سبحانه أنه يكتب على كل عبد ما قدّمه في حياته من أعمال وأقوال، ويكتب أيضاً آثار أعماله تلك بعد موته، فمَن عمل عملاً أو تكلم بكلام فيه خير ونصح للآخرين فإن آثار عمله ذلك تُكتب في صحيفته إلى يوم القيامة.

ومَن عمل عملاً فاسداً أو تكلم بكلام فيه الضلال وتأثر الناس به وعملوا به فإن وزر ذلك يكتب في صحيفته إلى يوم القيامة.

يعني: أن كل ما يترتب على عمل الإنسان من آثار فإنه يُكتب في صحيفته في حياته وبعد مماته، فلينظر الإنسان في قوله وعمله قبل أن يقوله أو يعمله، ولينظر في آثار قوله وعمله؛ فإن كان خيراً أقدم عليه، وإلا أمسك عنه.

فمن مشى برجليه إلى المسجد كان لقدميه أثر في الأرض، وإن الله تعالى يكتب العمل -وهو هنا المشي إلى المسجد- ويكتب أيضاً آثار الخطوات إلى المسجد.

ولكل عملٍ أثر، وكذلك لكل قول أثر، ويُكتَب ذلك في صحيفة العامل.

جاء في الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ:

[خَلَتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ] أي: المسجد النبوي الشريف [فَأَرَادَ بَنُو سَلَمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ؟

قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ.

فَقَالَ: يَا بَنِي سَلَمَةَ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ][1] يعني: الزموا دياركم ولا تفارقوها فتكثر خُطاكم إلى المسجد فتكثر أجوركم.

وفي المستدرك: [كان بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنه يكتب آثاركم، ثم قرأ عليهم الآية، فتركوا][2] أي: تركوا الانتقال إلى قرب المسجد النبوي الشريف.

وجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [مَن سَنَّ سُنّة حسنة فإنّ له أجرها وأجر مَن عمل بها مِن غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَن سَنَّ سُنّة سيئة كان عليه وزرها ومثل وزر مَن عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء][3].

وقد يؤثّر العمل في أولاد العامل فيعملون به، فيكون ذلك في صحيفة أبيهم؛ إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.. وهكذا..

---

[1] صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة

[2] في كتاب التفسير

[3] رواه ابن خزيمة في صحيحه واللفظ له وهو في صحيح مسلم في كتاب الزكاة

قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهم الذين استشهدهم الله على خلقه، وليس المراد من الشهداء في الآية شهداء المرتبة والمقام، بل هم شهداء الله على خلقه -ومنهم الملائكة والأرض والجوارح-

وكلُّ مَن شاهدك فهو شاهد لك أو عليك يوم القيامة، قال الله تعالى في صفة الأرض: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾.

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:[قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾

قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟

قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا.

قَالَ: فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا][1].

وإن الله تعالى تقبَّل شهادة المؤمنين في بعضهم، ففي الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال:

[أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ.

فَقُلْنَا: وَثَلَاثَةٌ؟

قَالَ: وَثَلَاثَةٌ.

فَقُلْنَا: وَاثْنَانِ؟

قَالَ: وَاثْنَانِ.

ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الْوَاحِدِ].[2]

---

[1] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، واللفظ له، ومسند الإمام أحمد ٨٥١٢

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجنائز

وفي سنن النسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[الْمَلَائِكَةُ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ، وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ][1].

ومِن الملائكة مَن يرسلهم الله تعالى إلى قبر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فيحفّونه ويصلّون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتبرّكون ويتشرفون[2].

ومنهم مَن أرسله الله تعالى ليقوم عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوات المصلّين عليه -وإن كانت صلوات المُصَلِّين عليه صلى الله عليه وسلم تبلغه صلى الله عليه وسلم بنورها فوراً- لكن هذا الملك الموكَّل يرفع صوته بالتبليغ حتى يسمعه أهل السماء والأرض.. وفي هذا من الثناء الحسن ما فيه، وفيه الإعلام بفضل فلان المصلي على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

جاء في الحديث الذي أصله في المسند والرواية للطبراني عن أبي طلحة رضي الله عنه قال:

[دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَسَارِيرُ وَجْهِهِ تَبْرُقُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا رَأَيْتُكَ أَطْيَبَ نَفْسًا وَلا أَظْهَرَ بِشْرًا مِنْكَ فِي يَوْمِكَ هَذَا ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وَمَا لِي لا تَطَيبُ نَفْسِي وَلا يَظْهَرُ بِشْرِي؟! وَإِنَّمَا فَارَقَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ السَّاعَةَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلاةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَرَفَعَهُ بِهَا عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ مِثْلَ مَا قَالَ لَكَ.

---

[1] في كتاب الجنائز

[2] جاء في مقدمة سنن الدارمي عَنْ نُبَيْهِ بْنِ وَهْبٍ أَنَّ كَعْباً دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنهما فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ كَعْبٌ : (مَا مِنْ يَوْمٍ يَطْلُعُ إِلاَّ نَزَلَ سَبْعُونَ أَلْفاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ حَتَّى يَحُفُّوا بِقَبْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَضْرِبُونَ بِأَجْنِحَتِهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، حَتَّى إِذَا أَمْسَوْا عَرَجُوا وَهَبَطَ مِثْلُهُمْ فَصَنَعُوا مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا انْشَقَّتْ عَنْهُ الأَرْضُ خَرَجَ فِى سَبْعِينَ أَلْفاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَزفُّونَهُ).

قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ وَمَا ذَاكَ الْمَلَكُ؟

قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَ بِكَ مَلَكًا مِنْ لَدُنْ خَلقكَ إِلَى أَنْ يَبْعَثَكَ؛ لا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلا قَالَ: وَأَنْتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ][1].

وفي الحديث: [إِنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بِقَبْرِي مَلَكًا أَعْطَاهُ أَسْمَاعَ الْخَلائِقِ؛ فَلا يُصَلِّي عَلَيَّ أَحَدٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلا أَبْلَغَنِي بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ: هَذَا فُلانُ بْنُ فُلانٍ قَدْ صَلَّى عَلَيْكَ][2].

ومِن هذا تعلم أن صلاة المصلي عليه صلى الله عليه وسلم تبلغه بذاتها وبنورها وبمبلِّغ يبلّغها؛ رفعة لشأنها وتعظيماً لقدرها، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: [حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي][3]، وقال صلى الله عليه وسلم: [من صلى عليّ بلغتني صلاته وصلّيتُ عليه وكُتب له سوى ذلك عشر حسنات][4].

وفي الأثر أن هناك ملائكة تنزل ليلة الجمعة -وفي رواية: مِن عصر يوم الخميس- ومعهم أقلام من ذهب وصحف من فضة يكتبون صلاة مَن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة وذلك اليوم[5] .

وفي الحديث: [مَن صلى عليَّ يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين عاماً][6].

---

[1] انظر المعجم الكبير للطبراني والمسند ١٥٧٦٧

[2] انظر (مسند البزّار)

[3] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٨٤٤٩

[4] انظر المعجم الأوسط للطبراني

[5] قال الشيخ الإمام في كتابه (الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم): قال الإمام السيد جعفر الصادق رضي الله عنه: (إذا كان يوم الخميس عند العصر أهبط الله تعالى ملائكة من السماء إلى الأرض، ومعها صفائح من فضة، وبأيديها أقلام من ذهب، تكتب الصلاة على النبي محمد ﷺ عصر ذلك اليوم، وفي ليلة الجمعة، وفي يوم الجمعة إلى غروب الشمس) .اهـ من كتاب: (الصِّلات والبشر).

[6] انظر مسند الفردوس للديلمي

وزاد الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد):

[فقيل له صلى الله عليه وسلم: كيف الصلاة عليك يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وسلم: تقول: (اللهم صل على محمد عبدك ورسولك النبي الأمي) وتعقد واحدة][1].

[1] ٦٣٦/١٥

تمثّل الملائكة

لقد أعطى الله تعالى الملائكة قوّة التّشكّل أو التّمثّل بأشكال مختلفة حسب المناسبة.

ومن ذلك: أن جبريل عليه السلام كان يتراءى للنبي صلى الله عليه وسلم أحياناً بصورة مَلَكية، وأحياناً يتراءى له بالحقيقة الجبريلية؛ له ستمائة جناح، وبجناح من أجنحته مَلَأَ ما بين السموات والأرض.. كما في الحديث[1]،

وأحياناً يتمثل عليه السلام بصورة رجل يراه الصحابة رضي الله عنهم إما بصورة أعرابي كما في الحديث حيث سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان[2]، وإما بصورة رجل معروف من الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين وهو دحية بن خليفة رضي الله عنه[3]، وكان جميل الصورة حسن السمت، فيراه الصحابة ولكنهم لا يعرفون أنه جبريل عليه السلام إلا بتعريف النبي صلى الله عليه وسلم لهم.

---

[1] روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِن التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ).

[2] انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان

[3] هو الصحابي الجليل المشهور: دِحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي.
أول مشاهده: الخندق، وقيل: أحُد، وكان يُضرب به المثل في حُسن الصورة، أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام.
وقد نزل دمشق وسكن المزّة وعاش إلى خلافة معاوية رضي الله عنهما.
انظر (الإصابة في معرفة الصحابة) ٣٢٩/١ للحافظ ابن حجر، و (سِيَر أعلام النُّبَلاء) ٥٥١/٢

ومن ذلك: ما حصل يوم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة الخندق وعليه غبار السفر فدخل بيت السيدة عائشة رضي الله عنها ووضع السلاح وأراد أن يغتسل، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها:

[فسلَّم علينا رجل من أهل البيت، ونحن في البيت، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعاً فقمت في أثره، فإذا دحية الكلبي، فقال صلى الله عليه وسلم: هذا جبريل يأمرني أن أذهب إلى بني قريظة][1] ومشى جبريل على فرس له ومعه جمْع من الملائكة عليهم السلام على زقاق بني غنم من الأنصار فرآه الصحابة ولم يعرفوا أنه جبريل عليه السلام لأنه بصورة دحية رضي الله عنه حتى أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك[2].

[1] انظر مستدرك الحاكم كتاب المغازي والسرايا

[2] انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦٥/٤ باب مَرْجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب

عالم المثال

هو عالم كبير، مِن أوسع العوالم، خلقه الله تعالى قبل عالم المادة المشهود.

وهو عالم تتمثل فيه جميع الأشياء، بل جميع المعلومات الممكنة الجائزة، ويشمل هذا المعقولات والمعنويات والمباني والجسمانيات والروحانيات.

ومِن ذلك: تَمَثُّلُ الملائكة بصور مختلفة على حسب المناسبات، وتمثل الأرواح الجِنّيّة، وتمثل الأرواح الإنسانية بعد الموت بصور برزخية.

ولقد أجمع العارفون والمحققون من أهل الحديث على إثبات عالم المثال، ولا ينكره إلا جاهل.

وقد ثبت وجوده بالكتاب والسُّنة:

أمّا تمثل المعاني: فمِن ذلك أن تلاوة الإنسان للقرآن الكريم تتمثل بصور نورانية، دل على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[اقْرَؤوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ[1] أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[2] تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا][3].

فتتمثل تلاوة الإنسان للقرآن بصورة شفيع يشفع لقارئه عند الله تعالى، وتتمثل قراءة الإنسان لسورتي البقرة وآل عمران بصورة سحابتين أو مظلتين، أو جماعتين من طير صواف تظلّل من قرأهما؛ تظلّله من حرّ ذلك اليوم.

---

[1] و(الغَياية) تُطلق على كل ما أظل الإنسان. انظر (شرح النووي على مسلم) ٩٠/٦

[2] أي: باسطات أَجْنِحَتهَا مُتَّصِلة بَعْضهَا بِبَعْض. انظر (التيسير) للمناوي ١٩٣/١

[3] في كتاب صلاة المسافرين وقصرها

وروى الإمام أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لَهَا] -يريد آية الكرسي- [لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ][1] فتتمثل قراءة الإنسان لآية الكرسي بصورة نورانية تصعد إلى السماء وتنتهي إلى عرش الرحمن جل جلاله، وتقف عند ساق العرش تقدس ربّ العالمين وتشفع بقارئها عند الله تعالى.

ومن ذلك أيضاً: ما رواه أصحاب السنن واللفظ للترمذي عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ] -أي: في قبره- [حَتَّى غُفِرَ لَهُ وَهِيَ سُورَةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾][2].

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

[يجيء صاحب القرآن[3] يوم القيامة] -والقرآن بصورة شفيع- [فيقول القرآن: (يا رب حَلِّهِ) فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول القرآن: (يا رب زِده) فيلبس حلّة الكرامة] -أي يلبس ثوباً سابغاً كريماً شعارَ أهل الكرامة عند الله تعالى، والحلة تحل على الجسم كله- [ثم يقول القرآن: (يا ربّ ارض عنه) فيرضى عنه، فيقال للقارئ: (اقرأ وارْقَ) ويزداد بكل آية حسنة][4]

فلا يزال يقرأ ويرقى أبد الآبدين، وذلك لأن الصاحب الحق مَن لزمك أبداً.

---

[1] ٢٠٣١٨

[2] انظر سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن وسنن أبي داود كتاب الصلاة وسنن ابن ماجه كتاب الأدب وسنن النسائي الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة

[3] والصاحب يلازم صاحبه ولا يتركه، ويعني هنا: المواظب على تلاوة القرآن حتى صار بينهما صحبة قوية، وذكر الإمام البخاري في صحيحه: باب: هل يزور صاحبه كل يوم مرة، أو بُكرة وعشياً.
وأورد حديث أن الصديق رضي الله عنه كان يزور النبي صلى الله عليه وسلم كل يوم مرتين بُكرة وعشياً -أي: صباحاً ومساءً-.

[4] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[إِن الْمَيِّت إِذا وضع فِي قَبره وإِنَّه يسمع خَفق نعَالهمْ حِين يُوَلُّون مُدبِرين فَإِن كَانَ مُؤمناً كَانَت الصَّلَاة عِنْد رَأسه، وَكَانَ الصّيام عَن يَمِينه، وَكَانَت الزَّكَاة عَن شِمَاله، وَكَانَ فعل الْخيرَات من الصَّدَقَة وَالصَّلَاة وَالْمَعْرُوف وَالْإِحْسَان إِلَى النَّاس عِنْد رجلَيْهِ، فَيُؤتى من قبل رَأسه فَتَقول الصَّلَاة: مَا قِبَلي مَدْخَل، ثمَّ يُؤْتى عَن يَمِينه فَيَقُول الصّيام: ما قِبَلي مدْخل، ثمَّ يُؤْتى عَن يسَاره فَتَقول الزَّكَاة: مَا قِبَلي مدْخل، ثمَّ يُؤْتى من قبل رجلَيْهِ فَيَقُول فعل الْخيرَات من الصَّدَقَة وَالْمَعْرُوف وَالْإِحْسَان إِلَى النَّاس: مَا قِبَلي مدْخل] -وهكذا فالصدقة وأعمال الخير تدافع عن صاحبها وتحيط به من جوانبه وتصونه وتحفظه، فلا مدخل لملائكة العذاب عليه- .

وقد يتساءل إنسان: ما حال الفقير الذي لم تكن الزكاة مفروضة عليه؟

فيقال: طالما أن نيّته أنه لو كان غنياً لأدّى زكاة ماله فإن الله تعالى يؤجره على نيته الصادقة، وهكذا سائر الأعمال.

ودليل صدق النية: تحقيق العمل عندما يستطيعه الإنسان .

قال صلى الله عليه وسلم: [فَيُقَال لَهُ[1]: (اجْلِسْ) فيجلس قد مُثِّلت لَهُ الشَّمْس وَقد دنت للغروب فَيُقَال لَهُ: (أرأيتك هَذَا الَّذِي كَانَ قِبَلَكُمْ مَا تَقول فِيهِ وماذا تشهد عَلَيْهِ؟)] أي: أخبرنا عن هذا الذي بلّغكم رسالة ربكم؛ ماذا تقول فيه، وماذا تشهد عليه؟

وفي رواية: [(مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ)؟][2]

[فَيَقُول: (دَعونِي حَتَّى أُصَلِّي).

---

[1] أي: للميّت

[2] طرف حديث في سنن أبي داود كتاب السنة

فَيَقُولُونَ: (إِنَّك ستفعل، أخبرنَا عَمَّا نَسْأَلك عَنهُ: أرأيتك هَذَا الرجل الَّذِي كَانَ قِبَلَكُمْ مَاذَا تَقول فِيهِ وماذا تشهد عَلَيْهِ؟)

قَالَ: فَيَقُول: (مُحَمَّد؛ أشهد أَنه رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، وَأَنه جَاءَ بِالْحَقِّ من عِنْد الله).

فَيُقَال لَهُ: (على ذَلِك حَييتَ، وعَلى ذَلِك متَّ، وعَلى ذَلِك تُبْعَث إِن شَاءَ الله) ثمَّ يفتح لَهُ بَاب من أَبْوَاب الْجنَّة فَيُقَال لَهُ: (هَذَا مَقْعَدك مِنْهَا، وَمَا أعد الله لَك فِيهَا) فَيَزْدَاد غِبْطَة وسروراً.

ثمَّ يفتح لَهُ بَاب من أَبْوَاب النَّار فَيُقَال لَهُ: (هَذَا مَقْعَدك وَمَا أعد الله لَك فِيهَا لَو عصيته) فَيَزْدَاد غِبْطَة وسروراً.

ثمَّ يُفسح لَهُ فِي قَبره سَبْعُونَ ذِرَاعاً ويُنوَّر لَهُ فِيهِ، ويعاد الْجَسَد كَمَا بَدَأَ مِنْهُ، فتُجعل نسمته فِي النسيم الطّيب وَهِي طير تعلق فِي شجر الْجنَّة، فَذَلِك قَوْله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾[1].

وفي رواية: [ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: (نَمْ) فَيَقُولُ: (أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ) فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ][2].

وليتفكر الإنسان في شدة حاجته لجليس يؤانسه في وقت تخلّى عنه أهله وأصحابه بعد أن دفنوه، ولم يبق معه ويلازمه إلا عمله!

فإن كان عمله صالحاً صانه وآنسه، وإلا كان عليه وَبالاً.

---

[1] قال الحافظ المنذري في (الترغيب): رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له.

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الجنائز

ومن جملة تمثل الأعمال: ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَا الصَّلَاةُ]

-أي: أنا صلاة فلان- [فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ.

فَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَا الصَّدَقَةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ.

ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ.

ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّك عَلَى خَيْرٍ.

ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ] -أي: من عمل بك فإن مآله إلى الخير- [بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي] -أي: أن المحاسبة تكون على دين الإسلام فمن دان به وعمل به كان على خير، ومن لم يَدِن به ويعمل به كان على غير ذلك-

[قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [1].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ: التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّحْمِيدَ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟] [2].

ومعنى: [تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا] أي: تشفع به عند الله تعالى.

---

[1] ٨٣٨٧ وانظر المعجم الكبير للطبراني ومسند أبي يعلي الموصلي

[2] رواه ابن أبي الدنيا وابن ماجه في سننه واللفظ له والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم

وأما تَمَثُّلُ الأعمال السيئة بأمثلة قبيحة وصور ظلمانية:

فقد روى الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [مَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ لِوَقْتِهَا، وَأَسْبَغَ لَهَا وُضُوْءَهَا، وأَتمَّ لَهَا قِيَامَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا: خَرَجَتْ وَهِيَ بَيْضَاءُ مُسْفِرَةٌ] -أي: نَيِّرة- [تَقُولُ: (حَفِظَكَ الله كَمَا حَفِظْتَنِي).

وَمَنْ صَلَّاهَا لِغيْرِ وَقْتِهَا، وَلَمْ يَسْبِغْ لَهَا وُضُوْءَهَا، وَلَمْ يُتِمَّ لَهَا خُشُوعَهَا وَلَا رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا؛ خَرَجَتْ وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ: (ضَيَّعَكَ الله كَمَا ضَيَّعْتَنِي) حَتَّى إِذَا كانَتْ حَيثُ شَاءَ الله لُفَّتْ كَمَا يُلَفُّ الثَّوبُ الخَلَقُ[1] ثُمَّ ضُرِبَ بِهَا وَجْهُهُ].

ومن ذلك أيضاً: تَمَثُّل الأموال التي أدّى صاحبها زكاتها فتظهر له بصورة جميلة نورانية، تشفع به وتدفع عنه العذاب، كما قال صلى الله عليه وسلم: [وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ][2] .

وأما من لم يُؤَدِّ زكاة ماله فقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بقوله:

[مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ[3] لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ[4].

ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾][5].

---

[1] قال المُناوي في فيض القدير ٣٧٦/٢: (بفتح المعجمة واللام أي: البالي).
[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الإيمان
[3] أي: حيّة كبيرة حَلَسَ شعرها لِكِبَرها
[4] والكنز: هو المال الذي لم يُزَكِّه صاحبه
[5] صحيح البخاري كتاب الزكاة

ثم في مرحلة أخرى يُسكَب مالهم -الذي لم يزكّوه- يُسكَب سبائك من نار وتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ويقال لهم كما أخبر عنهم سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾.

تَمَثّلُ الأمور الغيبيّة

روى الإمام أحمد والترمذي واللفظ له عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ:

[خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ:

أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟

فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا.

فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا.

ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا.

فَقَالَ أَصْحَابُهُ: فَفِيمَ الْعَمَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَدِّدُوا وَقَارِبُوا؛ فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا، ثُمَّ قَالَ:

فَرَغَ رَبُّكُمْ مِن الْعِبَادِ؛ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ][1].

[1] سنن الترمذي كتاب القدر والمسند ٦٢٧٥

ولا يلتبسْ على الإنسان فهم ذلك ويزعم أن الأمر مقدَّر ومقضيّ فما فائدة عمله؟!

فيقال في الجواب: لقد أعطى الله تعالى الإنسان اختياراً ومشيئة وإرادة، فيختار ما يريده من الأعمال ويعمله.

وقضاءُ الله وقدره لا يسلب الإنسان اختياره؛ بدليل أن الأمر الذي لا اختيار للإنسان فيه لا مسؤولية ولا مؤاخذة عليه، وأما المسؤولية والمؤاخذة فتكون على الأعمال التي يعملها بإرادته.

ألا ترى إلى المضطر الذي ألجأته الضرورة إلى أكل لحم الخنزير لدفع الهلاك عنه -حيث لم يكن لديه بُدٌّ من أكل غيره- فأباح له الشارع أن يأكل قدر ما يدفع عنه التهلكة، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾.

وأما مَن أكل الحرام باختياره -حيث توفَّرَ له غيره من المآكل- فهو آثم وعليه المؤاخذة.

فقد أثبت سبحانه للإنسان اختياراً وعملاً -وعليهما تترتب المسؤولية والجزاء- فقال عز من قائل للمؤمنين: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾، وقال سبحانه للكافرين: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾، وقال جل وعلا: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾ فأثبت سبحانه لكل فريق عملاً وكسباً.

وأثبت جل جلاله الإرادة بقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾.

وأثبت سبحانه المشيئة بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾.

وكلامُ الله تعالى وخبره هو الحق والحقيقة، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾، وقال سبحانه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ فتعالى الله وتنزَّهَ عما ينسبه إليه الجُهَّال مِن الظلم أو الإخبار عن غير الواقع، بل مَن اعتقد هذا فقد خرج عن الملّة والعياذ بالله تعالى.

فليس قضاء الله وقدره حجة للعبد على ربه، وليس هو حجة لله على عبده، بل إن الله تعالى يؤاخذ الإنسان ويحاسبه على أعماله الاختيارية التي أعطاه الله تعالى أسباب فعلها، فأعطاه الحياة والسمع والبصر والعقل والإرادة والمشيئة والقوة، فأقْدَمَ العبدُ على فعل ما يريده[1] من خير أو شر -باختياره ومشيئته- وعلى ذلك تكون المحاسبة.

ومن جملة عالم المثال: تمثّل الأيام التي تمرّ على الإنسان في الدنيا ويعيش فيها، فتُعرَض الأيام على الإنسان ويراها أمامه كاللوح الذي يلوح فيه ما عمل في أيام حياته الدنيوية.

[1] أي: ما يريده العبد

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال: [تُحْشَرُ الأيام على هيئتها، وتُحشَر الجمعة زهراء منيرة أهلها يحفّون بها] -أي: يزفونها- [كالعروس تُهدى إلى خِدْرها، تضيء لهم، يمشون في ضوئها، ألوانهم كالثلج بياضاً، وريحهم كالمسك، يخوضون في جبال الكافور ينظر إليهم الثَّقَلان، لا يطرقون تعجباً] -أي: مِن حُسن منظر أهل الجمعة- [حتى يدخلوا الجنة، لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون][1]... الحديث

والأيام ظروف -والظرف هو كل ما يحوي مكاناً أو زماناً- فالزمان ظرف يحشره الله تعالى بما ملأه الإنسان من أعمال وأقوال فيرى لها وجوداً مثالياً يمر أمام الإنسان، ويمر عليه يوم الجمعة فيرى فيه صلواته وعبادته وصلاته على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نكثر من الصلاة عليه في يوم الجمعة.

وحقّ لسيد الأنام أن يُكثَر من الصلاة عليه في سيد الأيام، كما قال صلى الله عليه وسلم: [سَيِّدُ الْأَيَّامِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ] [2]

وقال صلى الله عليه وسلم: [أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ][3] فافهم المناسبة.

وعَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

[إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَام، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فَإِنَّ] -أي: لأن- [صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ].

---

[1] قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني وابن خزيمة في صحيحه.
وقال: إسناده حسن، وفي متنه غرابة. اهـ
وعزاه السيوطي في (نور اللمعة) إلى الحاكم وابن خزيمة والبيهقي.
[2] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ١٤٩٩٧
[3] طرف حديث في سنن أبي داود كتاب السنة

وقد أراد الصحابة أن يَعلموا هل ذلك في حياته الدنيوية فقط؟

أم يستمر حكم العرض عليه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم؟

[قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟

-أَيْ: يَقُولُونَ: قَدْ بَلِيتَ-

قَالَ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِم السَّلَام] [1].

أي: فكما تُعرض صلاتكم عليه صلى الله عليه وسلم في حياته الدنيوية كذلك تعرض عليه أيضاً بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، ولا ينقص من ذلك شيء لأنه لم يتغير بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، ويبقى جسمه الشريف -وهو صلى الله عليه وسلم في الحياة البرزخية العالية- كما هو.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال:

[أكثروا من الصلاة عليَّ في يوم الجمعة وليلة الجمعة، فمن فعل ذلك كنتُ له شهيداً وشافعاً يوم القيامة] [2] أي: يشهد لك صلى الله عليه وسلم عند الله أنك مؤمن، ويبدأ ذلك من عالم القبر عند سؤال الملكين .. وما أحوج الإنسان إلى شهادته وشفاعته صلى الله عليه وسلم في جميع العوالم.

وفي الحديث يقول ﷺ: [أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة] [3] أي: فتشهد الملائكة للمؤمن بما يفعله من عبادات وقُربات وتشهد له بأنه أكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ تشهد له بذلك عند الله تعالى.

---

[1] رواه أصحاب السُّنن واللفظ للنسائي

[2] انظر (شُعب الإيمان) للبيهقي

[3] طرف حديث في سنن ابن ماجه كتاب ما جاء في الجنائز

ولما كان يوم الجمعة يوماً أزهر -أي: له النور الباهر- فإن نوره يمتد وينتشر إلى ما بعده وما قبله، أي من عصر يوم الخميس إلى صباح يوم السبت، وفيه يرى الموتى مَن يزورهم، ويخفَّف عن العصاة مِن العذاب، ولكن الناس من عادتهم إذا أَلِفوا أمراً استهانوا به -وهذا من الجهل والغفلة بمكان-

وعلى الناس ألا ينشغلوا -يوم الجمعة خاصة- بالقيل والقال والنُّزَهِ والمَرَح، بل عليهم أن يكثروا مِن طاعة الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتُعرض عليه صلى الله عليه وسلم صلاة المصلي عليه، ويفرح بها، ويصلي على من صلّى عليه، وكفى بذلك كرَماً وشرَفاً للمؤمن المصلي عليه صلى الله عليه وسلم.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

كلمات حول بعض فضائل شهر رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

إن شهر رمضان هو شهر القرآن، وشهر الرحمة والغفران، وشهر الفضل والإحسان، فهو شهر موسم المغفرة والرحمة، وذلك لأن لله تعالى مواسم فيها رحمات وخيرات وبركات ومغفرة ورضوان.

وموسم الشيء -عُرفاً-: هو الوقت الذي يكثر فيه هذا الشيء ويقلّ ثمنه فيستطيع المرء وقتئذ أن يشتري منه الكثير بالثمن القليل، ويدّخر ويخزّن منه ما يشاء، كما هو الحال -مثَلاً- في موسم الجبن والسّمن أيام الربيع فيدفع الإنسان مالاً قليلاً ويحصل به على شيء كثير من الجبن والسّمْن، ويخزّنه لينتفع به طيلة العام.

ومِن هذا المثل المادي لفهم معنى الموسم ينطلق الإنسان إلى فهم معاني مواسم العبادات والطاعة، فمنها: شهر رمضان.. إذ يعمل فيه المؤمن عملاً قليلاً فيضاعِف الله له الأجر أضعافاً كثيرة، ويكفِّر الله عنه ذنوبه إلى رمضان المقبل، بل إذا كان العامل فيه مخلصاً صادقاً كان عمله ذخيرة إيمانية له طيلة عمره، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم:

[ومَن أدّى فريضة فيه كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه][1] فهو موسم لمغفرة الله تعالى ورحمته وعطائه.

---

[1] طرف حديث في صحيح ابن خزيمة وشعب الإيمان للبيهقي

وجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ: مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ] [1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: [إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: (يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ[2]، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ)[3]، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ] [4].

وفي رواية: [ونادى مُنادٍ من السماء كل ليلة إلى انفجار الصبح:

يا باغي الخير يمِّمْ وأبشر، ويا باغي الشر أقصِر وأبصِر.

هل من مستغفر نغفر له؟

هل من تائب نتوب عليه؟

هل من داع نستجيب له؟

هل من سائل نعطيه سؤله؟][5]... الحديث

واعلم أيها المؤمن أن باب المغفرة هو التوبة والاستغفار، فبادر إلى التوبة ولا تقنط من رحمة ربك مهما بلغت ذنوبك.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال:

[لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُم السَّمَاءَ ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ] [6].

---

[1] رواه مسلم في صحيحه كتاب الطهارة واللفظ له والإمام أحمد في مسنده ٨٨٣٠

[2] أي: أقبلْ إلى فعل الخير وأبشر بالقبول والرضا من الله تعالى

[3] أي: كُفَّ عن الشر وتبصَّرْ في عاقبة أمرك قبل أن ينزل بك العذاب

[4] سنن الترمذي كتاب الصوم

[5] انظر شعب الإيمان للبيهقي

[6] سنن ابن ماجه كتاب الزهد

ولا يُغلَق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها أو تزهق روح الإنسان من جسده ويدخل في الغرغرة.

ولقد فتح الله تعالى باب التوبة لعباده -وهو الباب الذي ثبّته رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب من الله فتحه وبقاءه- ففي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:

(قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا، وَنُؤْمِنُ بِكَ) -ولقد أراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن المعجزات ما هو أعظم من ذلك كانشقاق القمر وغيره، لكنهم يريدون المعاندة والمشاغبة -

[قَالَ ﷺ: وَتَفْعَلُونَ؟]

(قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: فَدَعَا ﷺ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: [إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَيَقُولُ: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ] -أي: هذا عقابه لأنه عاند ولم يؤمن، ويكون هذا بمنزلة المعاهدة بينهم وبين رب العالمين فتكون المسؤولية أكبر وأعظم على من نكث ونقض [وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ.

قَالَ ﷺ: بَلْ بَاب التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ][1] أي: لعلهم يتوبون ويؤمنون؛ هم أو أولادهم.

وهكذا فمن تاب إلى الله تعالى دخل في باب رحمة الله جل وعلا.

---

[1] المسند ٢٠٥٨

معنى التوبة

التوبة: أن يُقلع الإنسان عن ذنوبه ويرجع إلى ربه يسأله المغفرة والرحمة، ويتطلب ذلك من التائب أن يندم على ما ارتكبه من ذنوب ومخالفات.

جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه قوله صلى الله عليه وسلم: [النَّدَمُ تَوْبَةٌ][1] والندم هو من أفعال القلب وليس بالكلام؛ وحقيقته: حزن القلب وتحسّره وتأسّفه على فعلٍ، وهذا يقتضي منه أن يعزم على ألّا يعود إلى فعل الذنْب الذي تاب منه، وأن يؤدي الحقوق إلى أهلها إذا كان ذنْبه يتعلق بذلك.

وفي بيان حدّ الندم المطلوب من التائب يقول سبحانه في أولئك الذين اتخذوا مسجداً ضراراً: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾-أي: ندماً على ما فعلوا-.

[1] المسند ٣٣٨٧ وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

أثر التوبة

إن الله تعالى يمحو آثار ذُنوب التائب؛ يمحوها مِن قلبه ومن لوحة نفسه ومن صحيفته، ويُنسي الحفظة عليه يُنسيهم ذنوبه، ويمحو آثارها من الأرض التي فعل التائب عليها الذّنوب، ويجعل الله تعالى في التائب نوراً وأنساً وسكينة -بعدما كان في قلبه ظلمة ووحشة واضطراب- فترى وجه التائب يغدو نيّراً مشرقاً، وخلقه حسناً، وعشرته ليّنة، ومعاملته طيّبة... وهكذا بدّلت التوبة سيئات التائب إلى حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ أي : يبدّل زِناهم إحصاناً، ويبدل كذبهم صدقاً، ويبدل خيانتهم وفاءً، ويبدل غشهم نصحاً، ويبدل الذنْب فيُمحى ويكتب مكانه حسنة -لأن التوبة حسنة كبيرة تحلّ محلّ الذنْب-.

ولا يزعمْ أحد أنه إذا استكثر من السيئات ثم تاب منها أبدله الله بها حسنات!

إذ يقال: إن الله تعالى يبدّل للتائب بَدَلَ سيئاته حسنات، لكن هذا لا يعني أن تتجرأ على معصية الله لتكثر سيئاتك ثم تتوب منها؛ فإن لذلك مخاطر ومحاذر كثيرة، ولكن ما يجب أن تعلمه أن الإنسان إذا عمل الصالحات ضاعف الله له حسناته إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾، أما التائب من ذنبه فإن الله تعالى يبدل ذنْبه حسنة واحدة لا تتضاعف، فافهم، ولا تظنّنّ أن المذنبين التائبين أفضل من المحسنين الذين لم يذنبوا.

التوبة تفتح باب المحبة الإلهية

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ فمن أراد أن ينال محبة الله له فعليه بالتوبة إليه جل جلاله ليصير محِباً لله جل جلاله ومحبوباً إليه جل وعلا.

وإن الله تعالى يفرح بتوبة عبده وإقباله عليه، ففي الحديث عنه ﷺ قال: [لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: (اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ) أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ][1].

وفي رواية: [لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ[2]، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ[3]، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ[4]، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ثُمَّ قَالَ: (أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ)، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ[5] فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ.

فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ][6].

---

[1] صحيح مسلم كتاب التوبة واللفظ له وهو في صحيح البخاري ومسند الإمام أحمد ١٧٦٩٦ بلفظ قريب

[2] أي: فلاة واسعة

[3] أي: ليستريح مِن طول السفر

[4] أي: وعليها طعامه وشرابه

[5] أي: لأنه يئس من الحياة بسبب فقدان الطعام والشراب

[6] صحيح مسلم كتاب التوبة

فإنه لما نام كان نومه إغفاء خفيفاً -لأنه لا يُتصور في حق مثله أن ينام مرتاحاً وهو في حالة غمّ وكرب- فلما استيقظ وجد راحلته وعليها طعامه وشرابه، فبعدما كان مستعداً للموت تركه وأقبل على الحياة من جديد، فراح من فرحه يثني على الله تعالى فأخطأ من شدة الفرح وقال: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك)، والحق أن يقول: (اللهم أنت ربي، وأنا عبدك) أي: رَحِمْتَني فلك الحمد.

فالله أفْرَحُ بتوبة عبده مِن هذا براحلته، وما ذلك كله إلا لأن الله تعالى خلق الإنسان على فطرة التوحيد والإيمان والطيب والنقاء، فإذا أخطأ الإنسان وعصى -بسبب وساوس شيطانه وهوى نفسِه- ثم تاب ورجع إلى الله تعالى فقد رجع إلى أصله الطيب كما قال صلى الله عليه وسلم في بيان موقف المؤمن مع الإيمان وتوبته إلى الله تعالى: [مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ عَلَى آخِيَّتِهِ[1] يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى آخِيَّتِهِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْهُو ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْإِيمَانِ][2]،

فترى الفرس يمشي ويجول حتى إذا انتهى معه الحبل عاد إلى أوله، وهكذا المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الله تعالى، أي: فليكن الإيمان عِقالاً للمؤمن ورِباطاً له يشده إلى التوبة كلما سها وغفل وعصى.

فمهما كان حبل الفرس طويلاً لا بد أن يرجع في النهاية إلى آخِيَّتِهِ، فافهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[إِن الله عز وَجل أفْرحُ بتوبة عَبده الْمُؤمن مِن الضالّ الوَاجِد، وَمن الظمآن الْوَارِد، وَمن الْعَقِيم الْوَالِد.

ومَن تَابَ إِلَى الله تَوْبَة نصُوحًا أنسى الله حافظته وبِقاع أرضه خطاياه وذنُبه][3].

---

[1] وهو الحبل الذي يُربط به الفرس من طرف ويدقّ في الأرض من الطرف الآخر

[2] مسند الإمام أحمد ١٠٩٠٧ وصحيح ابن حبان كتاب الرقائق

[3] رواه الديلمي في مسند الفردوس واللفظ له وابن عساكر في أماليه

مِن فضائل شهر رمضان

جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عن شهر رمضان المبارك:

[واستكثروا فيه من أربع خصال: خَصلتين تُرْضون بهما ربكم، وخصلتين لا غِناء بكم عنهما.

فأما الخصلتان اللتان تُرْضون بهما ربكم: فشهادة أن لا إله إلا الله، وتستغفرونه.

وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما: فتسألون الله الجنة، وتعوذون به من النار][1]فينبغي للمسلم أن يكثر في هذا الشهر من الاستغفار والتهليل، وهذا يجتمع في صيغة واحدة هي: [أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ][2] ففي هذه الصيغة استغفار وتهليل.

والاستغفار يجلو القلوب من ظلمة الذنوب، والتهليل يقوّي الإيمان ويثبته في القلوب.

والاستغفار هو: طلب المغفرة من الله تعالى، والمغفرة هي: ستر الذنب ومَحْوُه، والتوقي من عقوبته.

ويقال عن أداة الحرب -التي يلبسها الإنسان ليتقي بها ضربات السهام والسيوف- يقال عن هذه الأداة: (مِغْفَر).

فعندما يرتكب الإنسان ذنوباً فإنه يعرّض نفسه لعقوبة ربّ العالمين، ولا يقيه من هذه العقوبة إلا أن يستغفر الله تعالى.

فالاستغفار هو مغفر ووقاية يقي اللهُ به المستغفرَ شر ذنوبه.

---

[1] طرف حديث قال عنه الحافظ المنذري في الترغيب: رواه ابن خزيمة في صحيحه ثم قال: (صَحَّ الخبر)، ورواه من طريق البيهقي، ورواه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب باختصار عنهما.

[2] وقد وردت هذه الصيغة في سنن الترمذي في كتاب الدعوات

آثار الذنوب

إن للذنْب أثراً ظلمانياً على القلب، وللذنْب أيضاً أثراً في نفس الإنسان يَظهر بالوحشة النفسانية وضيق الصدر، كما أن الذنْب يؤثر سلباً على رزق الإنسان.

وبالذنْب يبتعد المذنب عن ربه جل جلاله، ويتقرب من الشيطان.

وإن جميع هذه الآثار الظلمانية تنجلي بالاستغفار، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال:

[إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾][1] يعني: أن مَن أصرّ على الذنوب -ولم يتب ويستغفر الله تعالى- يُظلم قلبه شيئاً فشيئاً حتى ينطفئ نور الإيمان فيه، وربما يزول الإيمان من القلب إذا لم يتداركه صاحبه بالتوبة والاستغفار.

ومثال ذلك كالمصباح الزجاجي الذي أصابه الغبار وأثر الدخان -ولم يتعهده صاحبه بالمسح والتطييب- فإنه يتراكم عليه الغبار والسَّواد ويخفت نور المصباح ويضعف حتى لا يظهر أثر نور المصباح، وفي هذا يقول سبحانه في الكافرين:

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

---

[1] سنن ابن ماجه كتاب الزهد، وقال الحافظ المنذري في الترغيب: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه النسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم

وهذا ما وصف الله تعالى به الكفار حتى يحذّر أهل المعاصي من المسلمين مِن خطر المعاصي والذنوب -إن هم أصروا عليها ولم يتوبوا إلى الله تعالى.

فقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ﴾ أي خيَّم وأظلم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي : بسبب ما كانوا يعملون من المنكرات والفواحش حتى أظلمت قلوبهم وحُجبت عن نور الله تعالى، فكان عقابهم في الآخرة مِن جنس عملهم؛ إذ حجبهم الله عن نعيم رؤيته جل وعلا.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال:

[إن للقلوب صَدَأ كصدأ النحاس، وجلاؤها الاستغفار][1].

وبالاستغفار أيضاً تنجلي عيوب النفس التي نشأت عن الذنوب، فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ألا أدلكم على دائكم ودوائكم؟

أَلَا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار][2].

والاستغفار يُرضي الرحمن جل جلاله ويغيظ الشيطان..

روى الإمام أحمد في المسند عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [قال إبليس: وعزّتك لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم.

فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني][3].

---

[1] انظر شُعب الإيمان للبيهقي

[2] قال الحافظ المنذري في الترغيب: رواه البيهقي، وقد روي عن قتادة من قوله، وهو أشبه بالصواب

[3] رواه الإمام أحمد، والحاكم وقال: صحيح الإسناد كما في: (الترغيب)

وعن أَنَس بن مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي: غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي][1].

فبادر أخي المؤمن إلى التوبة والاستغفار من ذنوبك، ولا تغرنك الحياة الدنيا بما فيها، فهي زائلة فانية، ولا تغتر بقوتك وشبابك فتسوّف التوبة فإن الموت يأتي على الشباب أكثر منه على الشيوخ، وهذا أمر مشهود، فانظر في عامة الناس حولك: هل أكثرهم شباب أم شيوخ؟

نعم سترى أكثرهم شباباً، وهذا يدلك على أن الموت لا يتركهم إلى سنّ الشيخوخة، ولو كان كذلك لرأيت أغلب الناس شيوخاً؛ والحال ليست كذلك، فافهم.

وروى البيهقي عن الزُّبَير رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: [مَن أحب أَنْ تسرَّه صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار][2] أي: من أراد أن يقرأ كتابه في الآخرة وهو مسرور به فليكثر من الاستغفار.

وفي الحديث أيضاً: [طُوبى لمن وُجِدَ في صحيفته استغفار كثير] [3] أي: طوبى له حياته وموته ونشره وحشره، وطوبى له منزلته في الجنة، وطوبى له ظلُّ شجرة طوبى التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ لسيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ طُوبَى لِمَنْ رَآكَ وَآمَنَ بِكَ).

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات

[2] ورواه الطبراني في: (الأوسط) ورجاله ثقات كما في: (مجمع الزوائد)

[3] قال الحافظ المنذري: رواه ابن ماجه بإسناد صحيح، والبيهقي.

فقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى] وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك سبع مرات[1] [لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي].

فقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَمَا طُوبَى؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ[2]، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا].

وبالاستغفار تعمر الديار وتطول الأعمار ويُكتب الرزق المِدرار:

وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ .

فقوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ أي: يطيل في أعماركم ويبارك لكم فيها.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: يرسل الخير إليكم.

وقال تعالى مخبراً عن سيدنا هود عليه السلام قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي : بسبب الاستغفار والتوبة.

وقال تعالى مخبراً عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ ...

---

[1] ذكرها الحافظ السيوطي في (الدر المنثور) وعزاها إلى الطيالسي وأحمد والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم

[2] أي: من أعوام الآخرة

وقد فتح الله تعالى لعباده باب التوبة في جميع الأوقات، وفي الليل والنهار، وإنه سبحانه ينادي عباده في شهر رمضان أن يسرعوا إلى التوبة...

جاء في الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ؛ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا][1].

وفي شهر رمضان يتجلى سبحانه كل ليلة مِن أولها إلى طلوع الفجر، أما في باقي ليالي السنة فيتجلى سبحانه وقت السَّحر.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: [وَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ لِمُنَادٍ يُنَادِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ:

هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ سُؤْلَهُ؟

هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟

هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟

مَنْ يُقْرِضُ الْمَلِيءَ غَيْرَ العَدوم؟ وَالْوَفِيَّ غَيْرَ الظَّلُومِ؟][2]

أي: هل منكم مِن أحد يُقرِض اللهَ قرضاً حسناً؟

يعني: يتقدم بعمل صالح فهو بمنزلة القرض، وإن الله تعالى سيضاعفه ويربيه كما قال تعالى: ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾.

وإذا كان الإنسان في الدنيا لا يُقرِض إلا الميسورَ والأمين الصادق في وعده كي يوفيه قرضه فإن الله تعالى غني، لا حَدّ لغناه، وهو سبحانه الوفي فيعطي العبد أضعاف ما قدَّم من عمل صالح.

---

[1] صحيح مسلم كتاب التوبة

[2] طرف حديث قال عنه الحافظ المنذري في (الترغيب): رواه الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب، والبيهقي واللفظ له، وليس في إسناده من أجمِع على ضعفه.

وقل لمن يحب أن يفرح الله به:

بادر إلى التوبة فيفرح الله بتوبتك، كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:

[لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنَ الْعَقِيمِ الْوَالِدِ، وَمِنَ الضَّالِّ الْوَاجِدِ، وَالظَّمْآنِ الْوَارِدِ، فَمَنْ تَابَ لِلَّهِ تَعَالَى تَوْبَةً نَصُوحًا أَنْسَى اللَّهُ حَافِظَيْهِ، وَبِقَاعَ أَرْضِهِ خَطَايَاهُ وَذُنُوبَهُ][1]

وقوله صلى الله عليه وسلم: [حَافِظَيْهِ] -بالتثنية-: هما الملكان الموكَّلان بكتابة أعمال الإنسان.

وقد أمر الله تعالى جميع عباده المؤمنين -على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم في الإيمان- أمرهم أن يتوبوا إلى الله تعالى توبة نصوحاً، وتوبة كل مؤمن على حسبه، ولا أحد يستغني عن التوبة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾﴾، وقال سبحانه : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾فلم يستثن سبحانه أحداً من الأمر بالتوبة.

والتوبة النصوح هي: التوبة الخالصة الصادقة الكاملة التي تشمل جميع الذنوب.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ أي: هم معه صلى الله عليه وسلم؛ فلا يخزيهم الله -كرامة لرسوله صلى الله عليه وسلم-.

﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِمۡ﴾ أي: على الصراط.

---

[1] انظر كتاب (المجالس العشرة) للخلّال وكتاب (التوبة) لابن عساكر

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ أي: حتى نجاوز الصراط؛ لأنهم رأوا أنوار غيرهم قد انطفأت -وهم المنافقون الذين أضاءت لهم كلمة: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم انطفأ النور بهم لأنه لا إيمان في قلوبهم-.

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ فطلبوا المغفرة وهم على الصراط، ولولا أن الدعاء ينفعهم ويجيبهم الله لِما دعوه لَمَا ذكر سبحانه عنهم ذلك، أي: واغفر لنا ذنوباً قد لا نعلمها، فلا تؤاخذنا بها الآن ونحن على الصراط بل أتمم نور إيماننا واستر علينا ما تعلمه منها، إنك على كل شيء قدير.

ولما كان شهر رمضان هو شهر المغفرة: كثّر فيه سبحانه أسباب المغفرة، فهناك الصيام وهناك القيام، ففي الحديث:

[مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ][1]

وفي الحديث: [مَنْ قَامَ رَمَضَانَ] -أي: بصلاة التراويح- [إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ][2].

وفي العشر الأخير من رمضان ليلةُ القدر -أي: ليلة المقدار والفضل- وهي خير من ألف شهر، أي: ليست كألف شهر بل هي خير من ألف شهر .

وقد وافقت ليلةُ نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةَ التقدير التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ فكانت هي ليلة مقدار وفضل وليلة تقدير أيضاً.

وقد توافق ليلةُ التقدير ليلةَ القدر في العشر الأخير من رمضان وقد تكون في ليلة العيد، وقد تكون في ليلة غيرها من ليالي السنة.

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

[2] انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

وقد أكرم الله تعالى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم -نظراً لقِصَر أعمارها بالنسبة للأمم السابقة- أكرمها بأن جعل لها مواسم تعبديّة يضاعف فيها الأجر والثواب، ومن ذلك ليلة القدر: إذ جعل الله تعالى العمل فيها أفضل وأعظم من العمل في ألف شهر، وهذا قوله تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٍ ٣﴾ .

ولكي تعلم مدى هذه الخيرية تفكّر في قوله تعالى:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾، وقوله جل وعلا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾.

وآيات القرآن الكريم يفسّر بعضها بعضاً، والأمر يرجع إلى فضل الله وكرمه جل وعلا.

وروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ][1].

وقيام ليلة القدر لا يعني إحياءها كلها -إذ إن هذا المعنى جاءت به أحاديث ثانية في ليلتي العيدين- ففي الحديث عَنْ أَبِي أَمَامَةَ رضي الله عنه عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:[مَنْ قَامَ لَيْلَتَيِ الْعِيدَيْنِ مُحْتَسِبًا لِلَّهِ لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ][2] فمن قام ليلة القدر في أولها وآخرها وعَبَد اللهَ تعالى وسأله: أعطاه الله فضلاً كبيراً؛ خيراً مِن الذي عمل في ألف شهر، بزيادة تتوقف على إخلاص العبد لربه، وفضلُ الله جلّ وعلا لا حدّ له، ولا مانع لِما يعطي جل وعلا.

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الصوم
[2] سنن ابن ماجه كتاب الصيام

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ أي: تتنزل فيها الملائكة وجبريل عليهم السلام مِن أجل تنفيذ كل أمر أمرهم الله به .. وما هو هذا الأمر؟

قال جل جلاله: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ فيقرؤون السلام على كل مسلم ومسلمة.

جاء في الحديث الذي رواه ابن حبان والبيهقي واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

[إذا كانت ليلة القدر يأمر الله عز وجل جبرائيل عليه السلام فيهبط في كَبْكَبة من الملائكة ومعهم لواء أخضر، فيرْكزون اللواء على ظهر الكعبة، وله مائة جناح؛ منها جناحان لا ينشرهما إلا في تلك الليلة، فينشرهما في تلك الليلة فيجاوزان المشرق إلى المغرب.

فيحثّ جبرائيل عليه السلام الملائكة في هذه الليلة فيسلّمون على كل قائم وقاعد ومصلّ وذاكر ويصافحونهم ويؤمّنون على دعائهم حتى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر ينادي جبرائيل عليه السلام:

معاشر الملائكة الرحيل الرحيل، فيقولون: يا جبرائيل فما صنع الله في حوائج المؤمنين من أمة أحمد صلى الله عليه وسلم؟

فيقول: نظر الله إليهم في هذه الليلة[1] فعفا عنهم وغفر لهم إلا أربعة.

فقلنا: يا رسول الله من هم؟

قال: رجلٌ مدمن خمر، وعاق لوالديه، وقاطع رحم، ومُشاحِن.

قلنا: يا رسول الله ما المشاحن؟

قال: هو المُصارِم.

---

[1] أي: نظر سبحانه إليهم نظرة رحمة وقبول ورضا، واستجاب دعاءهم

فإذا كانت ليلة الفطر سُمِّيت تلك الليلة: ليلة الجائزة، فإذا كانت غداة الفطر بعث الله عز وجل الملائكة في كل بلاد فيهبطون إلى الأرض فيقومون على أفواه السكك[1] فينادون بصوت يسمع مَن خلق اللهُ عز وجل إلا الجن والإنس فيقولون:

يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يعطي الجزيل ويعفو عن العظيم.

فإذا برزوا إلى مصلاهم يقول الله عز وجل للملائكة:

ما جزاء الأجير إذا عمل عمله؟

قال: فتقول الملائكة: إلهنا وسيدنا؛ جزاؤه أن توفيه أجره.

قال: فيقول: فإني أشهدكم يا ملائكتي أني قد جعلت ثوابهم مِن صيامهم شهر رمضان وقيامهم: رضاي ومغفرتي.

ويقول: يا عبادي سَلوني، فوعزتي وجلالي لا تسألونني اليوم شيئاً في جمْعكم لآخرتكم إلا أعطيتكم، ولا لدنياكم إلا نظرت لكم، فوعزتي لأسترنّ عليكم عثراتكم ما راقبتموني، وعزتي وجلالي لا أخزيكم ولا أفضحكم بين أصحاب الحدود، وانصرفوا مغفوراً لكم، قد أرضيتموني ورضيت عنكم.

فتفرح الملائكة وتستبشر بما يعطي الله عز وجل هذه الأمة إذا أفطروا من شهر رمضان].

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] أي: الطُّرُق

محاضرة في علوم القرآن

العِلم بتفاصيل الأكوان

عالم الملائكة

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

لقد أخبر الله تعالى عن أوصاف الملائكة الخَلْقية والعِلمية والتعبدية ، وبيَّن سبحانه أصناف الملائكة ووظائفهم ومراتبهم في كثير من الآيات القرآنية.

ولقد خلق الله تعالى الملائكة مِن نُور كما بيَّن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين، الصدّيقة بنت الصدّيق، حبيبة حبيب الله صلى الله عليه وسلم، المُبَرَّأَة في كتاب الله تعالى، السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ][1] يعني من التراب.

وحيث إن الملائكة خُلقت من نور فهي أجسام لطيفة تسكن في السماوات التي تتناسب مع لطافتها ونشأتها، كما أنها لا تتزاحم ولا تدخل تحت الكَم والمساحة، ولا تحت هذه القيود المادية الجسمانية، وإنما هي عالم لطيف نوراني.

---

[1] في كتاب الزهد والرقائق

وقد أخبر الله سبحانه عن اختلاف استعداد الملائكة في القوة والعلم والمرتبة فقال جل وعلا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾.

وتسمى هذه السورة عند السلف رضي الله عنهم: (سورة الملائكة)[1] لأن فاتحتها تخبر عن مراتب الملائكة واستعداداتهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فقد فطرها سبحانه وجوداً من ظُلمة العدم، فشَقَّ ظلمة العدم الإمكاني واستخرج بنور إيجاده سبحانه استخرج السماوات والأرض، وفطر سبحانه السماوات والأرض على معرفته وتوحيده وتسبيحه جل وعلا، فهي توحِّد الله تعالى وتسبّحه جل وعلا، قال جل جلاله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ ..الآية.

ولما فطر الله سبحانه السماوات والأرض على معرفته خاطبهما بقوله جل جلاله: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ فعرفت السماوات ربها وعرفت الأرض ربها فامتثلت أمره لمَّا أمرها سبحانه.

وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢﴾ أي: أصْغَتْ وأجابت أمر ربها، وحُقَّ لها أن تجيب أمر ربها لأنه ربها تبارك وتعالى ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥﴾ أي استمعت لأمر ربها وأجابت أمره، وحُقّ لها ذلك لأنه سبحانه خالقها وربها، وهي تعرف ذلك.

---

[1] انظر كتاب (الإتقان) للحافظ السيوطي ص ٦٣

قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إشارة إلى تقدُّمِ خلق الملائكة على الإنس والجن.

﴿رُسُلًا﴾ أي وسائط بين الله تعالى وبين خلقه، فمنهم الرسل في تنفيذ أموره التكوينية سبحانه كتصريف الرياح وإنزال الأمطار وتصوير الجنين في رحِم أمه وغير ذلك ...

وهناك الرسل -أي: الوسائط- بين الله تعالى وبين أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، إذ ينزلون على الأنبياء بالشرائع التي أمرهم الله بها، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ فهذا الصنف من الملائكة سفراء بين الله تعالى وبين أنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام، وهذه الآيات موجودة ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: سفراء بين الله تعالى وبين أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ لهم الكرامة عند الله تعالى، وهم بَررة يمتثلون أمر الله تعالى، روى الإمام مسلم عَن السيدة عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ][1].. الحديث.

[1] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

ثم بيَّن سبحانه استعدادات الملائكة واختلاف مراتبهم فقال جل جلاله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ﴾ -فمنهم مَن له جناحان- ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ فهناك بعض الملائكة له الأجنحة الكثيرة، كما روى الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ:

(رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ؛ وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِن التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ).[1]

وإن هذه الأجنحة تدل على اختلاف مرتبة الملائكة وقوتهم واستعداداتهم العلوية، وليست هذه الأجنحة في خصائصها كخصائص أجنحة الطيور للارتفاع والعلو فقط وإنما لها الخصائص العلوية في المرتبة والاستعداد والقوة والعلم والمعرفة بالله تعالى.

وإن جبريل عليه السلام قَلَبَ أربعة مدن من مدائن قوم لوط عليه السلام بريشة واحدة من بعض أجنحته[2]، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾.

---

[1] المسند ٣٥١٦

وقال الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه في كتابه (الإيمان بالملائكة): التهاويل جمع تهويل، وهو ما يهول الناظر ويدهشه بجماله وبداعة محاسنه، ويقال للرياض ذات الزهور المختلفة الألوان: التهاويل، والمراد هنا من تهاويل جبريل عليه السلام: مبدَعات جماله التي جمّله الله تعالى بها، ودرّ أنواره التي حلاّه الله تعالى بها.

[2] انظر تفسير الرازي ٣٧١/٧

واعلم أن جميع تنقلات الملائكة إنما هي عروج وصعود؛ فقد قال الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ والمعنى : دعا داعٍ كافرٌ باستعجال عذاب الله، وهذا ما جاء في الآية: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ والقائل هو أبو جهل[1]، ولو كان عاقلاً لقال: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه) ولكنه بسبب جهله وحماقته دعا باستعجال العذاب.

وعلى هذا فالمعنى: دعا داعٍ كافرٌ بعذاب -أي: باستعجال العذاب- ولكن ويحه فإن هذا العذاب واقع به.

ومن ناحية ثانية قيل في المعنى: سأل سائل عن عذاب واقع، أي سأل الكفار:

"ما بال محمد صلى الله عليه وسلم يخبرنا عن العذاب والآخرة فمتى هذا؟"

-كما قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾-

قال جل وعلا: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾.

وفي قراءة متواترة: ﴿سَالَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ -بالتسهيل- وهي لغة من لغات العرب، والمعنى: سأل سائل.

---

[1] انظر تفسير الخازن ١٨٧/٣

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿سَالَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾: أي من السيلان، والمعنى: سال واد من وديان جهنم بعذاب واقع[1] ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ وهذا يعني أن وجوه العذاب للكافرين مجتمعة كلها في نار جهنم ، ولكن سال سيل من هذا العذاب إلى عالم الدنيا ولَحِق بالكفار؛ ولذلك تراهم دائماً في شقاء وعناء وتعب إلى أن يصيروا إلى نار جهنم في الآخرة ويذوقوا أنواع العذاب.

كما أن المؤمنين في الدنيا يَحْيَون في نعيم تلذّ به أرواحهم في عباداتهم وصلواتهم حتى يصيروا إلى نعيم الجنة بألوانه، وفي هذا يقول سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾ يعني الآن

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ يعني الآن، أما الصِلِيُّ والانغماس الكلي في عذاب جهنم فهذا يكون يوم القيامة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾ .. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾أي الآن؛ فهم الآن في الدنيا مُحاطون بسرادق من سرادقات جهنم، وهم في عذاب وشقاء وعناء، ولكنهم في صورة متنعمين لأن سكرة الدنيا سيطرت على إحساساتهم فإذا استيقظوا من سكرتهم -بالموت- عرفوا أنهم كانوا في عناء وشقاء وأنهم صاروا إلى ما هو أفظع وأقوى، قال جل جلاله: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾.

[1] انظر ما ذكره الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي المتوفى سنة: ٨٧٥ هـ في كتابه (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) عند كلامه حول هذه الآية الكريمة

وتفكَّرْ في قول الله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ وأنت تعلم أن السكران يشعر أنه في نعيم ولذة وربما ضربَتْه الأولاد وأدمت رأسه وأصابته الأحجار وهو لا يشعر بذلك كله، ولكنه -حين تزول عنه السكرة ويعود إلى رشده- يرى الدم ويحس بالآلام التي أصابته حال سكرته، وهذا شأن أهل الدنيا الذين يشقون في جمع الأموال لكنهم لا يشعرون بالتعب والألم بل إن سكرة الدنيا غطّت على ذلك كله حتى إذا ماتوا انتبهوا من سكرتهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ وهذا ما تراه الآن، إذ ترى أن مصنوعات الكفار ومخترعاتهم إنما هي وَبال عليهم.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣﴾ والمعارج هي المصاعد العلوية التي يُعرَج عليها، وهذه المعارج منها معارج الأسماء الإلهية، وهناك معارج الأرواح الملكية، وهناك معارج الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم، فكل له معراج إلى ربه جل وعلا.

أما معارج الأسماء الإلهية: فهي الأسماء التي تتوجه على الشيء فيكون ، كاسم [القادر] و[القوي] و[المُريد] فهذه الأسماء تتوجه على معارج تضيء بأنوارها للملائكة كما يضيء نور الشمس لأهل الأرض، ثم إن الملائكة لما انصبغت بأنوار هذه الأسماء الإلهية عرجت[1] على المعارج الرُّسُلية النبوية فانصبغت الأنبياء بما انصبغت به الملائكة بالنور الإلهي، ثم إن الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم توجهوا بهذه الأسماء الإلهية النورانية على معارج أتباعهم الذين آمنوا بهم حقاً فاستنارت قلوب أتباعهم بنورهم، وهكذا انعكس النور الإلهي في مرآة الملائكة عليهم السلام ثم في مرآة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثم في مرآة قلوب عباد الله المؤمنين.

[1] أي: الملائكة

وهناك معارج الملائكة التي تصعد عليها، وحيثما تَوَجَّه الملك فهو في عروج، ولو أن الملك نزل على نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن نزوله على النبي هو عروج إلى الله تعالى، فنزول الملائكة على الخلق إنما هو عروج للحق جل وعلا.

وبيان ذلك: أن هذا الملك لمّا نزل على النبي إنما نزل إلى اسم من أسماء الله التي وعاها قلب ذلك النبي واستنار قلبه بها -وهكذا الولي لما تأتيه الإلهامات والبشائر من الله تعالى بواسطة الملائكة- فلما نزل الملك إنما نزل إلى اسم إلهي فهو عروج إلى الله على الحقيقة ما دام ينزل على اسم من الأسماء الإلهية.

ولهذا وصف الله تعالى الملائكة بالعروج ولم يصفهم بالتّسَفّل..

قال جل وعلا: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ فحيثما توجهت الملائكة توجهت إلى الله تعالى، وهو سبحانه لا تَحُدُّه الجهات ولا تحتويه الأزمنة ولا تقيّده الأمكنة، وآياته وأنواره ظاهرة في السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فحيثما توجهتَ انتهيتَ إلى الله تعالى.

وقد الْتَقَى أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: (مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟) قَالَ أَحَدُهُمْ: (أَرْسَلَنِي رَبِّي مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَتَرَكْتُهُ -سبحانه- ثَمَّ)، قَالَ الْآخَرُ: (أَرْسَلَنِي رَبِّي مِنَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ، وَتَرَكْتُهُ ثَمَّ)، قَالَ الْآخَرُ: (أَرْسَلَنِي رَبِّي مِنَ الْمَشْرِقِ، وَتَرَكْتُهُ ثَمَّ)، قَالَ الْآخَرُ: (أَرْسَلَنِي رَبِّي مِنَ الْمَغْرِبِ، وَتَرَكْتُهُ ثَمَّ)[1]-إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾-.

[1] انظر (تفسير الطبري) ٨١/٢٣

قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ وهو يوم من أيام ذي المعارج، ومقداره خمسون ألف سنة من سنين الدنيا المعروفة.

وإن الأيام التي جاء ذِكرها في القرآن تختلف عن بعضها:

فهناك أيام ذي المعارج، وهناك أيام الرب جل وعلا.. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾، وهناك أيام الشؤون الإلهية.. قال جل جلاله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩﴾.

وإن اليوم الشأني يُقَدَّرُ بأقل من لمحة البصر، ولا يمكن تحديد مقداره على وجه الدِّقة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾، وقال عز من قائل: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

وعلى هذا فتختلف قوة الملائكة وعلومهم واستعداداتهم، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾.

وقد أخبر سبحانه عن قوة سيدنا جبريل عليه السلام فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ أي أن هذا القرآن قولٌ جاء به رسول كريم وهو جبريل عليه السلام الذي جاء به من عند الله تعالى ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ فوصف سبحانه جبريل عليه السلام؛ وصفه بالقوة العظيمة، وإن الحقيقة الجبريلية تملأ ما بين السماء والأرض كما رآها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر بذلك في الحديث الذي رواه الشيخان -والرواية لمسلم- قال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام:

[جاورت بِحِراء شهراً، فلما قضيت جواري] -أي في حِراء- [نزلت فاستبْطنت بطن الوادي، فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء] -يعني جبريل عليه السلام-.. الحديث.

وفي رواية للإمام البخاري: [فإذا هو جالس على كرسي بين السماء والأرض].. الحديث[1].

وروى الإمام أحمد بالسند الجيد القوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدَّ الأفق...)[2]

واعلم أن الآفاق -إلى الآن- هي ممتلئة بالحقيقة الجبريلية، ولو أنك أعطِيتَ قوة كشف وشهود لرأيت ذلك.

ومما جاء في صفة حملة العرش: ما في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [أُذِن لي أن أحدّث عن مَلَك مِن ملائكة الله مِن حملة العرش: أنّ ما بين شَحْمة أذنه إلى عاتقه] -أي كتفه- [مسيرة سبعمائة عام][3].

وروى الطبراني عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا لَوْ قِيلَ لَهُ: (الْتَقِمِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ بِلُقْمَةٍ) لَفَعَلَ، تَسْبِيحُهُ:] -أي: صيغة تسبيحه-: [سُبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتَ][4].

وقد أخبر سبحانه عن صفة الزَّبَانِيَة عليهم السلام فقال جل وعلا: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ وهذا يدل على سعة طاقتهم لأنهم يفعلون ما يؤمرون.

وقال تعالى مخبراً عن عبادة الملائكة عليهم السلام: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ أي لا يتعبون ولا يغفلون عن تسبيح الله تعالى.

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب الإيمان
[2] طرف حديث في المسند ٣٥٦١
[3] سنن أبي داود كتاب السنة
[4] انظر المعجم الكبير للطبراني

فقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: مِن الملائكة ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِن الحيوان والنبات والجماد والأشجار ، وقال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ فكل ما على الأرض يعبد الله تعالى وكلهم يسجدون لله تعالى، وكثير من الناس كذلك، وكثير حق عليه العذاب، فما عدا الناس -من الحيوان والأنهار والأشجار والجمادات وغيرها- كل هؤلاء يعبدون الله تعالى ويسبّحونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ أي: مِن العوالم التي لا تدخل تحت نطاق السماوات والأرض، جميع هؤلاء ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: لا يتعبون ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ فَرُوحُ وجودهم وسر بقائهم: عبادة الله تعالى، إذ إن عبادتهم لله فِطرية وليست فكرية؛ بل فطرهم الله تعالى على عبادته، أما عبادة الإنسان لله تعالى فهي تكليفية لأن الله تعالى خلق فيه الموانع والعوائق والدواعي التي تمنعه وتدعوه إلى السوء، وهذه الموانع هي: الهوى والنفس والشيطان والدنيا ، ولذلك كانت عبادة البشر تقوم على أمر ونهي، أما عبادات الملائكة فكلها أوامر وليس هناك من مَناهٍ ينتهون عنها، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ .

ويرحم الله القائل:

إني ابتليت بأربع يرمينني بالنبل عن قوس لها توتير

إبليس والدنيا ونفسي والهوى يا رب أنت على الخلاص قدير[1]

فكل واحد من هؤلاء الأعداء وَتَّرَ قوسه وأحكمَ سهمه وصوّبه على الإنسان يريد إصابته، وكلهم محيطون به من جهاته الأربع، ولا ينجو العبد من ذلك إلا بحصانة الله تعالى وبالاستعاذة به واللجوء إليه جل جلاله، قال سبحانه وتعالى مخاطباً إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

وقد بيّن سبحانه أن الملائكة منهم الراكع ومنهم الساجد، ولكلٍّ منهم صيغة في تسبيح الله تعالى تختلف عن غيره، ولكلٍّ منهم مقام معلوم.. كما جاء في الآية: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾، فقد ورد أن مِنهم مَن تسبيحه: [سبحانك حيث كنت][2]، ومنهم مَن تسبيحه: [سبحان ذي الملك والملكوت]، ومنهم مَن تسبيحه: [سبحان ذي العزة والجبروت]، ومنهم مَن تسبيحه: [سبحان الحي الذي لا يموت][3] ومنهم مَن تسبيحه: [سُبُّوح قُدّوس، الله هو القوي، ملأت عظمتُه السماوات والأرض][4].

---

[1] انظر (الفتوحات المكية) ٣١٤/١ للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي رضي الله عنه و(التذكرة) ص ٨٨٠ للإمام القرطبي رضي الله عنه.

[2] طرف حديث في المعجم الكبير للطبراني

[3] أخرج ابن جرير وأبو نعيم في الحلية أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم: [إن أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة؛ يقولون: (سبحان ذي المُلك والمَلَكوت)، وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة؛ يقولون: (سبحان ذي العِزّة والجبروت)، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة؛ يقولون: (سبحان الحي الذي لا يموت)] كما في الدر المنثور ٦٧/١ للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى ورضي عنه.

[4] انظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي فقد عزاه إلى الإمام أحمد في الزهد وأبي الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه رضي الله عنه- وهو التابعي الثقة الذي روى له الشيخان وغيرهما-.

وجاء في الحديث أن أربعة مِن حملة العرش يسبّحون الله تعالى بقولهم: [سبحانك اللهم وبحمدك على حلمك بعد علمك] ويجيبهم الأربعة الثانية بقولهم: [سبحانك اللهم وبحمدك على عفوك بعد قدرتك][1]، والله تعالى أعلم.

وروى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ.

قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾].

وأما معنى قول المَلَك: [سبحانك حيث كنتَ]: فاعلم أن لله الأكوان التي لا تتناهى في الحَضَرات الإلهية كما جاء في الأثر: [كنتُ كنزاً مَخْفياً فأحببتُ أن أعرَف، فخلقتُ خلقاً فبي عرفوني]، وفي رواية ثانية: [كنت كنزاً مَخْفِيًّا فأردتُ أن أُعرَف فخلقت خلقاً فبي عرفوني][2]..

---

[1] عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن المنذر وأبي الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان عن هارون بن رباب رضي الله عنه

[2] جاء في كتاب (إتحاف المحبين بذِكر مناقب الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى ورضي عنه) للعالِم العامِل، فريد عصره ووحيد دهره، سيدي العلّامة الشيخ: محمد محيي الدين سراج الدين رحمه الله تعالى ورضي عنه أن والده الكريم مولانا الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه سئل عن الأثر: (كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أُعرَف فخلقت خلقاً فبي عرفوني)
فقال: أورده الشيخ الأكبر رضي الله عنه -ولم يذكره المحدّثون-، ويذكره أئمة القوم بما يسمى: (الحضرة العمائية) .
وقد ورد في الحديث عن أبي رزين رضي الله عنه قال:
[قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟
قال صلى الله عليه وسلم:
كان في عماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء].
=

= قال في تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي:
قوله: [كان في عماء، ما فوقه هواء] وكذلك قوله: [ما تحته هواء]
قيل : إن ذلك العمى مقصور، والعمى إذا كان مقصوراً فمعناه لا شيء ثابت، لأنه مما عمي عن الخلق لكونه غير شيء.
فكأنه قال في جوابه: كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شيء غيره ،
ثم قال: [ما فوقه هواء وما تحته هواء] : أي ليس فوق العمى -الذي هو لا شيء موجود- هواء ولا تحته هواء؛ لأن ذلك إذا كان غير شيء فليس يثبت له هواء بوجه .
وروي بلفظ القصر في العمى، والمعنى: عدم ما سواه ، كأنه قال: كان ولم يكن معه شيء، بل كل شيء كان عدماً عمى لا موجوداً ولا مدركاً، كأنه قال: كان ولا شيء معه، ولا فوق ولا تحت . انتهى
قلت: إن صحت الرواية [عمى] -بالقصر- فلا إشكال في هذا الحديث، وهو حينئذ في معنى حديث: [كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء] رواه البخاري وغيره عن عمران بن حصين ، ويؤيده رواية البخاري أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: [كان الله ولم يكن شيء معه] .
أي: بالكينونة القديمة التي لا أول لها، وإن صحت الرواية [عماء] -بالمد- فلا حاجة إلى تأويل بل يقال: نحن نؤمن به ولا نكيّفه بصفة ، أي : نجري اللفظ على ما جاء عليه من غير تأويل ، كما قال الأزهري. اهـ
وقال رضي الله عنه:
إذا تجلى حبيبي بأي نور أراه بنوره لا بنوري فما يريه سواه.
وقد أسند الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين عن سيدي والده الإمام الشيخ نجيب رضي الله تعالى عنهما ورفع مقامهما في الندي الأعلى أنه قال: إن هذا الأثر صحيح المعنى ، وعليه شاهد من القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ فلم يكن خلْق السموات والأرض والمخلوقات إلا ليعلموا ويتعرفوا على الله تعالى.

أي: كان الله ولا شيء معه ثم أراد أن يُعرَف وتظهر أسماؤه وصفاته فخلق الخلق وتعرَّف إليهم، فبه عرفوه وبنوره عرفوه جل جلاله، ولولا أن الله ألقى في قلوب عباده نوراً يعرفونه به لَمَا عرفه أحد، إذ لا مناسبة بين العبد وبين ربه فأنى له أن يعرفه من نفسه؟!

وأنى للمخلوق أن يعرف مَن ليس بمخلوق؟!

ولذلك قال سبحانه: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ فلولا أن الله تجلى عليهم بنوره لَمَا عرفوه، فبنوره سبحانه عرفوه، كما أنك -ولله المثل الأعلى- ترى الشمس بأنوارها المشرقة على الأرض، ولولا نورها لَمَا رأيتها، وإذا غابت عنك بأنوارها فلو أوقدت ألف مصباح لما رأيتها!

إذا عرفت هذا فاعلم أن رب الشمس أشد ظهوراً من الشمس، وما من ظاهر إلا والله سبحانه أظهرُ منه.

وعلى هذا فقول المَلَك: [سبحانك حيث كنتَ] أي حيث كنتَ ولا شيء معك يا رب، ولا تزال تلك الحضرة العمائية موجودة ولها أحكامها.

وقوله: [سبحانك حيث كنتَ] أي كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٩٦﴾ أي: سبحانك في كون الحضرة العمائية متصفة بالمغفرة والرحمة، فكونه سبحانه غفور: كونٌ، وكونه سبحانه رحيم: كونٌ.

فقوله: [سبحانك حيث كنت] أي: سبحانك ولك حضرة المغفرة، وسبحانك ولك حضرة الرحمة وهكذا، كما أخبر سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٩٦﴾ فهذا الملك يسبّح الله في كل الأكوان وفي كل الحضرات الإلهية.

ولقد وصف الله تعالى الملائكة بالخشية منه فقال سبحانه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ٥٠﴾ وقال جل وعلا: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾.

وقد روى الطبراني والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

[بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل عليه السلام يناجيه إذ انشقّ أفق السّماء فأقبل جبريل يتضاءل ويدخل بعضه في بعض ويدنو من الأرض، فإذا مَلَك قد مَثُلَ بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا محمد إنّ ربّك يقرئك السّلام، ويخيّرك بين أن تكون نبيّاً ملِكاً، وبين أن تكون نبيّاً عبداً).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأشار جبريل إليّ بيده أن تواضع]

- بأن أشار إلى الأرض، أي: والأرض متواضعة وهي أمُّ الإنسان فكن مثلها

[فعرفت أنّه ناصح فقلت: عبداً نبيّاً].

واعلم أن الفرق بين أن يكون صلى الله عليه وسلم نبياً عبداً أو نبياً ملكاً هو: أن النبي الملِك هو الذي يعامل الناس معاملة الملك للعبد؛ بأنه إذا آذاه أحد انتقم منه، كما قال الله تعالى في سليمان عليه السلام: ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾.

ولقد اختار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون نبياً عبداً يعفو ويغفر، وكان يعامل عباد الله معاملة عبد من عباد الله، ولهذا كان يقول صلى الله عليه وسلم: [آكُلُ كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد][1] -أي: كما يجلس الإنسان الكامل، المتذلل لله تعالى، المتواضع لرب العالمين-.

[1] انظر مسند أبي يعلى الموصلي ومصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة

وروى ابن ماجه والحاكم عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال:

جاء رجل فقام بين يدي النبي ﷺ فأخذته رِعدة شديدة ومهابة، فقال له النبي ﷺ: [هوِّن عليك، فأنا لستُ بملِك ولا جبّار، وإنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد بمكة][1].

وبمقام العبدية الذي اختاره صلى الله عليه وسلم رفعه الله تعالى إلى المقامات العليّة، قال سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ ..الآية

وقال جل وعلا: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ ..الآية

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ الآية ....

قال صلى الله عليه وسلم: [فعرج ذلك الملك إلى السماء فقلت: يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت مِن حالك ما شغلني عن المسألة فمن هذا يا جبريل؟

قال: هذا إسرافيل، خلقه الله يوم خلقه بين يديه، صافاً قدميه، لا يرفع طرفه[2]، بينه وبين الرب سبعون نوراً] -أي: سبعون حجاباً من نور- [ما منها نور يدنو منه إلا احترق، بين يديه اللوح المحفوظ، فإذا أذن الله في شيء في السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته] أي: جبهة إسرافيل عليه السلام [فينظر فيه، فإذا كان من عملي أمرني به ، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به] [3].. الحديث

---

[1] القديد هو اللحم يُقطع ويُجعل في الشمس حتى يجف، وكانت عادة العرب أكله، فكنّى ﷺ بذلك عن عدم تكبره وتجبره.

[2] أي: ذلاً وخشية من الله تعالى

[3] قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور ١/١٧٠: وأخرج الطبراني وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإيمان بسند حسن... وذكر الحديث.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ فَإِذَا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ -أي ذهب الفزع عن قلوبهم- ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ﴾ لِلَّذِي قَالَ ﴿ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾][1].

والمعنى: أن الملائكة عليهم السلام يقول بعضهم لبعض بعدما أفاقوا وزال عنهم الفزع والغشية: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ﴾ فيقول جبريل عليه السلام لهم:

﴿ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

أو أنهم عليهم السلام ﴿قَالُواْ مَاذَا﴾ فَهُم لمّا أفاقوا ﴿قَالُواْ مَاذَا﴾ فأتاهم الجواب

﴿قَالَ رَبُّكُمْۖ﴾ أي: قال سبحانه أمراً من الأمور، فأجابوا و ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ﴾

فأجابهم الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

وفي الحديث: [إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا] [2]وهذا إذا كان الوحي النازل عليهم من الله في مثل سلسلة على الصفا، يعني إذا كان الكلام الإلهي نزل وباشر قلوب الملائكة فتعتريهم الغشية، وهذا هو الحال الذي كان يعتري النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن.

---

[1] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

[2] طرف حديث في سنن أبي داود كتاب السُّنّة، وتتمة الحديث:
[فَيُصْعَقُونَ فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ.
قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟
فَيَقُولُ: الْحَقَّ، فَيَقُولُونَ: الْحَقَّ الْحَقَّ].

روى الإمام مالك عَن السيدة عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ ﷺ: [أَحْيَانًا يَأْتِينِي فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ].

قَالَت السيدة عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[1].

وهذان أهمّ أنواع الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أولهما: أن يكون الكلام الإلهي يباشر قلب النبي ﷺ دونما انقطاع، وفي هذه الحالة ينشغل القلب المحمدي بأخذ ما يلقَى إليه فيغطّ عن تدبير الجسم، ولذلك كان يحمر وجهه الشريف ﷺ ويتفصّد جبينه الشريف عرقاً، ولا يكلمهم ولا يكلمونه، ويكون السمع والبصر والمدارك كلها تابعة لسلطان القلب.

وثانيهما: الوحي النبوي ويكون عن طريق المكالمة، ويتمثل فيه الملك بصورة رجل يكلّم النبي صلى الله عليه وسلم، ومن الأذن ينتهي إلى القلب.

وقد بيّن سبحانه سعة علم الملائكة بالله تعالى وأنهم علماء بالله، وأن توحيدهم لله عن علم شهودي وفطري، ولهذا قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ فذَكَرَ سبحانه شهادة الملائكة بعد شهادته سبحانه، وقدَّم ذِكرهم على ذِكر أولي العلم لأنهم أسبق في الوجود والتكوين، ولأن علمهم بالله أمر فطري وشهودي، أما علم غيرهم من البشر فقد يكون شهودياً أو غيبياً.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] في الموطأ كتاب النداء للصلاة واللفظ له، وهو في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق وصحيح مسلم كتاب الفضائل

محاضرة حول عالم الملائكة

مِن وظائف جبريل وإسرافيل

عليهما الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إنَّ جبريل عليه السلام يُسمى عند أهل الكتاب: (النَّاموس الأكبر)، و(الناموس) في أصل اللغة هو: صاحب سر الخير، وسمي جبريل عليه السلام بذلك لأنه أمين الله تعالى على أسراره الموحاة إلى أنبيائه صلوات الله تعالى عليهم.

جاء في الحديث المتفق عليه عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

[أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ] -وفي رواية:[الصادقة]- [فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ] -فقد بدأت نبوته صلى الله عليه وسلم بالتباشير الصالحة في المنام، وكانت تتراءى له أنوار الملائكة عليهم السلام ويسمع أصواتهم وتسليم عليه، وكانت تُسَلِّم عليه الأشجار والأحجار، ولهذا ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله: [إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ؛ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ][1].

وروى الترمذي عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: [كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ فَخَرَجْنَا فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَا اسْتَقْبَلَهُ جَبَلٌ وَلَا شَجَرٌ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ][2] صلى الله عليه وسلم-.

---

[1] صحيح مسلم كتاب الفضائل

[2] سنن الترمذي كتاب الفضائل

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: [ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ] -أي حَبَّب الله تعالى إليه الخَلْوَة- [وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ] -أي يخلو في غار حراء بربه سبحانه وتعالى، ويعتزل قومه وما هُمْ عليه من الشِّرك والضَّلال.

وسبب خلوته صلى الله عليه وسلم كما قالت رضي الله عنها: [فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ] -أي: في الغار -والتحنث هو: البُعد عن الحِنْث أي الإثم الذي وقع فيه قومه- فلم يرغب صلى الله عليه وسلم فيما رغب فيه قومه من شِرك وعادات جاهلية بل رآها شركاً وحِنْثاً فراح يتباعد عنها ويعتزلها، ويلجأ إلى ربه سبحانه بالتوحيد والعبادة- [اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ] أي: يرجع [إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ] -وهو جبريل عليه السلام- [فَقَالَ: (اقْرَأْ) قَالَ: (مَا أَنَا بِقَارِئٍ). قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي] أي: فَضَمَّني [حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: (اقْرَأْ) قُلْتُ: (مَا أَنَا بِقَارِئٍ) فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: (اقْرَأْ) فَقُلْتُ: (مَا أَنَا بِقَارِئٍ) فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾] .

وإن الضم الجبريلي لرسول الله صلى الله عليه وسلم له مَعانٍ وأسرار كبرى، وهو نوع من أنواع الوحي الإلهي على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه إفاضة من جبريل عليه السلام -لِمَا حمله من العلوم الإلهية والأنوار والأسرار- إفاضة ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكل ضمَّة جبريلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم أثرها الكبير في إفاضة العلوم الباطنة والظاهرة والعُلوية؛ لأن الضمات كانت ثلاثاً، وبهذه الضمات صار رسول الله صلى الله عليه وسلم عالماً عارفاً قارئاً.

ولقد ضمَّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عباس رضي الله عنهما إلى صدره الشريف وقال: [اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ][1]

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب المناقب

وفي رواية: [اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ وَتَأْوِيلَ الْكِتَابِ][1]

وهذا فيه إفاضة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾.

وإن الله تعالى -الذي طوَّر الإنسان في تخليقه من علقة إلى مُضْغَة إلى أن صار إنساناً ذا مدارك وحواس وفي أحسن تقويم- إنه سبحانه قادر على أن يفيض عليك يا محمد -صلى الله عليه وسلم- العلوم العالية، ويجعلك نبياً رسولاً تخرج الناس من ظلمات الجهل والشرك إلى نور الحق والإيمان، سيَّما أن ربك يا محمد -صلى الله عليه وسلم- له الكرم الخاص بك والعناية الخاصة بك، قال جل وعلا:﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها:

[فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤَادُهُ] -أي: لأنه تحمَّل علوماً ومعارف وأنواراً وأسراراً لها ثقلها وأثرها على البدن- [فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها فَقَالَ: (زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي) فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي)]

-أي خِفْتُ ألّا يتحمَّل جسمي ذلك -وذلك لمّا رأى جبريل عليه السلام على حقيقته الجبريلية، وكذلك ضمة جبريل له وإفاضته عليه العلوم والمعارف الإلهية-..

ولقد كان صلى الله عليه وسلم -إذا كان حديث عَهْد بجبريل عليه السلام- يخلو وحده ولا يتبسَّم -لِما يلاقيه صلى الله عليه وسلم من أثر التنزلات الجبريلية عليه-.

---

[1] انظر مقدمة سنن ابن ماجه

[فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: (كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ)[1].

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟

فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ:

هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ] أي شابٌّ، والمعنى: ليتني أكون شاباً عندما يأمرك الله تعالى أن تجهر بالدعوة.

[لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟).

قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ]

-أي: عاداه قومه- [وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا][2].

---

[1] قال القاري في مرقاة المفاتيح ٣٧٣٢/٩: ((وَتَحْمِلُ) : بِكَسْرِ الْمِيمِ (الْكَلَّ) : بِفَتْحِ الْكَافِ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ، وَهُوَ مَا لَا يَسْتَقِلُّ بِأَمْرِهِ وَالْمَعْنَى: أَنَّكَ تَتَحَمَّلُ مُؤْنَةَ الْكَلِّ، وَتَقْبَلُ مِحْنَةَ الْكَلِّ، وَإِنْ تَرَكُوكَ وَلَمْ يُسَاعِدُوكَ، وَيَدْخُلُ فِي حَمْلِ الْكَلِّ الْإِنْفَاقُ عَلَى الضَّعِيفِ وَالْيَتِيمِ وَالْأَرَامِلِ وَالْعِيَالِ مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ.
(وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ) ، بِفَتْحِ التَّاءِ هُوَ الصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ، وَرُوِيَ بِضَمِّهَا ذَكَرَهُ النَّوَوِيُّ، وَالْمَعْنَى تُحَصِّلُ الْمَالَ لِلْخَيْرِ، أَوْ تُعْطِي الْمُحْتَاجَ (وَتَقْرِي) : بِفَتْحِ التَّاءِ وَكَسْرِ الرَّاءِ أَيْ: تُطْعِمُ (الضَّيفَ) ، أَيِ: النَّازِلَ بِكَ (وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ) ، أَيِ: الْحَوَادِثِ الْجَارِيَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِتَقْدِيرِ الْحَقِّ، أَيْ: يُنَابُ فِيهَا، وَقِيلَ: النَّوَائِبُ جَمْعُ النَّائِبَةِ وَهِيَ الْحَادِثَةُ، وَإِنَّمَا أُضِيفَتْ إِلَى الْحَقِّ لِأَنَّ النَّائِبَةَ قَدْ تَكُونُ فِي الْخَيْرِ، وَقَدْ تَكُونُ فِي الشَّرِّ.

[2] انظر صحيح البخاري كتاب بدء الوحي وصحيح مسلم كتاب الإيمان

وقد كان سيدنا جبريل عليه السلام ينزل بالوحي القرآني على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك كان ينزل بالحِكَم العالية، ومن جملة ذلك:

ما رواه الإمام أحمد والترمذي -والرواية لأحمد- عن عليّ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ:

يَا مُحَمَّدُ -صلى الله عليه وسلم- إِنَّ أُمَّتَكَ مُخْتَلِفَةٌ بَعْدَكَ.

قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: فَأَيْنَ الْمَخْرَجُ يَا جِبْرِيلُ؟

قَالَ: فَقَالَ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى؛ بِهِ يَقْصِمُ اللَّهُ كُلَّ جَبَّارٍ، مَن اعْتَصَمَ بِهِ نَجَا، وَمَنْ تَرَكَهُ هَلَكَ -مَرَّتَيْنِ-.

قَوْلٌ فَصْلٌ، وَلَيْسَ بِالْهَزْلِ، لَا تَخْتَلِقُهُ الْأَلْسُنُ، وَلَا تَفْنَى أَعَاجِيبُهُ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَفَصْلُ مَا بَيْنَكُمْ، وَخَبَرُ مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكُمْ][1].

وفي رواية الترمذي: [وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ.

هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ] -أي: هو محفوظ عن تلاعب المُبْطِلين وأهوائهم- [وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ][2] -أي: لا تزال ظاهرة في الأنفس والآفاق- قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ والمعنى: يا محمد -صلى الله عليه وسلم- قل للملحدين والجاحدين للقرآن والزاعمين بأنه ليس من عند الله؛ قل لهم:

أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به، ثم بعد ذلك تقوم الساعة وتظهر لكم الأمور على حقائقها عياناً، فمن أضلُّ منكم عندئذ؟

ولو أنكم تعقَّلتم لأخذتم بأحوط الأمرين.

---

[1] المسند ٦٦٦

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

ثم بيّن سبحانه أن ظهور حقائق القرآن أمر لا يتوقف على وقوع الساعة بل إن إخبارات القرآن تظهر دائماً فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ أي حتى يتبين لهم أن القرآن الكريم -الذي أنكروه- يتبين لهم أنه الحق ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ أي: وقد شهد سبحانه أن هذا كلامه جل جلاله، وشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسوله.

أما قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فالمعنى: أن الله تعالى سَيُري الكفار والمعاندين؛ سيريهم حقيقة ما أخبر عنه في الآيات القرآنية، وسيريهم ذلك في الآفاق مِن حولهم وكذلك في أنفسهم.

ومِن ذلك: أنه سبحانه أخبر عن عادته مع الكفار والمكذبين لدعوة الرسل أخبر جل وعلا أنه يملي لهم ويمهلهم ويفتح عليهم أبواب الدنيا وعلومها وزخارفها ومخترعاتها حتى إذا اطمأنوا إلى ذلك وفرحوا به جاءهم العذاب بغتة ودمرهم الله تعالى تدميراً.

وإذا نظرت في الأمم السابقة لعلمت أن ذلك حقاً قد وقع بهم -وسيقع فيمن بعدهم إن هم عاندوا وعارضوا- وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾.

وقال جل وعلا: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ -أي: ظهر التغير في نظام البر والبحر- ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾.

فقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ أي حتى يتبين لهم أن القرآن الكريم حق، فإن ثبت عندهم ذلك ثبت عندهم أن الله حق وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حق.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ -أي في شك واضطراب- ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ فكيف ينكرون البعث والحساب والآخرة ويدّعون أن ذلك مستبعد على الله تعالى؛ كيف ينكرون ذلك ويُشكّكون فيه وهو سبحانه الآن محيط بهم؟!

وكيف ينكرون لقاءه غداً وهو الآن محيط بهم سبحانه بقدرته وعلمه .... وهكذا؟!.

أما وجوه إحاطته سبحانه بالمخلوقات:

فاعلم أنه سبحانه محيط بهم قدرة، قال جل وعلا: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ أي لا تحزن يا محمد -صلى الله عليه وسلم- ولا يُهِمَّنَّك أمر الكفار مهما تجمعوا وتكاثروا فإنّ قدرتنا محيطة بهم، وهم لا يعجزوننا شيئاً، والمعنى إذاً: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ أي قدرةً كما هو مفهوم السياق، فقدرته سبحانه غير متناهية، وهي محيطة بجميع الأشياء لأن الأشياء جميعها -غيرَ الله تعالى- متناهية في القدرة والعلم وسائر الخصائص التي خصها الله تعالى بها.

وأما إحاطته سبحانه بالأشياء علماً لأنه خالقها وبارئها فقد قال عز وجل: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمَا ١١٠﴾.

كما أنه سبحانه محيط بجميع الأشياء وجوداً حتى إنه محيط بشيئية الشيء، قال جل وعلا: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ أي من حيث شيئية الشيء، لأن وجود الأشياء محدود ومُتَناهٍ، أما وجود الله تعالى فهو وجود واجب وغير مُتَناهٍ، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ أي: قد أحاط بهم علماً؛ إذ يعلم ما سيأتي عليهم وما مضى أيضاً، فكيف يَسَعُكَ أيها المخلوق أن تحيط علماً بمن أحاط بك علماً؟!

قال عز من قائل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا ١١٠﴾ أي: ولا يحيطون به علماً من العلوم، فهم لا يحيطون علماً بسمع الله تعالى، ولا يحيطون علماً بقدرة الله تعالى، وهكذا لا يحيطون علماً بذاته وصفاته سبحانه وتعالى .

وما دام الأمر كذلك فأنى للخلق أن ينالوا العلم بالله تعالى؟

نعم: ينالون ذلك بتعليم الله تعالى لهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولذلك جاء بعد آيات قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا ١١٤﴾ أي علماً بك وبصفاتك وكمالاتك جل جلالك.

وإذا كنت لا تحيط علماً بالله تعالى ويستحيل ذلك عليك فَسَلْهُ سبحانه أن يزيدك علماً به جل جلاله.

وعلى هذا فإذا تعقّل الإنسان وأنصف لرأى إحاطة الله تعالى به علماً وقدرة وحكمة، ولَشاهدَها بقلبه، وأدركها بعقله -وإن غابت عنه بصراً- لأن إحاطته سبحانه بالمخلوقات إحاطة غيبية تليق به سبحانه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾ أي محيط بهم من حيث توارى عنهم أي: غاب عنهم بصراً.

فأنى للعاقل أن ينكر وجود الله تعالى وقد ظهرت له آيات الله تعالى ومشاهد وجوده وقدرته وعلمه وحكمته؛ ظهرت في السماوات وفي الأرض وفي نفس الإنسان؟!

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ -أي آياته وأنواره ومشاهد ودلائل وجوده سبحانه ظاهرة في السماوات وفي الأرض- ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣﴾.

وما أجمل قول القائل:

وأي الأرض تخلو عنك حتى لقالوا يطلبونك في السماء

تراهم ينظرون إليك جهراً وهم لا يبصرون؛ مِن العماء

وفي الحديث المتقدم ذِكره قال صلى الله عليه وسلم في صفة القرآن : [وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ] أي ستظهر أسرار هذا القرآن الكريم وتنكشف الإخبارات التي أخبر عنها على مدى الزمان، ولا يمكن أن تقع حادثة تناقض ما أخبر به القرآن لأنه كما قال سبحانه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢﴾.

كما أنه صلى الله عليه وسلم جاء بالحكمة النبوية العالية -وهي الحكمة الفردية- كما روى الحاكم -وقال: صحيح الإسناد- عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[احْضَرُوا الْمِنْبَرَ، فَحَضَرْنَا فَلَمَّا ارْتَقَى دَرَجَةً قَالَ: آمِينَ، فَلَمَّا ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ قَالَ: آمِينَ، فَلَمَّا ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّالِثَةَ قَالَ: آمِينَ.

فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا:

يَا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَقَدْ سَمِعْنَا مِنْكَ الْيَوْمَ شَيْئًا مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ.

قَالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ عليه الصلاة والسلام عَرَضَ لِي فَقَالَ:

بُعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ؛ قُلْتُ: آمِينَ.

فَلَمَّا رَقِيتُ الثَّانِيَةَ قَالَ: بُعْدًا لِمَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ؛ قُلْتُ: آمِينَ. فَلَمَّا رَقِيتُ الثَّالِثَةَ قَالَ: بُعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ عِنْدَهُ أَوْ أَحَدُهُمَا فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ؛ قُلْتُ: آمِينَ][1].

وروى الطبراني وغيره عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن ربه تعالى قال:

[إن مِن عبادي مَن لا يُصلِح إيمانَه إلا الفقر وإن بسطت له لأفسده ذلك.

وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك.

وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك.

وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك].

كما أن سيدنا إسرافيل عليه السلام كان يَنْزل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحِكم العالية، ومن ذلك ما رواه الإمام البيهقي في (الدلائل) عن عامر الشعبي أن إسرافيل عليه السلام وُكِّل برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين -أي: في أول الأمر- فكان يعلّمه الكلمة والشيء -أي: الكلمات التي فيها الحِكم العالية، والأفعال التي فيها التأديب الإلهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم- ثم اقترن به جبريل فنزل عليه بالوحي القرآني.

ومِن وظائف سيدنا إسرافيل عليه السلام: أنه أرسل إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيِّراً له في أمر يعرضه عليه، فقد روى الإمام أحمد والطبراني -واللفظ له-عنه صلى الله عليه وسلم: [لقد هبط عليَّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي ولا يهبط على أحد بعدي وهو إسرافيل وعندي جبريل فقال: السلام عليك يا محمد.

ثم قال: أنا رسول ربك إليك، أمرني أن أخيّرك إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً ملِكاً.

فنظرت إلى جبريل فأومأ جبريل إليَّ أنْ تواضع، فقل : نبياً عبداً][2].

---

[1] انظر مستدرك الحاكم وشعب الإيمان للبيهقي

[2] المسند ٦٨٦٣ والمعجم الكبير للطبراني

وروى الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا؛ قُلْتُ: لَا يَا رَبِّ؛ وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا.

فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ][1].

وعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

[أتِيتُ بِمَقَالِيدِ الدُّنْيَا عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ[2]؛ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ مِنْ سُنْدُسٍ][3].

وفي رواية: [أتِيت بمفاتيح خزائن الدنيا على فرس أبلق؛ جاءني به جبريل عليه السلام][4].

وفي رواية: [جاءني به إسرافيل] قال الزرقاني: ولا تنافي بين ذلك لأنه من باب تعدد المجيء، وأن كُلاً من جبريل وإسرافيل عليهما السلام جاء بذلك، أو أن الآتي بذلك جبريل وصحبه إسرافيل عليهما السلام، والظاهر هو الأول[5].

فقد اختار صلى الله عليه وسلم هذا المقام بينه وبين ربه جل وعلا.

ويرحم الله القائل في وصف الدنيا:

لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً وقد شَبِعَتْ فيها بطونُ البَهائم

---

[1] سنن الترمذي كتاب الزهد

[2] أي: في لونِ سوادٍ وبياض

[3] مسند الإمام أحمد ١٣٩٨٩

[4] انظر (أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم) لأبي الشيخ الأصبهاني و(الزهد) لابن أبي عاصم

[5] انظر (شرح الحافظ الزرقاني على المواهب اللدنية) ٢٢٠/٧

وفي الصحيحين عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ:

[إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ] أي: سابِقُكم إلى الحوض أنتظركم [وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي؛ وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا][1].

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: [وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا؛ فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ][2].

ومما جاء في التحذير من التنافس على الدنيا وأن ذلك يفسد الدين والإيمان: قوله صلى الله عليه وسلم[3]: [مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ][4]

وفي الحديث الذي رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: [يا محمد] -صلى الله عليه وسلم- [عِشْ ما شئت فإنك ميّت، واعمل ما شئت فإنك مَجْزِيٌّ به، وأحبب من شئت فإنك مُفارِقه، واعلم أن شرف المؤمن قيامه في الليل، وعزَّه استغناؤُه عن الناس].

---

[1] صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب الفضائل

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

[3] كما في سنن الترمذي كتاب الزهد

[4] قال الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه في كتابه (التقرب إلى الله تعالى) قال بعد أن ذكر هذا الحديث الشريف: (فحُبّ المرء للمال والفخر والظهور وحرصه عليهما يُفسد عليه دينه أعظم من إفساد ذئبين جائعين أرسلا في غنم قد غفل عنها راعيها).

وإن العاقل مَن يحب مَن لا يفارقه أبداً؛ وهو معه أينما كان، وهو ربه الذي خلقه وأنعم عليه، ومِن علامة حب العبدِ اللهَ تعالى أن يحب العبدُ رسولَ الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم لأنه سبحانه هو الذي أرسله وأحبّه وفضَّله.

ويرحم الله القائل:

يا رجالَ الليل جِدّوا رُبَّ داعٍ لا يُرَدُّ

لا يقوم الليل إلا مَن له عَزمٌ وَجِدُّ

ليس شيئاً كقيام الـــــــــليل للقبر يُعَـدّ

هذه الكبرى أتتكم لِعُلاها فاستعدّوا

أي: أتتكم الداهية الكبرى -وهي الموت- فاستعدوا للمقامات العالية.

ومِن وظائف إسرافيل عليه السلام: النفخ في الصور، كما روى الترمذي وأحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [كَيْفَ أَنْعَمُ] -أي: كيف أتَنَعَّمُ في الدنيا- [وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَد الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ.

فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُمْ:

قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا][1].

وقد التقم إسرافيل القَرْن -الصُّوْر- في الوقت الذي أخبر عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا دليل اقتراب الساعة، لأن من علامات الساعة البعيدة: بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وانشقاق القمر في عهده صلى الله عليه وسلم، والتقام إسرافيل عليه السلام للقرن.

[1] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ومسند الإمام أحمد ١٨٥٣٩

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ -أي: يسألونك عن الساعة متى تأتي وترسو إلى العالم وتتمكن؟- ﴿فِيمَ﴾ أي فيم يسألونك يا محمد -ﷺ- هذا السؤال ويستبعدون الساعة؟ ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ -أي: إنما أنت من علامات الساعة والمذكِّرات بها- ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ -أي نهاية أمرها علماً إلى الله تعالى- ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ﴾.. الآية، أي: بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي الحديث: [بُعثتُ أنا والساعة هكذا] وجَمَعَ ﷺ بين أصبعيه الشريفتين السبابة والوسطى [فسبقْتُها كما سبقت هذه هذه][1].

واعلم أنه قد اقترب وقت الساعة وذلك بالنسبة لِما مضى من عمر الدنيا وليس بالنسبة لِما مضى من عمر بني آدم عليه السلام؛ لأن القيامة تأتي على عالم الدنيا كله وليس على بني آدم فقط!

وروى الترمذي وأحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ:[صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ، ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ، وَجَعَلْنَا نَلْتَفِتُ إِلَى الشَّمْسِ هَلْ بَقِيَ مِنْهَا شَيْءٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِن الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ][2] وكانت الشمس على رؤوس الجبال -أي أوشكت على الغروب تماماً كما في المعجم الأوسط للطبراني: [وذلك حين اصفرّت الشمس وتغيب].

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني بإسناد حسن. اهـ وأصله في صحيح البخاري كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الجمعة

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الفتن

محاضرة

حول القَلْب وأحْوالِه

مع الشرع الإلهي والمُحمّدي ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن رؤساء الملائكة من حيث الإجمال هم خمسة: سيدنا جبريل وسيدنا ميكائيل وسيدنا إسرافيل وسيدنا عزرائيل وسيدنا إسماعيل[1]؛ على عدد أُولي العَزْم عليهم الصلاة والسلام.

ومِن وظائف جبريل عليه السلام: أنه نزل بالقرآن الكريم على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ أي بِعِدَّة تنزلات حتى جمع القرآن كله في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] قال الحافظ السيوطي في (الدرّ المنثور):
وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله بالمدينة عن ليلة أسري به من مكة إلى المسجد الأقصى قال:
[...فَصَعَدْتُ أَنَا وَجِبْرِيلُ، فَإِذَا أَنَا بِمَلَكٍ يُقَالُ لَهُ: (إِسْمَاعِيلُ) وَهُوَ صَاحِبُ السَمَاءِ الدُّنْيَا] أي: خازِنُها المُوَكَّل بها [وَبَيْنَ يَدَيْهِ سَبْعُونَ أَلْف مَلَكٍ، مَعَ كُلِّ مَلَكٍ جُنْدُهُ مِائَةُ أَلْفِ مَلَكٍ.
قَالَ: وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾]...الحديث

ولقد قال بعض المُحَدِّثين: بَلَغَت تَنَزُّلات جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم أربعاً وعشرين ألف مرة[1].

قوله جل وعلا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾:

جاء في الصحيحين وغيرهما واللفظ للترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام:

[مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟]

قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.. الآية).

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه قال:

(أبطأ جبريل النزول على النبي صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً) -وفي رواية: (اثنتي عشرة ليلة)- (ثم نزل، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: [ما نزلتَ حتى اشتقتُ إليك] فقال له جبريل: بل أنا كنتُ إليكَ أشْوَقَ، ولكني مأمور، فأوحى الله تعالى إلى جبريل: أن قل له[2]: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.. الآية).

ولقد كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بطوائف من الآيات حسب أمر الله تعالى له ومقتضى حكمته سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ أي لم يَنْسَكَ -أي: لم يتركك - ربك يا محمد -صلى الله عليه وسلم- كما ادَّعت كفار قريش ذلك لمّا أبطأ الوحي عليه صلى الله عليه وسلم.

---

[1] انظر كتاب (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري) ٦٠/١ للحافظ القسطلاني وكتاب (شرح المواهب اللدنية) ٤٧٣/١ للحافظ الزرقاني رضي الله عنهما.

[2] صلى الله عليه وسلم أبداً أبداً

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ أي وما كان ربك تاركاً لك يا محمد - صلى الله عليه وسلم-، وما كان ربك تاركاً العباد بل لا بد أن يُنْزِل قرآناً ووحياً فيه مصالحهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ﴾ أي له سبحانه عِلم ما هو آتٍ في المستقبل، وله عِلْم ما خلفنا، وله عِلْم ما بيْن ذلك أي علم ما هو بيْن الدنيا والآخرة من البرزخ وعالم القبر والنشر والحشر وما هنالك.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ فلا ينسى سبحانه وتعالى، بل هو سبحانه عليم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ﴾ أي له جل وعلا عِلْم ما بين أيدينا مِن الزمان، وما خلفنا من الزمان، وعلم ما بين ذلك في الحال والأوان.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: من المكان وهو السماء ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: من المكان وهو الأرض ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ﴾ أي: مما بين السماء والأرض؛ كل ذلك لله تعالى علماً ووجوداً وإحاطةً ومُلكاً وقدرةً.. سبحانه وتعالى.

وقال تبارك وتعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ أي: بتنزلات متعددة حسب مقتضى الحكمة الإلهية، فنزل الروح الجبريلي بالروح الأمْري القرآني ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: على ذلك القلب الكُلّي الجامع لكُلّيات القلوب وقوّاتها كلها وهو قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المستعد لهذا القرآن بكماله وتمامه ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

وقال سبحانه في بيان كمال استعداده صلى الله عليه وسلم وكمال قابليته لتلقي القرآن الكريم وتحققه بالمعاني القرآنية وانطواء هذه المعاني في قلب النبي صلى الله عليه وسلم.. قال جل جلاله: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما -كما روى الإمام أحمد والشيخان-:

(كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَالِجُ مِن التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ)

فكان صلى الله عليه وسلم يُحَرِّكُ شفتيه حين قراءة جبريل عليه حرصاً منه صلى الله عليه وسلم على الاحتفاظ بالقرآن وخشية أن يتفلَّت شيء منه (فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾ الآيات[1] أي: إن علينا أن نجمعَه ونحفظَه في صدرك يا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، وأنْ نُقْرِئك إياه على أحسن وجوه ترتيله، كما أنَّ علينا أنْ نبيّن لك معانيه حتى تبيّن للناس ما نزّل إليهم، فلقد تكفَّل الله سبحانه بهذه الأمور الثلاثة المهمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ﴾ أي حفظه بآياته وحروفه وكلماته وسُوَره، وجمعه بحقائقه وأسراره وخصائصه في قلبك يا محمد -صلى الله عليه وسلم- ولهذا كان صلى الله عليه وسلم مَجْمَعاً قرآنياً ولوحاً محفوظاً حافظاً للقرآن الكريم، بحيث لو أنك نظرت إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لقَرَأت القرآن الكريم من قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم لفظاً وترتيلاً، وتجد القرآن الكريم -بحقائقه ومعانيه- مُنْطَوِياً في قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم، حتى صار صلى الله عليه وسلم نسخة لحقائق القرآن الكريم.

---

[1] انظر المسند ٣٠٢٣ وصحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الصلاة

فهو صلى الله عليه وسلم قلب الحقائق القرآنية، كما وَصَفَتْه أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: (كان خُلُقُه القرآن)[1] فتقرأ فيه صلى الله عليه وسلم العفو والسماحة والكرم والشجاعة والبِرّ، وتقرأ فيه الدِّين والإيمان، وتقرأ فيه أنوار الله تعالى، وتقرأ فيه جميع ما يدلّك على الله تعالى، ولهذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي الجمع المُشْتَمِل على الأفراد والأنواع.

وإنَّ كل قلب توجَّهَ إلى قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ حظه من هذا القلب الجامع للمعاني القرآنية؛ هذا القلب يكون قلباً إنسانياً كاملاً، وأما القلب الفارغ عن شيء من معاني القرآن، والخالي عن شيء من حقائق تطبيق معاني القرآن: فإن صورة صاحبه تكون صورة إنسان ولكن حقيقته حيوانية تظهر جَلِيَّاً يوم القيامة على هيئة حيوان.

واعلم أن القلوب قد يعتريها المَسْخ أو الخَسْف أو النَّكْس، فإذا سَلِم القلب من المَسْخ والخَسْف والنَّكْس صار قلب إنسان كامل وصار له حظّ من الإنسانية الكاملة، وإلا فإن صورته صورة إنسان وقلبه قلب حيوان ... إما حمار أو كلب أو غير ذلك من الأنعام، ولذلك ضرب الله مثلاً لبعض البشر بالحمار، وضرب مثلاً لبعضهم بالكلب، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ ... الآية، وقال عز من قائل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْۚ﴾ ...الآية، وقال سبحانه واصفاً الكافرين عموماً: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

---

[1] مسند الإمام أحمد ٢٤٦٢٩

أما خسف القلوب فهو أن يأوي القلب إلى المعاني السَّافلة وينحط إلى الأمور الرَّذِيلة الحيوانية، ويُعْرِض عن العلوم السامية والمعاني العلوية النبوية، ويكتفي بالعلوم الأرضية الدنيوية، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾.

ولقد قال بعض العارفين رضي الله عنهم أجمعين: (القلوب جوَّالة) -وتشعر بهذا حيث إنك لا تستطيع أن تقطع الخواطر عن قلبك ولا لحظة؛ كما هو الحال في ظاهر القلب بالنَّبْض- (فقلب يجول حول العرش، وقلب يجول حول الحَشّ[1]) والحَشّ: الأمور المُزْدَرَاة المُحْتَقَرة.

وأما مَسْخ القلوب فهو أن يصير القلب على مثل قلب بعض الحيوانات كالحمار أو الكلب أو الخنزير...

وقد بيَّن الإمام الحافظ سُفيان بن عُيَيْنَة رحمه الله تعالى عند كلامه حول قول الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ بيَّن أن هناك مَن قلبه مِثْلُ قلب الحمار في البَلادة، وهناك مَن قلبه مثل قلب الكلب أو الخنزير في استباحة الخبائث واللجوء إلى النجاسات والقَاذُورات[2].اهـ

وإذا خلا القلب عن الشبه بقلوب الحيوانات كان قلب إنسان كامل، فمن أراد أن يكون قلبه قلب إنسان كامل فعليه أن يتّبع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأخلاق والآداب والأقوال والأفعال؛ لأنه صلى الله عليه وسلم جاء يُزَكِّي الإنسان ويرفعه عن رتبة الحيوانية إلى رتبة الإنسانية الكاملة العلوية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾.

---

[1] انظر كتاب (لطائف المعارف) ص ٢٤٥ للحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى.

[2] ارجع إلى ما قاله القرطبي والرازي والنيسابوري في تفاسيرهم حول هذه الآية الكريمة

وأما القلوب المَنْكُوسة -أي المَقْلُوبة- فقد أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ والزَّيْـغ: هو المَيَلان.

فلما مَالوا عن شرع الله إلى أهوائهم أمال الله قلوبهم فانْتَكست وصارت مقلوبة منكوسة بحيث صار صاحب هذا القلب يرى المعروف منكَراً والمنكَر معروفاً، ويرى الحلال حراماً والحرام حلالاً .... وهكذا.

ولقد أخبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك كله فقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام:

[كَيْفَ بِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا طَغَى نِسَاؤُكُمْ، وَفَسَقَ فِتْيَانُكُمْ؟

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ؟

قَالَ: نَعَمْ، وَأَشَدُّ مِنْهُ.

كَيْفَ بِكُمْ إِذَا تَرَكْتُمُ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ؟

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ؟

قَالَ: نَعَمْ، وَأَشَدُّ مِنْهُ.

كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا؟][1].

[1] انظر مسند أبي يعلى الموصلي والمعجم الأوسط للطبراني

وروى الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد عن حُذَيْفَةَ بن اليمان رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

[تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا[1]، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا[2] نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ[3] سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا[4] نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ] -أي: القلوب- [عَلَى قَلْبَيْنِ؛ **عَلَى أَبْيَضَ** مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ] -وهذا قلب المؤمن الصادق المتمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم- [**وَالْآخَرُ أَسْوَدُ** مُرْبَادًّا[5] كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا[6]] -أي: كالكأس المقلوب..

---

[1] قال سيدنا الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه في كتابه (حول تفسير سورة الحجرات): [عُودًا عُودًا]: (بضم العين أي: تلتصق ببعضها كعود الحصير المقرون بعضه ببعض.
وفي بعض الروايات: بفتح العين أي: تأتي الفتن وتعرض على القلوب وتعود بتتابع متواليةً.
وفي بعض النسخ: [عَوْذاً عَوَذاً] بالذال المعجمة أي: نعوذ بالله من ذلك عوذاً بعد عوذ. اهـ ملخصاً من شرح النووي والمرقاة.

[2] قال سيدنا الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه في كتابه (حول تفسير سورة العَلَق): أي: قَبِلها وسكن إليها

[3] النُّكتَةُ هي: الأثر

[4] أي: وَرَدَّها بقوة إيمانه

[5] قال في (المرقاة): (مربادّ) -بكسر الميم والدال المشددة- من قولهم: (اربادّ) أي: صار كلون الرماد؛ مِن الرّبدة -لون بين السواد والغبرة- وهو منصوب على الحال.

[6] بضم الميم وسكون الجيم وبخاء مكسورة، وياءُ آخرِه مشدّدة وقد تخفَّف، قال في (النهاية): وروي بتقديم الخاء على الجيم أي: مائلاً منكوساً، تشبيهاً بالكوز المقلوب لا يستقر فيه شيء من الماء، وهذا القلب قد استفرغ الإيمان فلم يبق منه شيء.
والعياذ بالله تعالى من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وهكذا شأن القلب المنكوس استفرغ الإيمان كله وصار- [لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ][1] أي: فما هَوِيَهُ هو الحسن، وما كرهه هو القبيح .. نسأل الله العافية.

وإن صاحب القلب الممسوخ يظهر على حقيقته يوم الحاقة الذي تحق فيه الحقائق، وتظهر فيه الدقائق وتنكشف الأمور والأستار.

روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ] -يعني عَمَّه- [آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ[2] فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تَعْصِنِي؟

فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ.

فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟

فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟

فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ] -أي: ضبع مُلطَّخ بالدماء، وهكذا يري اللهُ تعالى إبراهيمَ عليه السلام يريه آزر على حقيقته- [فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ][3] وبهذا يعلم إبراهيم عليه السلام أنه ليس عند آزر استعداد لدخول الجنة لأن حقيقته قد ظهرت على صورة ضبع مُلطَّخ بالدم؛ ولا يليق به دخول منازل الملوك.

وكما أن قلب سيدنا محمد الشريف صلى الله عليه وسلم هو مهبط لتنزلات كلام الله تعالى وهو مهبط لوحي الله تعالى؛ فهو مهبط أيضاً لنور الله الإيماني، وعن قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم تستمد القلوب، وعن قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم تُؤخذ الأنوار وتُنال الأسرار والعلوم والمعارف العالية.

---

[1] انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان ومسند الإمام أحمد ٢٢١٩٣

[2] أي: ظلمة وكآبة

[3] صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ أي: ولا تعجل بقراءة ما يوحى إليك من كلام الله من قبل أن ينقضي الوحي؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾.

أو: لا تستعجل بإنزال القرآن من قبل أن يقضيَ الله بإنزال ما ينزل.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ أي: وقل: رب زدني علماً، فإن الله تعالى هو أعلم بأوقات تنزيل القرآن ومناسباته ومواقفه فلا تستعجل الشيء قبل نزوله.

وقد يقال: وكيف كان صلى الله عليه وسلم يتعجل بقراءة شيء ولم ينقضِ إليه وحيه بعد؟ وأنَّى له ﷺ أن يعلم هذا؟

فيقال: إن جبريل عليه السلام لمّا كان ينزل بالقرآن على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحمل كلماته ومعانيه وأنواره فكان قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم يكشف عن جبريل ما جاء به مِن القرآن الكريم قبل أن يقرأه عليه جبريل عليه السلام -وهذا بالكشف النبوي المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم- فكان صلى الله عليه وسلم يقرأ قبل أن تنقضي قراءة جبريل عليه السلام فقال سبحانه له صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ أي إنما لكل مقام شؤونه وأحكامه، فهذا جبريل يقرأ القرآن عليك؛ وموقفه موقف المُلْقِي وأنت يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لك موقف المُتَلَقِّي، وهذا يقتضي منك يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن تقف عن القراءة حتى يفرغ جبريل من قراءته عليك، وهذا من باب قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ وقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أَدَّبَنِي ربِّي فَأَحْسَن تَأْدِيْبِي][1].

ففي هذه الآية بيان لموقف المُتَعَلِّم مع المُعَلِّم -وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أعْلمَ الأولين والآخرين-.

---

[1] كذا في: (الجامع الصغير) رامزاً لصحته.

وقوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ -أي كما هو الواقع-

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ -أي: ذكرنا فيه أنواعاً من المواعظ والزجر والعقوبات التي كانت أصابت الأمم السابقة لمَّا خالفوا أوامر الله تعالى-

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ -أي: لعلّهم ينتهون ويتركون الفواحش وما هم عليه-

﴿أَوْ﴾ -أي: لعل هذا الوعيد المختلف بأنواعه وأشكاله-

﴿يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ -أي: بالتفكر والتذكر في أوامر الله تعالى وأحكامه سبحانه؛ وأنه تعالى ما شرعها إلا لمصلحة البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وإلا فهو سبحانه لا يريد إحْرَاج العباد أو التضييق عليهم، ولا غاية له عندهم أن يعذبهم، بل هو الغني عنهم أزلاً أبداً، وإنما أراد سبحانه إكرامهم وإسعادهم، قال جل وعلا: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وأما نهيه سبحانه المرأة عن السُّفور فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والتبرج هو: أن تخرج المرأة بزينتها إلى المجتمَعات[1] -ويشمل ذلك التعطر بالرائحة الطيبة-.

روى الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم:

[مَثَلُ الرَّافِلَةِ فِي الزِّينَةِ[2] فِي غَيْرِ أَهْلِهَا كَمَثَلِ ظُلْمَة يَوْم الْقِيَامَةِ؛ لَا نُورَ لَهَا][3]

---

[1] انظر ما ذكره الحافظ ابن كثير حول تفسيره لهذه الآية الكريمة

[2] أي التي تتبختر في ثياب زينتها

[3] سنن الترمذي كتاب الرضاع

وإن الحجاب الشرعي هو الذي يحجب زينة المرأة ومحاسنها، وليس ما تلبسه من أثواب تشكِّل أطراف جسمها أو يَشُفُّ ويكشف عن جسمها أو وجهها... **فكل هذا لا يُعتبَر من الحجاب.**

وَرُبَّ امرأة لو أسفرت عن وجهها لَمَا نظر إليها الناس -لقباحتها- ولكنها لمّا تتعاطى أسباب الزينة -مما يُلبس على الرأس والوجه واليدين- يظن الجاهل أنها ذات جمال ويفتتن بها، وهكذا...

وروى الشيخان عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ[1]] -أي المُغَيَّبات كما جاء في سنن الدارمي قوله ﷺ: [لاَ تَدْخُلُوا عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ][2]-

[فَقَالَ رَجُلٌ مِن الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ[3]؟

قَالَ: الْحَمْوُ الْمَوْتُ][4]. و [الْحَمْوُ]: أخو الزوج الذي يدخل على زوجة أخيه، وقد بيَّن صلى الله عليه وسلم خطورة ذلك وشدة ضرره، وأنه يؤدي إلى موت القلب.

---

[1] جاء في عمدة القاري: (ويتضمن منعُ مُجَرّد الدُّخُول منعَ الْخلْوَة بهَا بِالطَّرِيقِ الأولى). اهـ ٢١٣/٢٠

[2] في كتاب الرقاق

[3] قال العَيْنِيّ في عمدة القاري: (وَفِي رِوَايَة ابْن وهب عِنْد مُسلم: وَسمعت اللَّيْث يَقُول: الحمو أَخُو الزَّوْج وَمَا أشبهه من أقَارِب الزَّوْج ابْن الْعمّ وَنَحْوه.
وَقَالَ النَّوَوِيّ: المُرَاد من [الحمو] فِي الحَدِيث أقَارِب الزَّوْج -غير آبَائِهِ وأبنائه- لأَنهم محارم للزَّوْجَة يجوز لَهُم الْخلْوَة بهَا، وَلَا يوصفون بِـ [الْمَوْتِ].
قَالَ: وَإِنَّمَا المُرَاد: الْأَخ وَابْن الْأَخ وَالْعمّ وَابْن الْعمّ وَابْن الْأُخْت وَنَحْوهم مِمَّن يحل لَهَا تزوجه لَو لم تكن متزوجة، وَجَرت الْعَادة بالتساهل فِيهِ، فيخلو الْأَخ بِامْرَأَة أَخِيه فشبّهه بِالْمَوْتِ. اهـ ٢١٣/٢٠

[4] صحيح البخاري كتاب النكاح وصحيح مسلم كتاب السلام

روى الترمذي عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ:

[خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ[1] فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا[2]فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ.

ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ[3]حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ.

أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ[4] إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ.

عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِن الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ.

مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ[5].

مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ[6]].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: [صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا؛ فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ؛ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ.

---

[1] وهي مكان قريب من دمشق لَمّا قدِمها يتفقد بعض الجيوش فخطب في الصحابة وغيرهم من التابعين رضي الله عنهم

[2] أي: إنه يمثّل المقام ويبلّغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

[3] أي: يتغير الناس بعد قرن الصحابة رضي الله عنهم وأتباعهم وأتباع أتباعهم

[4] أي: بامرأة أجنبية عنه، ليست من محارمه

[5] أي: ليلزمْ جماعة المسلمين، ولا يشذّ عن رأي جماعة المسلمين المؤمنين الكمَّل

[6] سنن الترمذي كتاب الفتن

وَكَانَ فِيمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ[1]، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

أَلَا فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ][2]... الحديث

وزاد في رواية مسلم: [فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ][3].

وروى الإمام البخاري عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِن النِّسَاءِ][4].

فيجب على المرأة أن تتوقى ذلك بالابتعاد عن مجتمعات الرجال، وألّا تَظهر بزينتها لتلفت الأنظار إليها.

جاء في الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ] -أي إذا وقعت على حرام-

[وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا -يَعْنِي زَانِيَة-][5] أي: زانية بالزنا الأصغر الذي يجر إلى الزنا الأكبر .

قوله سبحانه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ وهذا في الرد على من جحد وأنكر حكمة الله تعالى في شرعه، وأنكر أن في شرعه سبحانه مصلحة للعباد...

فهو سبحانه أجلّ وأكبر من أن يترك العباد دون أن يبيّن لهم ما يضرهم مما ينفعهم، وما يصلحهم وما يفسدهم وهكذا ... فهو سبحانه خلق الخلق بالحق وللحق.

---

[1] قال في (تحفة الأحوذي) ٣٦٥/٥: [إن الدنيا خَضِرة] بفتح فكسر أي ناعمة طرية محبوبة [حُلوة] بضم الحاء أي لذيذة حسنة، وإنما وصفها بالخضرة لأن العرب تسمي الشيء الناعم: خضراً؛ أو لشبهها بالخضروات في ظهور كمالها وسرعة زوالها، وفيه بيان أنها تفتِن الناس بلونها وطعمها.

[2] سنن الترمذي كتاب الفتن

[3] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

[4] صحيح البخاري كتاب النكاح

[5] سنن الترمذي كتاب الأدب

فقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ أي: علماً بك يا رب وبأسمائك مِن كلامك ووحيك.

وروى الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا. الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ][1].

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

[1] في سننه في كتاب الدعوات

آداب الاستئذان

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد شرع الله تعالى الاستئذان -وهو طلب الإذن من الغير للدخول عليه أو نحو هذا- وأوجبه على عباده في العالَمَين السماوي والأرضي، وذلك لأسرار وحِكم ستظهر لك إن شاء الله تعالى...

وإنّ الاستئذان: لتعظيمِ مَن تدخل عليه، ومِن هذا: استئذان الملائكة في صعودها وانتقالها من سماء إلى سماء وغير ذلك.

ويتضح ذلك جلياً في حديث معراجه صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، فعن مالك بن صعصعة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ.

قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ] -وأراد الوصفَ أي: النبي الكثير المحمودية عند أهل السماء والأرض.. صلى الله عليه وسلم-

[قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟] -أي أرسل الله إليه يدعوه لحضرته؟-

[قَالَ: نَعَمْ.

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ؛ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ][1].. الحديث

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب المناقب وصحيح مسلم كتاب الإيمان

وتأمل في قول خازن كل سماء لجبريل عليه السلام: [وَمَنْ مَعَكَ؟] ولم يقل كل منهم: (وهل أَحَدٌ معك؟) وكأنهم شعروا بوجود أحد مع جبريل عليه السلام ولم يعرفوا من هو..

نعم، لقد شعروا وأحسّوا بذلك لقوة النورانية المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم.

ومِن هذا يتبين لك أنه لا يمكن لأحد أن يدخل السماء إلا بإذن من الله تعالى.

أما الاستئذان في عالم الأرض فقد شرعه الله تعالى وأوجبه على عباده لعدة أمور ستظهر حكمتها من خلال الآيات الكريمة:

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾.

فقد بيَّن سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة أدب الاستئذان، وكيف يدخل الإنسان على إنسان آخر.

ولقد افتتح ذلك سبحانه بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ليُنبِّه على أن الاستئذان أمر من مقتضيات الإيمان، وليس من باب العرف والعادة الإنسانية.

ومعنى قوله تعالى: ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ أي: تستأذنوا، والاستئناس هو الاستعلام، أي: حتى تعلموا هل في الدار أحد أم لا؟

وطريقة ذلك بالاستئذان، فإن أذن لكم فادخلوا، وإلا فلا.

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي الاستئذان ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ لأنكم إذا تفكرتم وتذكرتم فإنكم ستدركون حكمة الاستئذان وتعلمون منافعه؛ لأنه ربما كان هذا الإنسان في بيته وهو في حالة لا يريد أن يطّلع عليها أحد.

ومن ناحية ثانية فإن مَن يدخل دون استئذان فهو كمن يدخل مُغِيراً مقاتِلاً، وهذا فيه من الوحشية والبهيمية ما فيه لأن الحيوان يدخل على الحيوان بدون استئذان.

وسبب نزول هذه الآية: ما جاء في الحديث الذي ذكره القرطبي في تفسيره أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حالٍ لا أحبُّ أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل عليَّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ ... فنزلت الآية.

ومن هنا يفهم العاقل أن أوامر الشريعة جاءت لمصالح الناس ومنافعهم، وليس فيها إحراج أو تضييق عليهم.

وقد أوجب الله تعالى الاستئذان على الرجل إذا أراد أن يدخل على آخر، وعلى المرأة إذا أرادت أن تدخل على أخرى.

ولا تتوهمنَّ المرأة أن الأبواب أمامها مباحة دونما استئذان.

وأما كيفية الاستئذان فقد بيّنها النبي صلى الله عليه وسلم بفعله ومقاله صلى الله عليه وسلم.

جاء في سنن أبي داود عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رضي الله عنهما قَالَ:

[زَارَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَنْزِلِنَا فَقَالَ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ) فَرَدَّ سَعْدٌ رَدًّا خَفِيًّا.

قَالَ قَيْسٌ: فَقُلْتُ: أَلَا تَأْذَنُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فَقَالَ: ذَرْهُ يُكْثِر عَلَيْنَا مِن السَّلَامِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ) فَرَدَّ سَعْدٌ رَدًّا خَفِيًّا.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ) ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّبَعَهُ سَعْدٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ تَسْلِيمَكَ وَأَرُدُّ عَلَيْكَ رَدًّا خَفِيًّا لِتُكْثِرَ عَلَيْنَا مِن السَّلَامِ.

قَالَ: فَانْصَرَفَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ لَهُ سَعْدٌ بِغُسْلٍ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ نَاوَلَهُ مِلْحَفَةً مَصْبُوغَةً بِزَعْفَرَانٍ أَوْ وَرْسٍ فَاشْتَمَلَ بِهَا، ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ)][1]... الحديث

وفي رواية: [فَجَاءَ بِخُبْزٍ وَزَيْتٍ فَأَكَلَ ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْطَرَ عِنْدَكُم الصَّائِمُونَ، وَأَكَلَ طَعَامَكُم الْأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُم الْمَلَائِكَةُ][2].

وجاء في الصحيحين عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ أَنَّ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ؛ وَكَأَنَّهُ كَانَ مَشْغُولًا، فَرَجَعَ أَبُو مُوسَى فَفَرَغَ عُمَرُ فَقَالَ:

أَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ؟ ائْذَنُوا لَهُ.

قِيلَ: قَدْ رَجَعَ، فَدَعَاهُ فَقَالَ: كُنَّا نُؤْمَرُ بِذَلِكَ.

فَقَالَ: تَأْتِينِي عَلَى ذَلِكَ بِالْبَيِّنَةِ.

فَانْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسِ الْأَنْصَارِ فَسَأَلَهُمْ فَقَالُوا: لَا يَشْهَدُ لَكَ عَلَى هَذَا إِلَّا أَصْغَرُنَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، فَذَهَبَ بِأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ فَقَالَ عُمَرُ:

أَخَفِيَ هَذَا عَلَيَّ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

أَلْهَانِي الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ)[3] يَعْنِي الْخُرُوجَ إِلَى تِجَارَةٍ، فجعل عمر يعاتب نفسه بأن الدنيا قد شغلته، وَفاتَه أن يسمع هذا من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] سنن أبي داود كتاب الأدب ومسند الإمام أحمد ١٤٩٢٨

[2] سنن أبي داود كتاب الأطعمة

[3] صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة وصحيح مسلم كتاب الآداب

فكان عمر رضي الله عنه يعلم أن الاستئذان يكون ثلاثاً، ولم يكن يعرف:

أن مَن استأذن ثلاثاً ولم يؤذَن له هل يرجع أم لا؟

حتى عرَّفه أبو موسى الأشعري رضي الله عنهم أجمعين.

وأما في هذا الزمان: فإن الاستئذان يكون بطرق الباب أولاً ثم ينتظر ثم ثانياً وينتظر ثم ثالثاً ، فإن أذن له صاحب الدار وخرج: سلم عليه؛ وإلا فليرجع.

وأما مدة انتظار المستأذن على الباب بين كل مرة ومرة فهي قدر صلاة مكتوبة أربع ركعات[1].

ولمّا اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على حجرته باباً جعل كلٌّ من الصحابة رضي الله عنهم يستأذنون عليه بطرق الباب طرقاً خفيفاً برؤوس الأصابع[2].

كما يُطلَب مِن المستأذن حين استئذانه: ألّا يقف تلقاء الباب؛ بل عليه أن يقف على يمين الباب أو يساره، وذلك لئلا يقع نظره على شيء مُحرَّم، أو على أمر يكره صاحب البيت أن يراه غيره -مِن متاع أو غيره-.

---

[1] جاء في حاشية ابن عابدين: (يَسْتَأْذِنُ لِلدُّخُولِ ثَلَاثًا؛ يَقُولُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ، أَيَدْخُلُ فُلَانٌ؟) وَيَمْكُثُ بَعْدَ كُلِّ مَرَّةٍ مِقْدَارَ مَا يَفْرُغُ الْآكِلُ وَالْمُتَوَضِّئُ وَالْمُصَلِّي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، فَإِذَا أُذِنَ لَهُ دَخَلَ وَإِلَّا رَجَعَ). اهـ ٤١٣/٦

[2] روى الإمام البخاري في (الأدب المفرد) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبواب النبي صلى الله عليه وسلم كانت تُقْرَعُ بالأظافير.
وقال المُنَاوِي في (فيض القدير): رواه الحاكم في كتاب (الكُنَى والألقاب) ورواه أيضاً البخاري في (تاريخه) ورواه أبو نُعيم ورواه البيهقي في (الشُّعَب) أيضاً. اهـ ٢١٦/٥

روى أبو داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رضي الله عنه قَالَ:

[كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تِلْقَاءِ وَجْهِهِ؛ وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ أَو الْأَيْسَرِ، وَيَقُولُ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ) وَذَلِكَ أَنَّ الدُّورَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ سُتُورٌ][1].

وإن النظر إلى داخل الدار لا يجوز لأن: [الاستئذان مِن النظر] -أي: شُرع لأجله- ولو لم يكن في الدار نساء، لأنه لا يحل للمستأذن أن ينظر داخل الدار إلا بإذن صاحبها، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره عَنْ طَلْحَةَ عَنْ هُزَيْلٍ رحمه الله تعالى قَالَ:

[جَاءَ رَجُلٌ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنُ، فَقَامَ عَلَى الْبَابِ -قَالَ عُثْمَانُ[2]: مُسْتَقْبِلَ الْبَابِ- فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَكَذَا عَنْكَ أَوْ هَكَذَا؛ فَإِنَّمَا الِاسْتِئْذَانُ مِن النَّظَرِ][3].

وروى الطبراني من حديث أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [.... وَمَنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَلا يَدْخُلْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ حَتَّى يَسْتَأْنِسَ وَيُسَلِّمَ، فَإِذَا نَظَرَ فِي قَعْرِ الْبَيْتِ فَقَدْ دَخَلَ][4].

ومن استأذن ثم أذن له بالدخول فلينظر طريقه الذي يريد صاحب البيت أن يدخله إليه، ولا يلتفت يميناً وشمالاً، ثم إذا جلس في موضعه من البيت فلا يحلّ له أن يبحث في نواحي البيت كأن يفتح خزانة أو نحو هذا إلا بإذن صاحب البيت.

---

[1] سنن أبي داود كتاب الأدب ومسند الإمام أحمد ١٧٠٣٢
وقال في (عون المعبود شرح سنن أبي داود):
(أَنَّ الدُّور): جَمْع الدَّار أَيْ أَبْوَابهَا
(لَمْ تَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ سُتُورٌ) جَمْع سِتْر بِالْكَسْرِ وَهُوَ الْحِجَاب

[2] هو عثمان بن أبي شيبة رحمه الله تعالى، أحد رواة هذا الحديث الشريف

[3] سنن أبي داود كتاب الأدب ومصنف ابن أبي شيبة وشعب الإيمان للبيهقي

[4] طرف حديث في المعجم الكبير للطبراني

ومَن استأذن ولم يؤذَن له أو قيل له: (ارجع) -لِعُذْرٍ ما- فليرجع وهو سليم الصدر حسن النية، قال تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾.

وإذا قيل للمستأذن: (مَن ذا؟) عليه أن يصرّح باسمه لكي يُعرف من هو، ولا يقل: (أنا أنا) فإن هذا لا يدلّ على شخصه.

جاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

[أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دَيْنٍ كَانَ عَلَى أَبِي؛ فَدَقَقْتُ الْبَابَ فَقَالَ: مَنْ ذَا؟

فَقُلْتُ: أَنَا.

فَقَالَ: أَنَا أَنَا، كَأَنَّهُ كَرِهَهَا] [1]-وفي هذا تأديب من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر بأسلوب رقيق-.

وأما استئذان المرأة على المرأة فقد قال الحافظ ابن كثير:

أخرج ابن أبي حاتم عن خَالِدَ بْنِ إِيَاسٍ قال: حَدَّثَتْنِي جَدَّتِي أُمُّ إِيَاسٍ قَالَتْ: (كُنْتُ فِي أَرْبَعِ نِسْوَةٍ نَسْتَأْذِنُ عَلَى عائشة، فقلتُ: ندخل؟

فقالت: لَا؛ قُلْنَ لِصَاحِبَتِكُنَّ: تَسْتَأْذِنُ، فَقَالَت: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَنَدْخُلُ؟

قَالَت: ادْخُلُوا، ثُمَّ قَالَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾[2].

ويستحب الاستئذان لمن أراد الدخول على أحد من مَحارمه -كأمه أو أخته أو والده- ويكون هذا الاستئذان بأن يُشعِرهم بأنه يريد الدخول عليهم وذلك بأن يتنحنح أو يتكلم أو يطرق الباب ونحو ذلك.

---

[1] صحيح البخاري كتاب الاستئذان وصحيح مسلم كتاب الآداب

[2] انظر ما ذكره ابن كثير في تفسيره حول هذه الآية الكريمة.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم)[1].

وروى الإمام مالك عَنْ عَطَاء بْنِ يَسَارٍ رحمه الله تعالى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟

فَقَالَ: نَعَمْ.

قَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا.

فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا؛ أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟!

قَالَ: لَا.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا][2].

وَعَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: (إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ اسْتُحِبَّ لَهُ أَنْ يَتَنَحْنَحَ أَوْ يُحَرِّكَ نَعْلَيْهِ)[3].

وقالت زوجة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كَانَ عَبْدُ اللَّهِ إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَانْتَهَى إِلَى الْبَابِ: تَنَحْنَحَ)[4] أي: لئلا يدخل عليهم فجأة.

---

[1] عزاه الحافظ السيوطي في (الدر المنثور) إلى ابن جرير والبيهقي

[2] في (الموطأ) في كتاب الجامع

[3] انظر (تفسير ابن كثير) ٣٦/٦ و (الآداب الشرعية) لابن مفلح الحنبلي ٣٩٩/١

[4] انظر تفسير ابن كثير ٣٩/٦

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾ هي البيوت المُعَدَّةُ للعموم كالخانات فلا جناح عليكم أن تدخلوها لمنافع لكم مِن بيع أو شراء، ولا يجوز دخولها دون استئذان إذا كانت مسكونة من قبل أناس معيّنين.

وقد شرع الله تعالى الاستئذان للصبيان وأمر بتعليمهم ذلك فقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ ..الآية.

وسبب نزول هذه الآية: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ غُلامًا مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ (مُدْلِجٌ) إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ظَهِيرَةً لِيَدْعُوَهُ، فَوَجَدَهُ نَائِمًا قَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ الْبَابَ، فَدَقَّ الْغُلامُ الْبَابَ فَنَادَاهُ وَدَخَلَ، فَاسْتَيْقَظَ عُمَرُ وَجَلَسَ فَانْكَشَفَ مِنْهُ شَيْءٌ، فَقَالَ عُمَرُ : (وَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ نَهَى أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَخَدَمَنَا عَنِ الدُّخُولِ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ إِلا بِإِذْنٍ) ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ هَذِهِ الآيَةَ قَدْ أُنْزِلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾، فَخَرَّ سَاجِدًا شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى[1]، وكان هذا من موافقات عمر رضي الله عنه .

وأوقات الاستئذان هذه هي الأوقات التي يُظَنُّ فيها أن الرجل خالٍ مع أهله أو مع نفسه، قال جل وعلا: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾..

[1] انظر ما ذكره الإمام القرطبي حول تفسيره للآية الكريمة

فهي: قبل الفجر وبعد الظهر -وهو وقت الاستراحة والنوم- وفي الليل، أما غيرها من الأوقات فلا يجب على الشخص الاستئذان -ما دام صغيراً- أما إذا بلغ فليستأذن في كل الأوقات -كما هو شأن البالغين-، قال سبحانه في الآية التي بعدها: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.. الآية.

ويجب على الأب أن ينهى ولده الصغير إذا سمعه يصف امرأة أجنبية عنه كَجارَةٍ ونحوها.

كما لا يجوز أن تصف المرأةُ لزوجها امرأةً أجنبية عنه، ولا يحل لرجل أن يسمع ذلك؛ بل يجب عليه أن ينهاها.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

آداب المناجاة

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد أرشد الله تعالى عباده إلى أدب المناجاة مع بعضهم، وإلى آدابهم في مجالسهم، وصدَّرَ هذه الآداب والمواعظ بآية يبيّن فيها سبحانه إحاطة عِلمه بالإنسان في سائر أحواله وأوضاعه، وأنه سبحانه مع الكلّ في سرهم ونجواهم، فليحذر الإنسان هذا وليراقب ذلك، ولا يخالفْ ما نهى الله عنه؛ لأن الله تعالى معه ، ومُطَّلِعٌ عليه ، ومحيط به بقدرته وبصره وعلمه إحاطة لائقة به سبحانه، قال جل وعلا:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾.

فقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: ألم تر خلْق الله تعالى مِن سماوات وأرض وغيرهما؟

وما دام هو سبحانه خلقها فهو جل جلاله أعْلَمُ بها؛ قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ وهذا إثبات على أنّ مَن رأى الخلق يجب أن يعلم أن الله تعالى عالِم بالخلق لا محالة؛ إذ كيف يُتصور أن يَخلُق سبحانه شيئاً ولا يعلمه؟!

ولذلك فإن قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أي: أَلَمْ تَرَ خلْق الله تعالى؛ فإنها رؤية تحمل على اليقين بعلم الخالق بالخلق.

قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ وقد بدأ بعدد الثلاثة لأنه أول الأعداد الوترية؛ والله تعالى [وِتر يحب الوتر][1]، أما عدد الاثنين فهو أول الأعداد الشَّفْعية، وأما الواحد فليس من الأعداد وليس له مرتبة واحدة بل يتقلب في كل المراتب؛ فله كل المراتب، فإن عدد الاثنين موجود فيه الواحد مرتين، وعدد الثلاثة موجود فيه: واحد واحد واحد، وهكذا.... فالواحد له كل المراتب، وفي هذا عِبرة لأولي الألباب.

وأشار سبحانه إلى الأعداد الشَّفْعية بقوله جل وعلا: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي أدنى من الثلاثة وهو عدد: الاثنين ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ فهو معهم معية لائقة بجلاله وكماله سبحانه، وهو معهم مِن حيث غاب عنهم؛ فلا يرونه بالأبصار بل تشاهده القلوب على حسب صفائها، وهذه المعيّة المشار إليها في الآية إنما هي معية عامة.

وهناك المعية الخاصة بالتأييد والنصرة والرعاية كما قال سبحانه لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾، ومنه قوله تعالى مخبراً عن سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.

وهناك معية خاصة للمؤمنين المتقين، قال جل وعز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾.

---

[1] انظر صحيح مسلم كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار

ولا تُشاهَدُ هذه المعية الخاصة إلا بصفاء النفس وتزكيتها من الرعونات، وطريق ذلك: الإكثار من ذِكر الله تعالى؛ فإن الله تعالى له معيّة خاصة لذاكره، كما قال سبحانه في الحديث القدسي: [أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي...] الحديث[1].

فمَن واظب على ذِكر الله تعالى واستحكم الذِّكر في قلبه وروحه: شاهد معية الله له بقلبه، وفي هذا يقول عليه أفضل الصلاة والتسليم:

[ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ:

مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ، طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، رَافِدَةً عَلَيْهِ كُلَّ عَامٍ، وَلَا يُعْطِي الْهَرِمَةَ[2] وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ وَلَا الشَّرَطَ اللَّئِيمَةَ[3]، وَلَكِنْ مِنْ وَسَطِ أَمْوَالِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ][4].

وفي رواية: [وزكّى نفسه، فقال رجل: ما تزكية المرء نفسه؟

قال صلى الله عليه وسلم: أن يعلم أن الله معه حيثما كان][5].

ووسيلة ذلك: مراقبة الله تعالى على الدوام بإكثار ذِكره في اللسان حتى يستحكم ذلك في الجَنان[6]

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد عن أبي هريرة رضي الله عنه

[2] الكبيرة السِّنّ

[3] قال في عون المعبود شرح سنن أبي داود:
[الدرنة] -بفتح الدال بعدها راء مكسورة- هي الجَرْباء، و[الشرط] -بفتح الشين والراء- هي صغار المال وشراره، و[اللئيمة] هي البخيلة باللبن.
وقال في النهاية: [الشرط اللئيمة]: أي: رذال المال، وقيل: صغاره وشِراره.

[4] سنن أبي داود كتاب الزكاة

[5] رواها البخاري في التاريخ الكبير والبيهقي في السنن الكبرى والطبراني في المعجم الصغير وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني وأبو نعيم في معرفة الصحابة

[6] أي: القلب

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ لأنه سبحانه معهم في الدنيا فيجزيهم بما عملوا يوم القيامة.

ثم قال عز من قائل:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨﴾.

وكان سبب نزول هذه الآية أن قوماً كانوا يتناجون فيما بينهم -سراً- بكلام فيه إيهام للمؤمنين بالأذى والضرر -وكأنهم يدبّرون لهم مكيدة- فشكا بعض الصحابة -رضي الله عنهم جميعاً- شكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى القومَ عن ذلك فلم ينتهوا، فأنزل الله تعالى :﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ وهي الكلام الخفي الذي فيه إيهام السوء والضرر بالغير بالباطل والعدوان[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ ..

أخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حيّوه: "سامٌّ عليك"، -والسّامّ هو الموت- فنزلت الآية[2].

وجاء في تفسير الطبري أن قوماً كانوا أحياناً يقولون: [السأم عليكم] -يعني السآمة والملل من دينكم تقع عليكم -.

فكان صلى الله عليه وسلم يجيب من يقول له ذلك؛ يجيبه فيقول صلى الله عليه وسلم: [وعليكم] يعني يجيبهم ويرد سامّهم عليهم .

---

[1] ارجع إلى تفسير ابن كثير للآية الكريمة

[2] انظر ما ذكره الحافظ السيوطي في تفسيره للآية الكريمة

كما أن بعض المنافقين كانوا يحيّون رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لم يحيّه به الله، فيقولون: "أَنْعِم صباحاً " أو "أنعم مساء" متجنبين النطق بتحية الإسلام، ومستعملين تحية الجاهلية[1].

وإن التحية بـ (صباح الخير) أو (مساء الخير) أو (مرحباً) ليست تحية إسلامية، إنما التحية الإسلامية التي شرعها الله تعالى هي: [السلام عليكم]، ثم بعد ذلك لا بأس أن تقول: (صبّحك الله بالخير) أو غير ذلك من ألفاظ الترحيب.

وإن تحية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم هي التي جاءت في الحديث الشريف عندما علّم رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة التشهد - وفيه بيان كيفية السلام عليه بأن يقولوا: [السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ][2]-.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ فكان هؤلاء القوم -بعدما يحيّون رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية سيئة- يقولون: "لو كان نبياً حقاً لعجّل الله عقوبتنا"[3].

قال الله تعالى: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨﴾ فلم يعرفوا أن تأخير العذاب والعقوبة هو رحمة لهم بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾.

---

[1] انظر تفسير البيضاوي للآية الكريمة

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجمعة عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا نَقُولُ التَّحِيَّة فِي الصَّلَاةِ وَنُسَمِّي وَيُسَلِّمُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: [قُولُوا: (التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.
أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ].

[3] انظر تفسير الثعالبي للآية الكريمة

ثم قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾.

فقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: باعتبار أنكم آمنتم فإن إيمانكم يقتضي منكم ﴿إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: إذا أسرَّ أحدكم إلى آخر بكلام فليكن في هذا الكلام الخير والبر والتقوى، ولا يكن فيه تعريض بالغير أو إيهام ضرره؛ وما هذا إلا لأن الله سبحانه يحب التآلف بين المؤمنين ونشر المحبة بينهم، فنهى عن سبل التفرقة والبغضاء بينهم حتى إنه سبحانه نهى عن تعاطي الأمور الموهِمة ذلك فيما بينهم، فمِن باب أولى أن لا يتعاطوا حقيقة التفرقة والبغضاء كالغيبة والحقد والحسد وغيرها...

وفي هذا يقول عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم: [إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ][1]-ولو كان كلامهما خيراً -لأن في ذلك انتقاصاً للثالث وعدم العبء به؛ مما يبعث على حزنه وضيق نفسه -إلا أن يكون ذلك بإذنه ورضاه-.

﴿وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ وهو الخير المتعدي أثره إلى الغير، والتقوى: البُعد عن الحرام.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩٦﴾ أي أنكم ستحشرون إلى الله تعالى، وسيجري التناجي بينكم وبين الله تعالى ويَعْرض عليكم أقوالكم وأعمالكم، فمن أساء منكم المناجاة بينه وبين غيره ساء أمره في الآخرة، ومن أحسن النجوى في الدنيا أحسن الله مناجاته إليه.

---

[1] صحيح البخاري كتاب الاستئذان وصحيح مسلم كتاب السلام واللفظ له.

وقد جاء في مناجاته سبحانه للمؤمنين ما ورد في الصحيحين عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ الْمَازِنِيِّ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا آخِذٌ بِيَدِهِ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟

فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

[إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ؛ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟

فَيَقُولُ: (نَعَمْ أَيْ رَبِّ) حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: (سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا؛ وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ) فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾]١.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي أن الشيطان يزيّن للمرء ويوسوس له أن يتناجى مع آخر ليوهِم غيره بالضرر والأذى؛ أو يوهمه أن ذلك بِداعي السخرية والاستهزاء منه مما يؤدي إلى وقوع التفرقة والبغضاء في القلوب ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي فيلقي فيما بينهم ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

---

١ صحيح البخاري كتاب المظالم والغصب وصحيح مسلم كتاب التوبة

آداب المجلس

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد بيَّن الله تعالى الآداب التي ينبغي اتباعها في المجالس فقال جل وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَـٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَـٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾.

وسبب نزول هذه الآية [1]أن سيدنا رسول الله ﷺ كان جالساً في الصُّفَّة وحوله جماعة من الصحابة وكلٌّ منهم يريد القرب من رسول الله ﷺ -وكل مؤمن على مر الزمان يحب القرب من سيدنا رسول الله ﷺ ويسعى إلى ذلك- ثم قَدِمَ جماعة من الصحابة ممن حضروا بدراً -وكان ﷺ يكرم أهل بدر لِما لهم من الفضل والأجر فهم الذين نصروا دين الله ورفعوا راية الإسلام- ولم يجدوا مجلساً قريباً من رسول الله ﷺ وكان فيهم ثابت بن قيس بن شماس -وكان في سمعه شيء من الثّقل- فوقفوا وراء رسول الله ﷺ وقالوا: (السلام عليكم، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) -سلَّموا على الجمع وخصصوا سيدنا محمداً ﷺ - فقال ﷺ لجماعة حوله -ممن لم يشهد بدراً-: [قم يا فلان، قم يا فلان] -على عدد الذين جاؤوا، وأجلسهم مكانهم- فقام هؤلاء وأبعدوا مجلسهم عن رسول الله ﷺ قليلاً، فشقَّ ذلك عليهم -لأن الكل يريد القرب من سيدنا محمد ﷺ فراح المنافقون يقولون: "انظروا إلى محمد" - ﷺ - "لم يعدل؛ فإن هؤلاء سبقوا إلى المكان وجاء بعدهم آخرون فأجلسهم مكانهم"

-وهذا شأن المنافق أن يتربص الأمور المُوهِمَة؛ وتظهر حقيقته عندها-

---

[1] كما جاء في تفسير الحافظ ابن كثير وعزاه لابن أبي حاتم

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [رَحِمَ اللهُ رجُلاً فَسَح لأخيه] فجعلوا يقومون بعد ذلك سِراعًا، فَتَفَسَّحَ القومُ لإخوانهم وأنزل الله تعالى بياناً لحقيقة هذا الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ﴾ أي وسِّعوا في المجالس ﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ قوموا من المجلس ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ أي انهضوا وقوموا وامتثلوا الأمر، فإن الأمر لصاحب المجلس، وهو يعلم المصلحة ويعالج الأمر بالحكمة دونما انتقاص لجليس أو نحو هذا.

وهذا الحق لصاحب المجلس لا للرجل الذي يريد الجلوس، فلا يجوز لرجل أن يقول لجليس: (قُم) ليجلس مكانه، بل يطلب منه التفسح: أي أن يوسّع له مكاناً -إذا كان في المجلس متسع، وإلا فلا يحق له أن يزيحه من مجلسه كي يجلس مكانه، بل الأمر لصاحب المجلس، وفي هذا يقول سيدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم:

[لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ][1] وفي رواية مسلم:

[وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا][2].

وقوله تعالى: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أي يفسح لكم فسحاً عاماً شاملاً في الرزق والإيمان والقلب، ويفسح لكم منازلكم في الآخرة؛ وهذا لأن الجزاء من جنس العمل، ونظيره: ما ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ][3].

---

[1] صحيح البخاري كتاب الاستئذان

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب السلام

[3] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

وأما النشوز: فهو النهوض بنشاط، وأول ما يشمل قوله تعالى:﴿فَٱنشُزُواْ﴾: أن ينهض الجليس عن المجلس إذا طلب ذلك منه صاحب المجلس لمصلحة وحكمة، ولا ينبغي لمن طُلب منه ذلك أن يجد في نفسه غضاضة بل يمتثل أمر الله في ذلك ويتواضع لله تعالى.

كما يشمل قوله تعالى: ﴿فَٱنشُزُواْ﴾: أي: إذا طُلب منكم النهوض لمساعدة إنسان أو نحو ذلك - ويشمل هذا النشوز للحرب والقتال في سبيل الله جل وعلا-.

والمعنى العام لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾: أي: انهضوا في مصلحة للأمة ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ ولا تتقاعسوا في ذلك ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: آمنوا إيماناً كاملاً، فمن تفسح ووسَّع فسح الله له في الدنيا والآخرة، ومن نشز فقد امتثل أمر الله، ومن تواضع لله رفعه الله، لذلك قال جل جلاله:﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ أي لأنهم امتثلوا أمر الله فيما أمر فإن الله يرفع درجاتهم ومراتبهم ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ أي يرفع العلماء كما يرفع المؤمنين وزيادة، لأن لهم فضلاً على غيرهم، والمراد من العلم: العلم الذي يوجب الخشية من الله تعالى كما قال عزّ شأنه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

وقال صلى الله عليه وسلم: [... وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ][1].. الحديث

[1] طرف حديث في سنن أبي داود كتاب العلم وسنن ابن ماجه في المقدمة

وقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: [بيْن العالم والعابد مائة درجة؛ بين كل درجتين حُضر[1] الجواد المُضْمَر سبعين سنة] [2].

وفي رواية: [فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ سَبْعُونَ دَرَجَةً، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ] [3].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ أي فلتكونوا في أعمالكم مخلصين قلباً وقالَباً، ظاهراً وباطناً.

ثم بيَّن سبحانه الأدب الخاص مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم -لأن له ﷺ مقاماً خاصاً- فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ أي: إذا أردتم أن تُحادثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام خفي -كسؤال أو استفهام عن أمر شرعي أو غير ذلك- فيجب عليكم أن تتصدقوا قبل أن تبدؤوا ذلك.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ أي ذلك فيه خير لكم، وخير مُتَعَدٍّ للغير، وأطهر لنفوسكم.

ولقد أمر الله تعالى في هذه الآية بالتصدق لمن أراد أن يناجي سيدنا رسول الله ﷺ بحديث -والصدقة على من يقْدر- ومن لم يجد فإن الله يتصدق عنه، قال جل وعلا: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾.

---

[1] أي: عَدْو

[2] ذكره الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) وقال الإمام العراقي في تخريجه ٤٤/١: أخرجه الأصبهاني في (الترغيب والترهيب) من حديث عبد الله بن عمرو، وكذا رواه صاحب (مسند الفردوس) من حديث أبي هريرة. اهـ

[3] مسند أبي يعلى الموصلي

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَأَبُو يَعْلَى وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَالنَّحَّاسُ وَابْنُ مَرْدويهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه وكرَّم اللهُ وجهَهُ قَالَ: [لَمَّا نزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ قَالَ لِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا تَرَى؛ دِينَارًا؟

قُلْتُ: لَا يُطِيقُونَهُ.

قَالَ: فَنِصْفَ دِينَارٍ؟

قُلْتُ: لَا يُطِيقُونَهُ.

قَالَ: فَكَمْ؟

قُلْتُ: شَعِيرَة] -أي وزن شعيرة من ذهب-

[قَالَ: إِنَّكَ لَزَهِيدٌ] أي زاهد.

وقد استمر الحكم بالوجوب بهذا الأمر مدة قصيرة، وفي تلك المدة لم يسأل أحدٌ سيدَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُناجِهِ إلا علي رضي الله عنه الذي قال: (كان معي دينار فبِعته بعشرة دراهم، فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن عشر خصال وقدَّمتُ بين يدي نجواي عشرة دراهم).

ثم إن الله تعالى نسخ الوجوب بهذا الأمر وجعله مندوباً، قال عز وجل: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ﴾ أي أَخِفتم من كثرة الصدقات ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ولهذا قال سيدنا علي رضي الله عنه: (فَبِي خَفَّفَ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ)[1] أي: بسببي.

وأما الحكمة من هذا فقد أشار إليها سبحانه بقوله عزَّ مِن قائل: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي أن خير تلك الصدقة مُتَعدٍّ؛ ففيه توسعة على الفقراء بالمال، فالذي يريد أن ينتفع بالعلم ينبغي عليه أن ينفع الناس بالمال.

ثم إن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يردّ أحداً -لأنه ﷺ عظيم الخُلُق-، وربما جاء أحدٌ -ولم تكن مسألته ذات أهمية- فلما أوجب الله الصدقة في ذلك جعل الناس لا يأتون للسؤال إلا إذا كان الأمر مهماً وفيه مصلحة ومنفعة.

وفي ذلك أيضاً امتحان للرجل: هل للمال قيمة عنده تجاه أخذه للعلم وانتفاعه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أن المال لا قيمة له عنده؟

ومن ناحية أخرى فإن ذلك فيه طهر للنفس وتزكية لها، فإن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار[2]، وكل إنسان لا يخلو من الخطايا على حسبه، وإن مناجاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تليق إلا لمن كان طاهراً عن الذنوب نظيفاً من الأدناس، فكانت تلك الصدقة تطهره وتؤهله للاجتماع بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستفادة منه صلى الله عليه وسلم.

---

[1] ارجع إلى ما جاء في (فتح القدير) للشوكاني ٢٢٨/٥ وانظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي و(سنن الترمذي) كتاب تفسير القرآن و(صحيح ابن حبان) كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة و(مسند البزار) و(مسند عبد بن حميد) و(السنن الكبرى) للنسائي و(مصنف ابن أبي شيبة) و(مسند أبي يعلى الموصلي).

[2] كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه الإمام الترمذي في سننه كتاب الإيمان

ولهذا استحب الصالحون رضي الله عنهم لمن ذهب إلى المسجد وأراد الصلاة فيه -باعتبار أن الصلاة فيها مناجاة لله تعالى كما ورد في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ..][1] الحديث -استحبوا أن يقدّم هذا الإنسان صدقة بين يدي نجواه لله تعالى، لأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو باب الله جل وعلا، وما دام لا يمكن الدخول من الباب إلا بالصدقة فمن باب أولى أن يقدّم المرء صدقة بين يدي نجواه لله جل جلاله.

والصدقة على أنواع:

فالمقتدر يتصدق بالمال، وإلا [فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَن الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ][2]وغير ذلك مما بيّنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]..

وقد بقي هذا الحكم مندوباً إلى يوم الدين؛ فيستحب لكل من وجّه قلبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وناجاه يستحب له أن يقدّم بين يدي نجواه صدقة.

ولو أن الأمر كان واجباً إلى يوم الدين لكان مانعاً لكثير من المسلمين أن يفهموا حقائق دينهم لأنه لا بد للإنسان أن يأخذ دينه عن كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم -وذلك بالاستماع إلى مجالس العلم وسؤال العلماء- ولا بد لكل سؤال من صدقة، ولكن مِن رحمة الله الواسعة بهذه الأمة نسخ الوجوب وترك الأمر مندوباً.

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الصلاة واللفظ له وصحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

[3] كالذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [وَتُمِيطُ الْأَذَى عَن الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ].. وإماطة الأذى: إزالة كل ما يؤذي المسلمين؛ إزالته عن طريقهم.

ويقال: (نُسخ هذا الحكم) أو (تغيَّر هذا الحكم) وذلك بالنسبة للخلق، أما بالنسبة للحق سبحانه فهو بيان منه سبحانه لانتهاء مدة الحكم، وذلك لأن الأحكام الشرعية إنما هي علاجات للأمة، وقد تنتهي مدة المعالجة بهذا الحكم؛ وذلك حسب حكمة الله سبحانه.

وإن الآيات التي نُسخت -أي نُسخ الحكم بها- لا تتجاوز خمس أو ست آيات، كما أن منها أحكاماً نُسخت فرضيتها وبقي استحبابها.

ويجب على العاقل ألّا يتوهم أن النسخ يوجب البَداء[1] -والبداء يعني أنه سبحانه نَسَخَ ذلك الحكم أو بدَّله لأنه بَدَا لَهُ أن الحكم الآخر أَصلحُ للخلق - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؛ فهو سبحانه عالم بالأشياء قبل خلقها،

---

[1] جاء في (لسان العرب)٦٥/١٤: البداءُ: استصواب شيء عُلِم بعد أَن لم يُعْلَم؛ وذلك على الله غير جائز. اهـ
وقد تكلم الإمام القرطبي رحمه الله تعالى ورضي عنه في تفسيره عن النسخ ثم قال: وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْبَدَاءِ، بَلْ هُوَ نَقْلُ الْعِبَادِ مِنْ عِبَادَةٍ إِلَى عِبَادَةٍ، وَحُكْمٍ إِلَى حُكْمٍ، لِضَرْبٍ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، إِظْهَارًا لِحِكْمَتِهِ جَلَّ وَعَلَا.
ولا خِلَافَ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ أَنَّ شَرَائِعَ الْأَنْبِيَاءِ قُصِدَ بِهَا مَصَالِحُ الْخَلْقِ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ، وَإِنَّمَا كَانَ يَلْزَمُ الْبَدَاءُ لَوْ لَمْ يَكُنْ سُبْحَانَهُ عَالِمًا بِمَآلِ الْأُمُورِ، وَأَمَّا الْعَالِمُ بِذَلِكَ فَإِنَّمَا تَتَبَدَّلُ خِطَابَاتُهُ بِحَسَبِ تَبَدُّلِ الْمَصَالِحِ، كَالطَّبِيبِ الْمُرَاعِي أَحْوَالَ الْعَلِيلِ، فَرَاعَى سُبْحَانَهُ ذَلِكَ فِي خَلِيقَتِهِ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَخِطَابُهُ يَتَبَدَّلُ، وَعِلْمُهُ وَإِرَادَتُهُ لَا تَتَغَيَّرُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُحَالٌ فِي جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى.
قَالَ النَّحَّاسُ: وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّسْخِ وَالْبَدَاءِ: أَنَّ النَّسْخَ تَحْوِيلُ العبادة من شيء إلى شيء قَدْ كَانَ حَلَالًا فَيُحَرَّمُ، أَوْ كَانَ حَرَامًا فَيُحَلَّلُ.
وَأَمَّا الْبَدَاءُ فَهُوَ تَرْكُ مَا عُزِمَ عَلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: "امْضِ إِلَى فُلَانٍ الْيَوْمَ"، ثُمَّ تَقُولُ: "لَا تَمْضِ إِلَيْهِ" فَيَبْدُو لَكَ الْعُدُولُ عَنِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، وَهَذَا يَلْحَقُ الْبَشَرَ لِنُقْصَانِهِمْ. اهـ ٦٣/٢
وانظر البحث في (المستصفى) ص ٨٨ للإمام الغزالي رحمه الله تعالى ورضي عنه

وهو جل جلاله أعلمُ بمصالحها ومنافعها قبل إيجادها، ثم خلقها سبحانه وأوجدها وشرع لها على موجب علمه وحكمته سبحانه وتعالى.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذِكره الغافلون؛ صلاة وسلاماً دائمين إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، والحمد لله رب العالمين.

كُتُب للمُؤَلِّف

* حول تفسير سورة الفاتحة -أمّ القرآن الكريم.
* حول تفسير سورة الحجرات.
* حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾.
* حول تفسير سورة المُلْك.
* حول تفسير سورة الإنسان.
* حول تفسير سورة العلق.
* حول تفسير سورة الكوثر.
* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوِّذتين بعدها.
* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.
* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.
* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها -آدابها -خصائصها.
* شهادة (لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ﷺ):

فضائلها -معانيها -شواهدها ومشاهدها -مطالبها.

* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة -شمائله المجيدة.
* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.
* التقرب إلى الله تعالى: فضله -طريقه -مراتبه.
* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين -فضائلها -آثارها -آدابها.
* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها -فضائلها -فوائدها.
* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.
* الدعاء: فضائله -آدابه -ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات.

* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.

* الإيمان بالملائكة عليهم السلام، ومعه بحث حول عالم الجن.

* حول ترجمة المرحوم الإمام العلّامة الشهير والعارف الكبير فضيلة سيدي الوالد الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني رضي الله تعالى عنه.

* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.

* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار.

* أدعية الصباح والمساء، ومعها استغاثات.

* مناسك الحج، ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها.

* الصيام: آدابه - مطالبه - فوائده - فضائله.

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم: كُتُب الإمام - تحميل كتب الإمام بصيغ متعددة

مِن آثار الشيخ الإمام

* محاضرات حول الفضائل المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم.

* محاضرات حول الإسراء والمعراج: آثاره -فضائله -أسراره.

*محاضرات حول الإيمان بالقضاء والقدر.

* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم.

* محاضرات حول عالم الجنة: مراتب الجنة - ألوان النعيم في الجنة - صفات أهل الجنة.

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم -الجزء الأول.

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالَم في الوعظ والتذكير -الجزء الثاني.

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم -موقف تعليم الكتاب -الجزء الثالث.

* محاضرات حول مقامات أهل الإيمان -الجزء الرابع.

* محاضرات حول هجرة سيدنا رسول الله ﷺ من مكة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة.

* محاضرات حول تفسير خواتيم سورتَي البقرة وآل عمران والمعوِّذات وأذكار بعد الصلوات.

* محاضرات حول مقتضيات الشهادة بأنه (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

* مجالس الحديث النبوي الشريف: الأجزاء الخمسة.

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم: كُتُب الإمام - تحميل كتب الإمام بصيغ متعددة

قَبَسات من المؤلفات

* الكلام حول الأدلة على أنه (لا إله إلا الله وحده).
* حُكْمُ أَبَوَيْ سيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم الشَّريفَين.
* أربعون حديثاً من جوامع كلِم النبي ﷺ.
* شفاعة سيدنا محمد ﷺ العامة والخاصة.
* التوسل والاستغاثة بسيدنا محمد ﷺ.
* رحمة سيدنا محمد ﷺ للعالم.
* عصمة سيدنا محمد ﷺ من الخطأ في جميع أحواله.
* حول مولده الشريف ﷺ والابتهاج والاحتفال بيوم مولده الشريف ﷺ.
* سبب وجود بعض الأحاديث -التي فيها ضَعْفٌ- في مؤلَّفات الإمام.
* سبب ذِكر بعض البشائر المنامية في كتاب (الصلاة على النبي ﷺ).
* البشائر الغُرَر للمكثرين من الصلاة على سيد البَشر ﷺ.
* آثار الزكاة وأنوارها، وعقاب مانع الزكاة.
* صلاة الاستخارة ودعاؤها.
* وصول الثواب إلى الأموات.
* معاني الصلاة الإبراهيمية.

وتجدونها -وغيْرها- متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم: كُتُب الإمام - تحميل أبحاث مختارة من كتب الإمام

المحتوى

المحاضرة الأولى ٣

المحاضرة الثانية: حول بيّنات الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام..... ٢٤

المحاضرة الثالثة: حول بيان أن سيدنا محمداً ﷺ

هو بينة الله تعالى الكبرى وحُجَّته العظمى على العالم..... ٤٠

درس حول المقام المحمود..... ٥٦

درسٌ حول فضل تلاوة القرآن الكريم..... ٦٣

درسٌ حول تفسير سورة ﴿ٱلْبَيِّنَة﴾..... ٦٩

درسٌ حول الإسراء والمعراج ٧٣

درس في جامع بانقوسا حول موقفه ﷺ مع الأمّة

في تعليم معاني الكتاب - البحث في قضايا الآخرة وعوالمها-

انتفاع الأموات بما يُهدَى إليهم مِن الأحياء

مِن ثواب أعمال صالحة وأقوال طيّبة..... ٧٦

محاضرة في جامع بانقوسا عام ١٣٩٩ هـ حول موقف تعليم الكتاب

العلم بقضايا الإيمان، الإيمان باليوم الآخر وما فيه -عالم الصراط ٩٣

أبحاث من دروس جامع بانقوسا عالم الجَنّة - كتابة الأعمال ... ١٠١

منازل أهل الجنة ١٠٤

مَقام الوسيلة ١١٢

عالَم الملائكة ١١٧

مِن وظائف الملائكة عليهم السلام ١٢٤

الملائكة المُوَكَّلون في أمر الجنين ١٢٦

الملائكة المُوَكَّلون بكتابة أعمال الإنسان ١٢٧
مِن صفات جبريل عليه السلام ١٣٣
الرُّوح القرآني ١٣٧
الرُّوح الأمين ١٤٠
عالَم الملائكة ١٤٨
مِن وظائف الملائكة ١٤٩
الحِكمة من كتابة الملائكة لأعمال وأقوال الإنسان ١٥٢
تمثّل الملائكة ١٦٢
عالم المثال ١٦٤
تَمَثّلُ الأمور الغيبيّة ١٧١
كلمات حول بعض فضائل شهر رمضان ١٧٧
معنى التوبة ١٨٠
أثر التوبة ١٨١
التوبة تفتح باب المحبة الإلهية ١٨٢
مِن فضائل شهر رمضان ١٨٤
آثار الذنوب ١٨٥
محاضرة في علوم القرآن - العِلم بتفاصيل الأكوان
عالم الملائكة ١٩٥
محاضرة حول عالم الملائكة:
مِن وظائف جبريل وإسرافيل عليهما الصلاة والسلام ٢١٤
محاضرة حول القَلْب وأحْوالِه
مع الشرع الإلهي والمُحمّدي ﷺ ٢٢٨

آداب الاستئذان ٢٤٣
آداب المناجاة ٢٥٣
آداب المجلس ٢٦٠
كُتُب للمُؤَلِّف ٢٦٩
مِن آثار الشيخ الإمام ٢٧١
قَبَسات من المؤلفات ٢٧٢
المحتوى ٢٧٣

الصفحات الرسميّة الوحيدة

للشيخ الإمام
عبدِ الله سِراج الدِّين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

srajalden.com

srajaldencom

srajaldencom

srajaldencom